المبتعدون لكي يقتربوا

المبتعدون لكي يقتربوا

رواية

د .محمد نجيب عبد الله

مراجع لغوي: د. إيمان الدواخلي

تصميم الغلاف : محمد كامل

رقم الإيداع : ٢٠١٢/١٦٠٩٩

I.S.B.N:٩٧٨- ٩٧٧- ٤٨٨- ١٦٥- ٧

دار اكتب للنشر والتوزيع

اكتب OKTOB.NET

الإدارة : ١٠ ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور، المرج الغربية، القاهرة .

المدير العام : يحيى هاشم

هاتف : ٠١١١٠٦٢٢١٠٣ - ٠١١٤٧٦٣٣٢٦٨

مكتبة اكتب : ٤٠ ش أحمد قاسم جودة من ش عباس العقاد ، خلف سيراميكا كليوباترا ، القاهرة .

هاتف : ٠١١١٤٣٢٨٥٢٥

E – mail :daroktob١@yahoo.com

Facebook : دار أكتب للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى ، ٢٠١٢م

المبتعدون لكي يقتربوا

د.محمد نجيب عبد الله

رواية



دار اكتب للنشر والتوزيع

إهداء

إلى جـــنى وجود وأدهم ومي ...
أربع نقاط ضي ...
في زمن المسخ ...
إلى آخرين لا زالوا معي ...
يؤمنون ... ويحلمون ...
ولم يسقطوا في الفخ ...
إلى قارئي العزيز الآن وروايتي بين يديه ...
يبحث معي عن الإجابات ما بين سطور ...
وأيام ...
وأحداث ...
وطيّات مخ ....

د. محمد نجيب عبدالله

كم هي الحياة قصيرة، وقاسية، وغريبة، ورهيبة، وغير معقولة.. بل أحيانًا غير محتملة. ألم يراودك هذا الشعور يومًا؟! لماذا ولـــدت؟! ماهي الفائدة من وجـــودي؟! ماذا لو أني لم أوجد أصلاً؟! كنت أيضًا أدرك أن حياتي بالذات - دونًا عن سائر الكائنات - قصيرة جدًا. هو يقين تأكد لدي من ساعة ولدت.. ولأثبت لكم مدى صحة يقيني، ما عليكم سوى الانتظار قليلاً.. ربما اليوم.. غدًا.. أو السنة القادمة. المهم أن تنتظروا، ولا تملّوا من الانتظار، فأنا إن فقدت اهتمامكم بموتي، أكون قد فقدت كل ما يربطني بهذه الحياة فعلاً . ألا يمكنني أن أستحوذ على اهتمامكم، ولو قليلاً؟.. يا لي من تـــعـــس!

ما الذي يثيركم إلى هذا الحد؟!

ما الذي فعله أيٌّ منكم بحياته؟ ما الذي استفدناه نحن إخوته وجيرانه وأصدقائه ونسباؤه وزملاؤه في الإنسانية من أيٍّ منكم؟!

- أنت يا هذا ..

تعتقد أنك جمعت مالاً وفيرًا.. تظن أنك هكذا تكون نجحت؟!

ألأنك ستترك لزوجتك وأولادك إرثًا ونعيمًا؟.. أهكذا تكون عملت ما عليك؟

حسنًا.. أخبرني من سيذكر اسمك بعد خمسين سنة من وفاتك؟! مائة سنة؟!

بل ألف؟!!

هل تجد يومها أحدًا من أحفاد أحفاد أحفادك يمشي متبخترًا، ويتقافز هنا وهناك، هاتفًا بمنتهى الفرح والسعادة:

عاشت ذكرى جدي الأول فلان؟!!

كم سيصله من مالك تظن؟! بل أيمكنك تخيل أنه سيكون حينئذ فقيرًا مدقعًا، لا يجد قوت يومه.. فكرة مفزعة، أليست كذلك ؟..

أستمحيك العذر، وأسألك العفو ..

- وماذا تركت لنا أنت أيضًا ..

لوحة جميلة!..

سيتآكل نسيجها وتضمر. أتظن أنهم سيجدونك فنانًا عبقريًا؟ ..

متى؟! بعد وفاتك .. ربما!..

ولكن .. إلى متى؟!

• موسيقى جميلة.. مَنْ يدريك أن الذوق لن يتغير، واليوم ينعتونك بالعبقرية، ويطلقون عليك من أسماء الكمال والجمال ما يطلقون .. أؤكد لك أن الشباب والشابات بعد مائة سنة ..

مائة سنة فقط ..

سيصابون بالدوار والقيء والغثيان إذا استمعوا إلى موسيقاك، أو لربما سيسقطون على ظهورهم من شدة الضحك.. والأوقع من هذا .. أنهم سيغلقون المصدر الذي تصدر منه!!

• تتيه أنت مدعيًا عملك الصالح .. مؤسسة خيرية ..

تُرى .. هل كانت خيرية حقًا؟!

هل ذهبت كل تبرعات الطيبين لمن يستحقون؟! ألم تكن تلك وسيلة لغسيل أموالك؟! ألم تكن تلك ستارًا لنشاط غير قانوني؟!

بل ما هو القانون أصلاً ؟!

مَنْ الذي يحدد الخطأ والصواب؟!

من الذي يحدد العقوبة والثواب؟!!

أنصّبنا أنفسنا ألهة وملائكة تحكم على الآخرين؟!

نصادر آراءهم وحرياتهم ..

ننتهك حرماتهم وأعراضهم ..

نتخيل أننا الحق .. والحق منا بريء ..

أحمد الله إن حياتي معكم قصيرة ..

هكذا لدي اليقين !!!

كم منكم الآن نعتني بالمكتئب؟!

أعتقد أن بعضكم قد بدأ في وضع تصوراته عني، ونسج القصص المحبوكة.. فما أنا إلا فاشل آخر، حاقد ناقم عليه وعلى الناجحين أمثاله، وأنني .. وأنني .. وأنني ..

وأنني - مثلاً - لا أجد امرأة تحبني ..

لأني – مثلاً - ذو وجه قبيح .. وفاشل كما تعرفون.

ولتكن محبوكة أكثر .. صاحب عاهة أو مرض !!!

ما الذي يعجبكم من البشر ..؟

المرح اللطيف، الذي يلقي النكات ذات اليمين وذات اليسار..

كالنحلة الجميلة، تتقافز بين الزهرات الجميلات، في الدنيا الجميلة ..

حسنًا .. إليكم تلك النكتة ..

عن زوجه أحست بالملل، فطلبت من زوجها أن يقول لها كلمة حلوة، فقال لها (بسبوسة) ..

(قل لي كلمة تهزني) ..

(زلزال ..)

(قل لي كلمة تذكرني بأني زوجتك ..)

(إذهبي وأنتِ طالق !!!)

ها .. ها .. هاااااي ..

نكتة حلوة جدًا .. أليست كذلك؟!

أنا أضحك عليها كل يوم وكل ليلة .. لماذا لا تضحكون؟!

قديمة؟! .. حسنًا .. هل تذكرون نكتة شهيرة أخرى ..

عن هذا الرجل، الذي يصفع الرجل الجالس على الكرسي أمامه على قفاه، وعندما يلتفت له بمنتهى الغضب، يعتذر منه متعللاً أنه ظنه صديقه أحمد. فقام الرجل، وعاد بعد قليل ليصفع الرجل ذاته ثانية.. يغضب.. يعتذر بأنه ظنه قام من

مكانه، وجلس بدلاً منه صديقه أحمد. فما كان من الرجل إلا أن غيّر مكانه فعلاً، فقام الرجل وجلس خلفه، ليصفعه للمرة الثالثة ضاحكًا قائلاً: أيرضيك يا أحمد أن تجلس أنت هنا، وتتركني أصفع الرجل الآخر هناك على قفاه مرتين؟!!

حسنًا إليكم .. وللمرة الأولى ..

مصدر إلهام هذه النكتة ..

دولة حدثت بها حادثة، أدت إلى خسائر مالية وبشرية جسيمة، فقامت بإبادة دولة، تبعد عنها قارتين ونصف.. ثم التفتت، لتجد أنها لم يسترح فؤادها بعد.. فأخذت تعد العدّة لإبادة دولة أخرى، تبعد قارتين فقط، علّ مزاجها ينعدل، وفؤادها يستريح .. في الوقت الذي تقوم فيه شبه دولة — معترف بها قهرًا – بـــ....

لماذا أطيل عليكم .. أنتم تعرفون ذلك أكثر مني ..

أعرفتم الآن مصدر هذه النكتة؟!!

كلا أعزائي، لست بالسوداوي أو المتشائم؛ لكن ألديكم أي اختيار؟!

لست أنا.. فقط لست أنا المسئول عن كل هذا أيضًا.. لست مسئولاً عن هذا الخلل.. لم أشارك يومًا في صناعة الأحداث والتاريخ .. ولو إني وددت أن كنت فعلت ..

وإذ أهم بفتح باب سيارتي، يتناهى إلى أسماعي التنبيه المتصاعد عن وصول رسالة على هاتفي المحمول. سلسلة المفاتيح مدلاة من باب السيارة نصف المفتوح.. حقيبتي في يد، والأخرى بمهارة تعبث بأزرار المحمول بحثًا عن الرسالة الواردة..

((حبيبي .. وحشتني .. بعشقك .. بعبدك .. نفسي أسمع صوتك .. نفسي أشوفك ولو لحظة واحدة .. نفسي ألمس إيدك .. ارحمني))

ابتسمت ابتسامة خفيفة.. هذه الرسالة ترد على المشككين في وجود امرأة تحبني. لا يجب أن تكن محرومًا من شيء ما، لتشعر بالسخط والغضب ..

يكفي أن تكون ..

تحس !!!

إن مجرد تمتعك بهذه الصفة، الإحساس، سيجعلك تشعر بالسخط أكثر مني، والغضب أضعافًا مضاعفة.

اليوم سألني صديقي (أمجد) عن صديق لي يغيّر له دولارات، لأنه يحتاجها لبعض أعماله، أو للسفر لا أذكر. وعندما كلمت صديقي الآخر، الذي لن أخبركم اسمه، لأني لا أضمن وجود بعض الوشاة بينكم، أخبرني سعرًا أفزعني، وأفزع (أمجد). فالأرقام تتصاعد ما بين يوم وليلة، بطريقة جعلت (أمجد) يصرف نظره عن إنجاز عمله، أو السفر لا أذكر ..

ركبت السيارة، وذبت بها في خضم التيار السابح من السيارات في الطريق . وهي رحلة تبدو غير مأمونة العواقب. أحمد الله كل يوم على عودتي منها سالمـًا .. لذا – وحتى لا أسمع صوت المشاحنات بالخارج، وأصوات العنف، والشجار، والسباب، والكلاكسات، وكل شيء – أغلقت زجاج السيارة، ووضعت قرصًا مدمجًا في مشغل الأقراص المدمجة بسيارتي، ليتصاعد صوت الكمان الشجي، يملأ عليّ حياتي.. يصيّرني إنسانًا طائرًا، لا أفكر في شيء .. كأني أعطي غضبي وسخطي حقنة مسكنة..

كما قلت.. هي فقط حقنة مسكنة..

إذ أنك وأنت تقود سيارتك..

سيعاودك الغضب والسخط.. سريعًا.. سريعًا..

أعتقد أن هناك نظامًا ونسقًا لكل شيء في الدنيا، في كل مكان بالدنيا، إلا أشياء بلادنا نحن، وأماكننا نحن !!!

أعود أخيرًا، كالقابض على الجمر لمسكني.. مملكتي، فأصطدم صاعدًا بشجار بين الجيران..

والأسباب كلها جاهزة.. وكلها تافهة صغيرة..

فهم لا يفتأون يتشاجرون بسبب المياه، أو نظافة السلم، أو تعطل المصعد، أو للا سبب على الإطلاق..

أدخل شقتي، وأنا أكاد أترنح، أتهاوى على أقرب كرسي.. أحسّني كهلاً، ضعيفًا، مهزومًا.. من لا شيء، ومن كل شيء أيضًا ..

الآن تأتيني رسالة أخرى على تليفوني المحمول..

((وحشتني يا مالك قلبي .. يا حياتي .. يا كل ما ليا .. يا دنيتي وأملي وحبيبي .. بعشق أنفاسك ولمسة إيدك وكل كلامك .. ارحمني و رُد عليا .. أنا من غيرك أموت ..))

ابتسمت ..

الكلام يصيبني بالخجل، ويملأني إحساسًا بالذنب.. ما الذي أفعله أنا في دنياي، لأستحق كل ذلك؟!!

شريط من ذكريات يمر بعقلي.. أتذكر حبي الأول .. (نسرين).. تلك الحبيبة الرائعة، التي كانت كل ما أتمنى.. أو هكذا ظننت.

الرقيقة.. القوية.. الجامحة. أعرف أنها تزوجت بعد انتهاء علاقتنا بقليل، وهي الآن مع زوجها، الملحق الثقافي لسفارتنا بلندن. أعرف أنها لطالما حلمت بذلك. هي تحب لندن حبًا غريبًا، وأرادت أن تحيا هناك ..

ترى .. أهكذا يكون تحقق لها ما أرادت؟!!

حالة انعدام الوزن بعدها تمكنت مني، وهناك جرح داخلي، لا أظنه اندمل؛ ولكني أظن – على الأقل – أني تجاوزته، مستأنفًا النجاح.. والحياة.. بل والحب.

أو هكذا أظن..

ثانية ابتسمت.. ولكن للا سبب على الإطلاق.. أليس طريفًا أن نبتسم حتى وإن لم نجد لابتساماتنا أسبابًا؟!!

اليوم قبضت مرتبي، مبلغًا وقدره.. أخرجت النقود من جيبي، ووضعتها على الطاولة أمامي. بمنتهى الفلسفة سألت نفسي..

أمن أجل هذه الأوراق يقتتل الناس ويختصموا؟!!

تركت الأوراق الحمراء من فئة الخمسين جنيهًا على الطاولة، وقمت لأغير ملابسي، وأستحم.

أدركت بسرعة أنه لا يوجد أحد غيري بالمترل حتى الآن. أخي لا زال بكليته، وأمي في العمل، وأختي الصغرى بالمدرسة. أما الوالد العزيز، فهو في دولة عربية، ترعرعنا على وصفها بالشقيقة، رغم إن أهلها - وفي كل وسائل الإعلام، وفي كل المناسبات — يهاجمون بلادي !!!

تساقط القطرات اللذيذة على جسدي المرهق، حتى كدت أنام وأنا أستحم .. وهذا فعلاً ما فعلته بعد أن انتهيت ..

أيها الموت المؤقت، ها أنا ذا قادم إليك ..

وبنفسي ..

***

استيقظت ..

تناولت الغذاء متأخرًا كالعادة، شربت الشاي، أشعلت سيجارة ..

أنا أدخن كالمحرقة أو القطار البخاري قديمًا ..

لماذا؟!

ربما أريد أن أؤكد حقيقة موتي المبكر.. لا أريد أن أترك شيئًا للظروف. ثم إنه من الجميل أحيانًا أن تعرف كيف تموت، بل ولماذا تموت، ويا حبذا لو عرفت أنك مخطئ على نحو ما ..

اليوم مات ألف فلسطيني .. لا يدخنون ..

لم يتسع لهم الوقت ليدركوا كيف ماتوا ..

و لم يعرفوا لماذا ماتوا أصلاً ..

وبالطبع هم غير مخطئين ..

بالأمس مات عشرة آلاف أفغاني ..

وبالغد سيموت مائة ألف عراقي ..

ومن يدري بعد ذلك كم سوري أو سوداني أو مصري أو لبناني ..

أليس جميلاً أن ندخن؟!!

جلست على جهاز الكمبيوتر، وبدأت مطالعة بريدي الإلكتروني. الآن أبدأ جلسة الإدمان الاختياري .. عفوًا أيها العالم الخارجي، ستمر حوالي ثلاث أو أربع ساعات، وأنا غائب عنكم ذهنيًا وروحيًا.. لو إن القيامة قامت، وأنا على جلستي تلك، فلن أعرف.

وصلتني رسالة من صديقتي الأمريكية، تريد جمع توقيعات لمساندة ضحايا الحادي عشر من سبتمبر مرة أخرى.. بعد أخرى. ابتسمت، ومسحت الرسالة.

جاءتني رسالة من صديقتي الكندية.. اسمها (إبريل)، ولديها صديقة متزوجة من شاب إيراني.. تسألني هل صحيح أننا في شرائعنا وديانتنا وتقاليدنا يجوز للزوج أن يضرب زوجته أول سبع سنوات من الزواج، وأننا نمسح أعضاءنا بعد التبول باليد اليسرى، وإذا حدث وتم ذلك باليد اليمنى، فهذا معناه الإصابة باللعنة وسوء الحظ لمدة ثلاثة عشر عامًا؟!!

أخبرتني خجلى إن هذا مكتوب في كتاب عن عادات وتقاليد وشرائع بلادي، لمؤلف شيخ باكستاني باللغة الإنجليزية. وأن هذا الكتاب جزء من مجموعة كاملة.

سألتني .. (رمزي) .. هل أشترى باقي كتب المجموعة؟!!

الرسالة التالية كانت من (ماهر) صديقي العزيز، والمعار لدولة شقيقة أخرى، غير الشقيقة الأولى التي بها أبي. هو مسافر منذ فترة طويلة ولا يأتي في الإجازات أو الأعياد .. أمه مريضة بالسكر، وأذكر أنه كلمني أكثر من مرة من الخارج، وطلب مني بصفتي طبيبًا أن أذهب للاطمئنان عليها، وقد فعلت. هي لا تعاني السكر فقط؛ بل تعاني من غربة في بلدها، وهجر في بيتها. اثنان من الأبناء بالخارج، والابنة متزوجة ومقيمة في حي بعيد.. الزوج ميت، ولا أحد بالمترل.

أخبرني (ماهر) إنهم يفكرون في إنهاء إعارته، أو تخفيض مرتبه بنسبة أربعين بالمائة، نظرًا للظروف الحالية في العالم .. سألني هل يعود، وما هو الوضع هنا.. هل يطلب إنهاء الإعارة والعودة، أم يبقى مع التخفيض؟.. يسألني النصيحة، فهو واثق في حكمي على الأمور.. وختم رسالته بأنه لا يخفي عليّ إنه يفكر جديًا في قبول التخفيض والبقاء، فقد سمع إن قيمة الجنيه قد انخفضت بنفس النسبة، وأن الأوضاع هنا لا تسر عدوًا ولا حبيبًا .. قال إن مرتبه بعد التخفيض سيظل أفضل الحلول.. ثم سألني .. هل زرت والدته مؤخرًا؟!! وكيف حالها؟!!

كنت على وشك أن أرد عليه ردًا جافيًا، عنيفًا. هو لا يعلم أنه بقبوله هذا العرض، إذًا هو يوافق ضمنيًا أن قيمته كإنسان قد انخفضت أربعون بالمائة ..

وغدًا ستون ..

فثمانون ..

حتى لا يصبح له قيمة على الإطلاق ..

من يتنازل أولاً .. يتنازل دائمًا ..

ومن يرخّص نفسه .. صار رخيصًا ..

يبدأ الأمر دومًا بالفرد.. فالشعب.. فالوطن.. فالأمة..

إلا أنني، ولسبب ما، لم أرد عليه هكذا ..

بل أخبرته إن كل ما ذكره صحيح، لكن أمّه تتلهف على رؤيته، ودائمًا تبث لي خوفها من أن تموت وحيدة، قبل أن ترى أولادها حولها، ولو لمرة أخيرة.

هذا فقط ما كتبت ..

وانتقلت للرسالة التالية ..

إنها رسالة متقادمة.. بمعنى أن أحدهم قد أرسلها إلى مجموعة، وأحد أفراد هذه المجموعة أرسلها إلى مجموعة أخرى، وهكذا دواليك، حتى وصلتني الرسالة من صديقتي (لبنى)، طبيبة الأسنان، عن مجمـــوعة من الشباب الصاعد الواعد، المدرك لقضايا عصره ووطنه.. حمادة وميزو يتفقان على ضرورة عمل

شيء للفلسطينيين، ويتفتق ذهنهما عن مظاهرة بجامعة القاهرة . تكون (مَدْعَكَة) ..

يكلمان (شيري) و(بيري) و(شاهنده) وشلتهم .. و(هوبة) وباقي (المقاطيع) !!!

نرى جانبًا من المحادثة بين (حمادة) و(شيري) ..

المظاهرة الساعة تسعة عند كنتاكي عباس .. ولا يجب أن تنسى ارتداء الـــ (ديرتي چيتز) علشان البهدلة !!!

فختمت (شيري) المكالمة بالإنجليزية والفرنسية .. لغتيها الأصليتين طبعًا .. (سي يو تومورو) ثم .. (بون نوي) ..

كان هذا الجزء الأول من حلقات مسلسل شباب اليومين دول.. ربنا يحميهم لشبابهم.. ويجعلهم ذخرًا للوطن.. والأمة.

أحسست ببعض الاختناق.. كنت لا أعلم ماذا أفعل؟!

الرسالة التالية كانت إحدى رسائل ما يسمى بالإسرائيليات.

تلك الرسائل التي تخبرك أنك إذا لم تقم بعمل كذا نسخة من هذه الرسالة، التي من المفروض أنها دينية، وأنها وصية الصحابي فلان، أو حلم الشيخ علان، وأننا إذا لم نقم بإرسال هذه النسخ عبر البريد الإلكتروني (في الماضي كانت طباعتها

بماكينة الزيروكس للنسخ المطبعي والماضي السحيق .. نسخ مقلدة بخط اليد) .. المهم في الأمر هو نشر هذه الرسالة، عن معجزة ما، أو حدث غير معقول لعدد عشر أشخاص، أو عشرين مثلاً ..

نعم .. نحن نهتم بذلك جدًا ..

معجزة قبر فلان .. أو حلم علان ..

نعم .. نحن نهتم باسم الله المكتوب على تفاحة، أو في قلب بطيخة، أو حتى فوق القمر ..

لكننا على ما يبدو .. لا نهتم بالله فعلا !!!

نحن نشهق غير مصدقين عندما يولد طفل بذيل في باكستان، ونتحدث عن قدرة الخالق، ومعجزة الخلق.. بالرغم من أننا لا نستحق حدوث تلك المعجزة معنا من قبل !!!

والتي تحدث معنا كل لحظة، حتى في حركة اليد ..

هل تعلمون أن اللوحة الحائطية الشهيرة المكتوبة بالأشجار.. (لا إله إلا الله) (محمد رسول الله) .. لا بد أنكم رأيتموها جميعًا من قبل دلالة على عظمة الخلق والخالق.. هي مجهزة .. أجل .. مسلم مستشرق ألماني هو من قام بهذا العمل في حديقته .. ليشترك في مسابقة ما وفاز .. وصارت أشجاره

أشهر أشجار في التاريخ. نحن لم نفكر لوهلة أن هذا من عمل يد الإنسان، كما لو أن هذا الإنسان قاصر عاجز، لا يقدر على شيء. توقفنا جميعًا عن العمل، بحثنا عن المعجزات، وعشنا داخل الأوهام .. ماذا سنفعل نحن؟! الله سيفعل كل شيء .. الله سيترل العقاب بالمجرمين .. الله سيخلصنا مما نحن فيه .. الله سيرزقنا من حيث لا نحتسب .. الله سيكسينا ويحمينا ويصيرنا أقوياء ..

فقط .. هكذا ..

نحن لن نعمل، سننام حتى ما قبل العصر، نستيقظ معكري المزاج، نسب ونلعن ونسخط ونغضب، نتنخّم ونتمضمض ونبصق على الأرض .. سندخل نتبول، وستلمس أيدينا اليمنى أعضاءنا، ولن تصيبنا لعنة ما أو سوء حظ.. سننتظر مباراة الساعة الثالثة أو السادسة، ونتفرج على بعض أغنيات الڤيديو كليب للمغنيات العاريات الراقصات الجميلات اللذيذات المغريات .. سنأكل، ونظل جالسين هكذا .. لن نفكر، ولن نقوم .. سنظل هكذا حتى تصاب مقعداتنا بقرح الفراش.. وعندما يحل المساء، سنجلس جميعًا على المقاهي .. المقاهي في كل مكـــــان، لابد سنجلس على إحداها .. سندخن السجائر والشيشة والمعسل والتفاح والكنتالوب، ونشرب الشاي والقهوة والسحلب والعناب .. سنظل هكذا حتى الفجر.. ولكننا لن نعمل .. فكما أخبرتكم قبلاً .. الله معنا ..

وهو يحبنا .. وسيجعلنا أفضل الخلق جميعًا .. ثم إن هذه الدنيا لا فائدة منها كما نعلم .. المهم أن الله سيدخلنا جميعًا الجنة في الآخرة نحن جميعًا موقنون بذلك ..

ربما سنتذكر أن نصلي ..

ربما أيضًا نتوقف عن الأكل والشرب نهار رمضان ..

وسنختصم جميعًا على قرعة الحج ..

ولكننا لن نعمل .. ولن نفعل أي شيء ..

فالله يفعل كل شيء ..

سنستمر نخدع أنفسنا ونخدع الآخرين .. ولكننا ....

- (رمزي).. ممكن توصلني الدرس قبل ما تروح العيادة؟!!

لا تفزعوا .. هذه (جميلة الأمير علي) .. أختي الصغرى ..

غمغمت أن نعم.. نظرت لساعتي.. الوقت تأخر.. أغلقت بريدي الإلكتروني، وقمت لارتداء ملابسي استعدادًا لنصف يومي الثاني، الذي سيبدأ بعد قليل .. تذكرت أن عندي زيارة منزلية اليوم بعد العيادة، وسيبدأ عملي مبكرًا غدًا ..

حسنًا .. سأسلّم نفسي ..

أودعكم وداعًا مؤقتًا ..

(ربما يريد الله لنا أن نقابل بعض الناس
السيئين .. قبل أن نقابل الجيدين منهم .. حتى
يتستى لنا أن نعرف أنهم جيدون .. ولنعرف كيف
نشكره على هذه الهدية ..)

(سماح) ..

مساعدتي في العيادة.. مؤدبة.. متدينة.. غير جميلة.. دبلوم تجارة.. تصرف على منزلها من عمل بالنهار في مصنع للنسيج، وعمل مسائي في العيادة. مسحة من الحزن تغلف وجهها دائمًا أبدًا. اليوم، كان وجهها أكثر حزنًا بشكل ملحوظ. بالطبع هي لا تحمل همّ الفلسطينيين، ولا تعرف أن الأمريكان سيضربون العراق، ولا تبالي باهتزاز سعر الدولار، أو فوز الأهلي بالدوري العام المصري، وصعود ريـــال مدريد لقبل نهائي بطولة الأندية الأوربية ..

إن مشاكل (سماح) واقعية أكثر من ذلك، وهي دائمًا من قبيل مرض أبي، وعملية أمي، وفسخ خطوبة أختي، وبقاء أخي بلا عمل، ووفاة بنت خالتي في حادثة ميكروباص ..

لم يكن هناك أحد في العيادة بعد. ولكني -كطبيب - لن أخطئ تلك القطرات المتكاثفة لعرق غزير يحيط بجبينها، ويتقاطر عن وجهها، أنفاسها غير منتظمة، وعندما همّت بالوقوف لفتح باب غرفتي لي كادت تسقط. طلبت منها الجلوس، وسألتها عما تحس، فأنكرت أي شيء. وعندما ألححت عليها، اعترفت أنها متعبة قليلاً؛ إلا إن جسدها كان يرتجف أمامي كعصفور بلّله المطر.

رفضت بإباء وشمم أن أقوم بالكشف الطبيّ عليها.. ألححت.. على مضض وافقت.. حسبتها لوهلة ستصاب بالتشنجات.. نبضات قلبها كانت سريعة للغاية، وعفوًا لم تكن حرارتها مرتفعة، وعندما رفعت خمارها عن عنقها، كانت غدتها الدرقية متضخمة قليلاً. وأدركت كل شيء بسرعة.. كما لو أنها ينقصها توتر فوق ما تحياه من توتر، حتى تصاب بفرط في إفراز هرمون الغدة الدرقية، وهذا سبب نحولها الشديد، وعرقها الغزير ونبضات قلبها السريعة، وتوترها المبالغ فيه.

بضع اتصالات تليفونية، وكان مندوب المعمل، الذي أتعامل معه، يسحب عينة تحليل دم لها، وكتبت لها علاجًا مبدئيًا، أرسلت في طلبه من صيدلية مجاورة. انقلبت نظراتها، التي كانت دومًا متشككة مستريبة إلى شيء أقل حدة، وأكثر حميمية.

عم (سيد) مريضي اللطيف، والمصاب بسرطان في الكبد، حالته متدهورة قليلاً . طلبت من أبنائه أن يجهزوا لدخوله المستشفى في أقرب فرصة ..

الست (عطيات) لا تجد الأنسولين المدعم، ولا تستطيع عمل تحليل السكر بالمعمل لأنه مرتفع القيمة. حللت لها السكر بجهاز لدي، وكان رقمه مرتفعًا للغاية، ولكني لم أخبرها.

أما (محمد مصطفى)، فقد توقف عن أخذ علاج الضغط، لأنه يحس بالملل. هو لا يستطيع أن يتوقف عن تناول الملح، ولا

يستطيع تذكر أخذ الدواء في موعده، كما أن الدواء يسبب له بعض الحرج مع زوجته في أحيانٍ أخرى ..

أما الحاج (شوقي) — ذو السبعين ربيعًا — فقد طلب نصيحتي فيما يخص بزواجه ثانية .. فتاة صغيرة من البلد .. وهل مسموح له باستخدام الڤياجرا أم لا. لم أستطع أن أمنع نفسي من الابتسام، وحذرته من ذلك بالطبع.

مدام (شكرية) كالعادة بشكوى نفسية أكثر منها عضوية، فهي إما مصابة بالصداع، أو الأرق، أو تنميل بالأصابع أو ألام بالعضلات أو السمنة.. وزوجها لا يهتم بها .. و ..

إهئ .. إهئ .. إهئ هئ ..

(دموعها هي بالطبع .. لا دموعي) ..

ومدام (إحسان) التي تصاب بالحساسية كل أسبوعين تقريبًا، من فرط استخدامها لأدوات التجميل مجهولة المصدر. هي تحاول أن تكون جميلة، ولا تريد أن تدفع الثمن ماديًا؛ إلا إنها تضطر لدفعه لشراء الأدوية اللازمة لعلاج تأثير ذلك !!!

أوووف .. إن العيادة تبدو مزدحمة اليوم ..

لماذا أتذمر الآن .. والمعتاد أن أتذمر من قلّة المرضى؟!!

أستاذ (هاني) المحامي يناقشني في دواء ما، ويستشيرني في طريقة مختلفة لتناول الدواء، ويعرض علي العمل طبيبًا في الشركة التي يعمل بها، فاعتذرت في رقة .. أنا محمّل بما فيه الكفاية ..

ثم الفتاة (نانسي) .. والحاجة (فوزية) .. وأستاذ (خليفة) .. و .. و .. و ..

***

(عندما تغلق أحد أبواب السعادة، ينفتح آخر تلقائيًا. ولكننا اعتدنا على تأمل الباب المغلق كثيرًا، لدرجة أننا لا نتبين الآخر المفتوح)

الآنسة (فيروز) ..

كان هذا هو صوت (سماح) يبلغني أن (فيروز) على التليفون. حبيبتي الرائعة (فيروز) ..

رائعة الجمال.. رقيقة للغاية.. تحبني للغاية.. تجعلني أحس كما لو أني عظيم. تخبرني إن لوجودي أهمية ما.. تشرق على دنياي كشمس دافئة حنون، تضمني كأم، وتتلهف على رؤياي كالعشيقة.. تحمد الله على خلقي، وهو شيء أنسى أن أفعله أنا شخصيًا، وإن فعلته، فأنا أحمده من باب الذي لا يحمد على مكروه سواه ..

هي تحبني رغم إنها لا تعرف ماذا سيحدث لنا في المستقبل.. ألف مشكلة ومشكلة بيني وبينها.

أهلها.. أهلي.. المجتمع.. الفوارق الطبقية، والمظاهر الاجتماعية، والتمزق الأسري، والتوافق البيئي، والثقافة الموروثة .. وآلاف من ألفاظ لا أعرف لها قيمة، تخنقني، وتجعلني أتمنى لو أني أخطفها إلى جزيرة نائية، لا يوجد فوقها غيري وغيرها، نعيش حياتنا عاريين، كما ولدتنا أمهاتنا، نأكل ما تجلبه أيدينا، ونفعل ما يتبادر إلى أذهاننا، ونقول ما نحس..

أنا لا أريد هذه الحياة بتعقيداتها..

أريد حياة بسيطة مع من أحبها وتحبني ..

ولكن صعب للغاية ..

لأنه لا يوجد شيء بسيط ..

المستقبل المشرق مبني على ماضي منسي .. هكذا يقولون..

ماذا عن الحاضر المنسي ..

ماذا عن المستقبل المنسي ..

ماذا عن الحياة المنسية ..

تُرى أي إشراقات تنتج عن كل هؤلاء؟!!

أنا فقط أريد أن أحيا.. حتى تحين لحظة موتي، وعلى وجهي ابتسامة، وحولي أناس يبكون.. كما كنت حين ولدت أبكي، وحولي أناس يبتسمون..

هل صحيح أننا لكي نشعر بالسعادة يجب أن نبكي.. نتأذى.. نبحث فلا نجد.. نحاول فنفشل.. أن نتألم ..

لكن حياتي حياة واحدة.. إن لم أحلم بما أريد أن أحلم به.. إن لم أذهب لما أريد أن أذهب إليه.. إذا لم أكن ما أصبو إليه.. إذا لم أحب من أرغب في أن أحب.. فإنه لن يتسنى لي فعل ذلك ثانية.

- حبيبتي.. روح قلبي.. وحشتيني موووووت.. أنا مشتاق لك زي ...

كنت أبحث عن التشبيه المناسب ..

- زي ما قطرة ندي تشتاق لها الزهرة .. زي نقطة مطر تشتاق لها الصحرا .. زي الرضيع ما يشتاق لصدر أمه .. زي..

- وأنا اشتقت لك زي كل دول وأكتر ..

فابتسمت ..

هي لا تستطيع أن تعبر بأسلوب أدبي كما أفعل، ولكنها تحبني فعلاً، وترد بتلقائية، ردها مفحم مُوجَز مُعبِّر.

استمر حديثنا دافئًا .. بل حارًّا أحيانًا ..وانتهت المكالمة كأني تعاطيت توّي كوبًا من عصير السعادة..

آاااه ..كم هو لذيذ !!!

بعد كثير وكثير من إنسانيات المرض، وأناس مرضى .. وهو الشيء الذي لم أكن معتادًا عليه في عيادتي، التي فتحتها منذ فترة وجيزة.. ذهبت للزيارة المنزلية. منزل مدام (ناهد)، بالمهندسين.

أول ما لفت نظري أن ابنتها الكبرى — فتاة رائعة الجمال — (منى) ذات الثمانية عشر عامًا، استقبلتني بلهجة غير مصرية. بالرغم من أني متأكد تمام التأكد من لهجة مدام (ناهد) المصرية، حين حدثتني على تليفوني المحمول، لتصف لي العنوان.. (منى) شقراء بيضاء شاهقة، ملامحها شامية بديعة، وكذلك أختها الصغرى (ندى)..

- أمّال بابا فين؟!

سألتها في حرص وفضول ..

أن تدخل مترلاً لامرأة وابنتيها رائعتي الجمال هكذا .. فإنك تتوقع أن تواجه ثلاث حوريات بحر.. ومن الخطير جدًا.. جدًا .. ألا يكون هناك رجل بالمترل..

هكذا علمتني الحياة ..

نحن في مجتمع مختلف.. ثم إن لافتة طبيب، المضاءة بالنيون، لابد قد سقطت سهوًا عن جبهتي عند المجيء !!!

- في الضفة .. (جاءني الرد بصوت لذيذ)

بدأت الآن في إدراك ما يحدث ..

- هوّه إنتو ....

- فلسطينيين .. (ذكية هي لا بد أن أعترف) ..

ابتسمت.. وغمغمت بما لم أفهمه.. اهتزت حقيبتي لوهلة، وجال بخاطري أن أضمها، وأربت على ظهرها، إلا أنني — بالطبع— لم أفعل.. العيون الخضراء القلقة تراقبني..

أتراه القلق، الذي اكتسبه كل أفراد هذا الشعب؟!

أم قلق من مرض الأم بالداخل؟!

سألت عن مدام (ناهد)، فجاءتني (ندى) مرتبكة تسألني:

- حضرتك .. شو تشرب؟!

شكرتها في رقة، تحججت بتأخر الوقت، وإرهاقي، ورغبتي في الاطمئنان على مدام (ناهد) أولاً. إلا إن الحورية الصغيرة — كأن لم تسمعني — استأنفت ..

- بارد ولا سُخُن؟! (إنها مصرة حقًا)

- أي حاجة ..

- عصير فريش؟! كويس؟!

- كويس .. (وابتسمت ثانيةً) ..

ثم التفت إلى (مني)، ففهمت وتقدمتني إلى حيث ترقد مدام (ناهد)، تعاني ارتفاعًا شديدًا بدرجة الحرارة، مع التهاب عنيف بالصدر.

(منى) تتابع في ترقب كل ما أفعل، كما لو كنت ساحرًا.. تتوقع مني الآن أن أخرج من حقيبتي شيئًا ما، أعطيه لأمها، فتقوم من سريرها معافة مشفية.. إلا أنني – وللأسف الشديد – نسيت إحضار عقاري السحري العجيب معي هذه المرة.

بعد قليل كنت انتهيت.. سألت عن إمكانية إعطاء مدام (ناهد) مضادًا حيويًا عن طريق الحَقْــن، وهل يوجد أحد يعطيها الحُقَــن؟!

- ما باعرف ..

(ما باعرف) أنا ما دهاني .. استأذنت من جميلاتي، ونزلت أحضر الدواء بنفسي. عدت بعد دقائق، وأعطيتها الجرعة الأولى بنفسي. كانت (ناهد) مرهقة للغاية، إلا إنني استقبلت شكرها بابتسامة ملأت وجهي. أخبرتها إني سأمر عليها يوميًا بعد العيادة، لأعطيها الحقنة بنفسي. يجب أن نحارب المرض بمنتهى الحسم حتى لا يتفاقم .

لم أدر كمّ الأشياء التي علينا ان نحارب !!

- كام حساب حضرتك .. (كانت هذه من مدام (ناهد))

رفضت أن آخذ شيئًا، ولا أعرف لماذا. أصرّت.. أصررت.. أخرجت مائة وخمسون جنيهًا، ووضعتها في جيب

جاكتتي المجاور لها.. في غضب مصطنع أخرجت النقود، ووضعتها على الكومود المجاور.

كانت الفتاتان تراقبان الشد والجذب، بيني وبين أمهما، وهما لا تجرؤان على التدخل.. بضع مقاومات أخرى.. واستسلمت (ناهد)، بعد أن استنفدت ما تبقى من طاقتها. أحسست لوهلة بالسعادة، ولكني لم أجد بعد تفسيرًا لما فعلت.. تلك هي المرة الأولى التي أفعل شيئًا كهذا.

جاءتني الآن (ندى) بكوب العصير ..

آن الأوان الآن لأبدى بعض الاستسلام.. فجلست أشرب العصير متلذذًا، وما عدت أحس بتأخر الوقت، أو الإرهاق، أو نظرة المجتمع للأشياء !

***

(أسعد الناس حالاً ليسوا بالضرورة من يملكون أفضل الأشياء .. هم فقط يكتشفون الأفضل في الأشياء التي تقابلهم)

***

حين عدت أخيرًا إلى عالم الواقع، وتركت عالم الجنيّات المسحورة، والحوريات الجميلات، كان الوقت متأخرًا حقًا.

في حذر أصعد درجات السلم المظلم. أعرف أنه ما بين لحظة وأخرى ستصطدم قطة هاربة بقدمي.. متأكد أنا من هذا، لكن نبضات قلبي تتسارع كل مرة أفعل فيها ذلك. ربما

هو الترقب والانتظار.. أعتقد أن ترقب الأشياء وانتظارها أسوأ ألف مرة من حدوثها.. أعتقد أن هذا حال الفلسطينيين الواقعين تحت الاحتلال الإسرائيلي، وأظن ذلك هو السبب الذي يحدو بهم للمواجهة بلا خوف، بصدر مفتوح، ورغبة حقيقية في تذوق طعم الشهادة. أعتقد أن هذا حال العراقيين أيضًا، منذ أعلنت أمريكا عزمها على توجيه ضربة عسكرية لهم، بحجة وجود أسلحة دمار شامل مخبأة لديهم، متحدّيين بذلك الإرادة العالمية، وحريات الشعوب على أراضيها..

يا الله! كل هذا لأني أنتظر أن تصطدم بقدمي قطة؟! لا بد أن عقلي مشغول جدًا حقًا .. إن الحياة التي نحياها لتطغي على أعصابنا فعلاً.. تجعلنا عبيدًا لها، لا نفكر إلا فيها.. نحاربها، ونحارب من أجل البقاء بها ..

نحارب .. نحارب .. نحارب ..

كل العالم يحارب.. كلنا نريد أن نحارب.. أو نُجبر على أن نحارب.. أو نُحمل على أن نحارب ونحن لا نعلم ..

الحرب .. هي اللغة الرسمية الآن ..

من يريد أن يتحدث عليه أن يحارب.. من يريد أن يفعل شيئًا فليحارب.. إن الحرب حتى تأتيك وأنت في منزلك تشاهد

القنوات الفضائية، تأكل الشيبسي، وتشرب الكوكاكولا، أو البيبسي كولا ..

لا يهم ..

اصطدمت القطة بقدمي أخيرًا، كما توقعت .. انتفضت، وندت مني صرخة مكتومة، بل وكادت حقيبتي تسقط. أحسست ألمـًا عابرًا في صدري، وغصة في حلقي، وتقلصًا بمعدتي .. كل ذلك وأنا أعرف ..

يقولون إن خمس وعشرون بالمائة من سكان العالم – غير المرضى النفسيين – هم مرضى نفسيون، بل ويحتاجون للعلاج أيضًا.. أظن أن النسبة في بلادي تقترب من نسبة نجاح الرؤساء في العالم السعيد الذي ننتمي إليه ..

لو أني مكان حكوماتنا الرشيدة، لأذبت أطنانًا من العقارات المهدئة في مياه الشرب، وجعلت شعوبنا كلها سعداء، بدلا من أن يبحث كل منّا على حدة.. إن أكثر من نصف عدد شعوبنا يحصلون على سعادتهم من البانجو والحشيش، والخمور المغشوشة، والحديث عن الجنس، وهم لا يقدرون.. أليست المياه المحتوية على مواد مهدئة اختراعًا لذيذًا حينئذ؟!

أووف.. إن الباب مغلق من الداخل..

اضطررت إلى قرع الجرس.. سأوقظ أمي لا شك .. أوّاه إنها الثالثة صباحًا.. أبدو كما لو كنت عائدًا لتوي من ماخور ما أو ديسكوتيك. مرهق أنا وأترنح قليلاً، كأني سكران، عيوني حمراء، وتحتها أسود، وأنفي مزكوم قليلاً.. كالمدمنين..

يا لي من بهجة يفرح لها القلب الحزين ..

تفتح أمي الباب، كأنها لم تنم بعد.. هي لا زالت تقلق عليّ حتى الآن. سألتني متشككة أين كنت.. أخبرتها.. لم يبد عليها التصديق. مصمصت بشفتيها، دعت الله أن يهديني، ويرزقني ببنت الحلال، التي تجعلها تكف عن القلق عليّ هكذا ..

و لم تنس بالطبع أن تلمح بعض التلميحات عن خيبتي، وقلة حيلتي، وإنني سأكون السبب المباشر في إصابتها بهشاشة العظام؟!

تركتني ودخلت حجرتها، وصفعت باب الغرفة خلفها.

كنت جائعًا جدًا، فبدأت أجهز لنفسي بعض الطعام، وشغّلت التليفزيون..

ماذا أشاهد؟!!

ماذا تظنون؟!!

بالطبع أغاني الفيديو كليب الحديثة ..

أنا أعبد شاكيرا وإليسا وهيفا ونانسي ونيللي ..

فتحت بريدي الإلكتروني، لأستأنف ما تركت، منتظرًا أن يسخن الخبز، متلهيًّا عن حسناوات الڤيديو كليب ..

كانت الحلقة الثانية من شباب اليومين دول ..

في حوار عن المقاطعة .. يشترك في الحوار هذه المرة (حمادة) و(ميزو) و(شيري) و(بيري) و(شاهندة) .. هم قد اكتفوا بما نالوه في المظاهرة (المدعكة) الخاصة بالفلسطينيين .. وحيث أن الشيخ سيد بيه على كيفهم، والشيخ المفتي أبو فتوى قالا إن المظاهرات حرام، لأنها من التظاهر بمعنى الإيحاء بغير ما فيك، فهو كذب، وما هو حرام فهو حرام وما هو حلال فهو حلال..

فيقررون المقاطعة.. حيث تظن (بيري) أن المقاطعة معناها مقاطعة المنتجات المصرية.. علشان الحكومة تسمعنا.. إلا إن (ميزو) يوضح لها ما خفي عنها.. ويوضح (حمادة) أكثر.. أنهم يجب أن يتعاملوا فقط مع مؤمن وكوك دور وكويك وسمايلز وبلاش بيتزا هت وكنتاكي وماكدونالدز.. والساقع فيروز وشويبس .. إلا أن (شيري) تعترض على موضوع بيتزا هت هذا، لأنها لا تستطيع أن تعيش بدون البيتزا، ولا بيتزا إلا بيتزا هت بالنسبة لها.

التليفزيون سيصور غدًا في الإيه. يو. سي. .. فيجب تحضير لافتات ساخنة لزوم التصوير .. ثم هناك تلك الحفلة لصالح ضحايا الفلسطينيين في (لوس أميجوس) و(مينيمام تشارج) ٩٠ جنيه .. والدخول (كابلز) ..

يعترض (حمادة) على التسعين جنيهًا، فتبخّ (شاهندة) في وجهه .. علشان التبرعات يا أخي .. إنت ما عندكش دم؟!!

أما بخصوص التبرعات، فقد أفتى الشيخ محمد حكاية أن المهم التبرع، وليس المهم ذهاب التبرعات للضحايا، ولا مشكلة في إحضار الغطرة الفلسطيني، فحمدًا لله، (بيري) كانت قد اشترت منهم خمسة من (دهب) العام الماضي..

الآن كل شيء جاهز .. حمدًا لله ..

كان الخبز قد احترق، وكنت قد أحسست بالشبع. أغلقت الكومبيوتر، وذهبت لأنام ..هذا إذا جاءني نوم ..

السعادة ..

يعني إيه كلمة سعادة ..
يعني ناس وأهل ووطن ..
يعني يملا قلوبنا الرضا ..
ونحب المقسوم و القضا ..
ويبقا لك قيمة وثمن ..
إنك تقدر يوم تبتسم ..
وتحس الأمان والدفا ..
والأيام بعضها فيه الصفا ..
والمستقبل قدامك يترسم ..
إن ابنك يكبر قدام عينيك ..
ما يملاش قلبك الخوف ..
ولقمتك على قد جوع الجوف ..
واللي تحبه تلقاه حواليك ..
إنك تنام مطمن ساعة مسا ..
تصبح سعيد بجد ..
تشكي همومك لأي حد ..

لو في يوم زمانك قسا ..
إن الظلم يبعد بعيد ..
لا تحسه ولا يوجعك ..
لا يوم سيرته تؤذي مسمعك ..
والدنيا تبقى جديد في جديد ..
جايز تحس أن السعادة حلم ..
ومستحيل يتحقق هنا ..
لكن عني أنا ..
نفسي أعيش اليوم ..
ويبقى الحلم .. علم ..

في طريقي للمستشفى صباحًا، كانت هناك مظاهرة كبيرة عند الجامعة. آلاف من شباب لم يوجههم أحد.. لم يجبرهم أحد.. يرفعون اللافتات، يرددون الشعارات، يغضبون ويهتفون، تجرح مشاعرهم أحداث جليلة، ولأن حيلتهم قليلة، يستخدمون أصواتهم، تهتز حناجرهم، وتغص حلوقهم بالمرارة.. ما أسهل الغضب.. ما أسهل ما يُغضب، بل ما أكثره ..

كان الطريق متوقفًا تمامًا، وأصبحت كالمحبوس إجباريًا داخل سيارتي. حددت المظاهرة إقامتي، وفرضت عليّ حظر التجوال. هي تعبيرات الحرب كما نعلم، ولكن هل غير الحرب نحيا؟! لقد رضعنا الحرب من ضروع أمهاتنا، وتعلمناها من غربة آبائنا، وأحسسناها كل يوم خطونا على أراضينا.. إنها الحرب إذن .. كلنا تحت الحصار.. كبارًا أو صغار .. إنْ هو إلا منادٍ ينادى .. وكل في دوره يستجيب .. لا يوجد عدو واحد .. أو أحد حبيب.

لم أستطع أن أمنع نفسي من المقارنة بين المظاهرة التي أمامي، وبين مظاهرة (حمادة) و(ميزو) و(شيري).. إن السخرية تطغى على كل شيء، ولولا السخرية ما قامت لنا

قائمة، إن كانت لنا قائمة تقوم. إنها السخرية ما تجعلنا نتحمل آلامنا، ونمتص صدماتنا، ونستأنف العيش والمسير..

الآن بدأت قوات الأمن تشتبك مع المتظاهرين.. والسيناريو المرسوم تضمّن بعض العنف.. مَنْ استطاع يومًا أن يقف في وجه الجماهير.. العنف صار متبادلاً.. أفراد أمن ينهالون على الشباب بالعصي واللكمات.. يشعل بعض المتظاهرين نيرانًا، وينقلونها على أفراد الأمن ..

أمام السفارة الأمريكية في موسكو، تحرّك طابور من المواطنين الروس، يحمل كل منهم جالون زيت ليضعه أمام السفارة، في إشارة إلى أن الهدف من الحرب على العراق هو النفط، ولم يرفع مواطن روسي واحد صوته، معبرًا عن رفضه لنحرب، واختاروا الصمت.. والنفط.. حيث امتلأ الشارع بالآلاف من الجالونات، وكان ذلك تعبيرًا بليغًا عن الرأي ..

أمامي، أجد النار قد اشتعلت في سيارة إسعاف.. ملأني غضب شديد.. لم يكن الغضب على سبب المظاهرة .. بل على المظاهرة نفسها ..

ترى .. لماذا ندمّر أشياءنا .. ولا نقدر على تدمير الآخرين..

لماذا نقدر دومًا على إيذاء أنفسنا أو إصابة أنفسنا بالأذى ..
ولا نستطيع أبدًا إيذاء الآخرين ..

عندما كانت المقاطعة، كسرنا ودمرنا المحلات، ولكننا لم نقاطع! وعندما تظاهرنا، تشاجرنا وحرقنا، وبدا الأمر كأننا شعوب مفطومة على العنف.. يسرى العنف في دمائنا مسرى الدماء ..

انظروا أيها العالم.. إلى هذه الدول المتخلفة !!!

إننا بإبادتها نحميكم من شرورها.. أليس كذلك؟!!

اللهم احمنا من أنفسنا.. أما أعداءنا ..

فأنت كفيل بهم ..

طبعًا..

عدت إلى منزلي، ولم أستطع الذهاب للمستشفى، فوجدت (جميلة) تبكي.. أوّاه يا صغيرتي الحبيبة، كفكفي دموعك، لا تمزقيني.. أنا لا أتحمل ذلك.

سألتها والضيق يملؤني من قمة رأسي إلى أخمص قدمي ..
فأخبرتني إن والد صديقتها (شيماء) قد قرر الهجرة إلى كندا، وأنه سيأخذها معه هناك، لتستكمل دراستها.. هي تخاف ألا تراها ثانيةَ بعد الآن. حاولت أن أهدئ من روعها، بلا فائدة..

حتى جاءت أمي، وحلت الموضوع برمته بصرختين، وتنهيدة، ومصمصة شفاه، ودعاء أن يأخذها الله، حتى تستريح منا ومن همنا ..

ابنها الكبير خائب، ولا يتزوج.. والابن الثاني مستهتر، ولا ينجح في كليته، بل يضيع وقته فيما لا يفيد.. والابنة جالبة للتعاسة، وتفتعل المواقف، التي تجعلها حزينة ونكدية.. والأب عديم المسؤلية، يتركها في كل ذلك، ويجلس هناك – بعيدًا – سعيدًا هانئ البال، بحجة جمع المال ..

وختمت مرثيتها العصماء بدمعتين وتشنيجة..

كنت أفكر الآن.. هل سأستطيع أن أذهب إلى العيادة اليوم أم لا؟!! ولا يجب أن أنسى مكالمة (فيروز)، والذهاب لمدام (ناهد) في المساء..

يا الله.. مازال جدولي مزدحمًا، رغم إلغاء بعض بنوده!!!

ذهبت العيادة ..

تليفون (فيروز) المحمول لا يرد.. كتبت لها رسالتين.. غادرت.. اشتريت في طريقي حقنة المضاد الحيوي لمدام (ناهد)، استقبلتني (منى) مجددًا، مرتدية بيجامة من قطعتين من الستان الوردي الناعم، شعرها مسترسل في عشوائية على

كتفيها، نظارة رقيقة، بلا إطار يميل لون زجاجها للون الوردي على عينيها الخضراوين، في يدها اليسرى قلم، واليمنى كتاب. ما أن رأتني حتى تململت أساريرها، وتورد خديها.. ارتَبَكَتْ قليلاً، وتنحنحت كأنما نسيت أني سأزورهم اليوم.. توقفنا لوهلة، هي لا تعرف كيف تبدأ الكلام، وأنا أتأمل ارتباكها في فضول لذيذ. كالعادة تدخلت (ندى)، العفريتة الصغيرة، التي جاءت لا أعرف من أين؟!

- دكتور .. هلا .. اتفضل .. مرحبا ..

الأم تبدو أفضل حالاً، ولكنها لا زالت كيانًا ضعيفًا، يتغلب عليه المرض. أحضرت (ندى) عصير البرتقال. سقط الكتاب من يد (منى)، وهي تتأملني وأنا أؤدي فقرتي اليوم، فانحنيت والتقطته لها. استرعى انتباهي العنوان.. (مقالات صهيونية حديثة) ..

أعتقد أني أريد التعرف على هذا الكائن المسمى (منى) أكثر وأكثر. التقت عيوننا، فارتبكت وقالت:

- ولاد كلب ..

فأومأت برأسي ولم أنطق. أيقظتني مدام (ناهد)..

- (مني) بتدرس اقتصاد وعلوم سياسية .. ومخها كبير أوي..

قلبت (مني) شفتيها، وكأنها تعترض على أسلوب والدتها في الحديث عنها هكذا. ابتسمت في دفء، وقلت:

- ربنا يخليكو لبعض .. ويحفظها لك من أي شر ..

تحدثنا قليلاً جميعًا، وأوصلتني (مني) للباب لأغادر. استدرت وسألتها..

- صحيح مخك كبير؟!

بدا عليها قليل الغضب، وتمتمت:

- يعني ..

سألتها في صدق:

- و إيه رأيك؟!

ملأت الدهشة وجهها وهي تسأل:

- رأيي بشو؟!

- في اللي بيحصل دلوقت ..

- تقصد العراق؟!

أومأت إيجابًا، فردت:

- هايضربوها ..

اندهشت أنا وقلت:

- اسْمعني ..

- كده ..

- متأكدة؟!

- مَليون بالمِيّة .. بعدين نشوف ..

- ليه أكيد؟!

- بعدين أقولك، هلاّ متأخر.. وما يصير نتكلم وانت ع الباب ..

- بُكرة؟!

ابتسمت:

- كِيف ما تحب ..

- لا إله إلا الله ..

- محمد رسول الله ..

وبدأت تزحف إلى الخلف، وهي تغلق الباب، ولا زالت عيوننا مثبتة على عيون الآخر.

وبعد أن أغلقت الباب، نزلت درجات السلالم قفزًا، وأنا سعيد لأني التقيت وهذه العائلة الجميلة.

***

ماذا لو غرقت التايتانيك اليوم؟!!

سيصدر الرئيس الأمريكي تصريحًا في مؤتمر كبير، تبثه كل القنوات الفضائية على الهواء مباشرة.. سيتهم (بن لادن)، وتنظيم القاعدة بارتكاب هذا الحادث الإرهابي الشنيع ضد السفينة، التي كانت تبحر باتجاه الحرية والديمقراطية..

رئيس الوزراء البريطاني سيخبرنا إن هذا العمل يحمل آثار وبصمات الرئيس العراقي، وأنهم يجب أن يوجهوا ضربة وقائية، لتفادي هذا الاعتداء الصارخ على الحضارة الإنسانية..

بينما سيصرخ رئيس الوزراء الإسرائيلي، منددًا بحركة حماس وسيذكر أنهم قد أعلنوا مسؤليتهم عن الحادث، وسيوجه ضربة للمخيمات، وأماكن اللاجئين، وسيطالب بقمع الانتفاضة، وشنق الفلسطينيين.. واللبنانيين أيضًا!

سيتساءل الكنديون عن التيتانيك، ولن يعرفوها.. وستتهم الهند جارتها باكستان بافتعال الحادث، ويرسلون المزيد من الجنود نحو الحدود ..

عندنا سيقولون .. قد سبق أن حذرناكم أن التيتانيك ستغرق، لكن لم يستمع لنا أحد. وقد قلنا مرارًا أن الإرهاب عالمي، وسيشرب الجميع من كأسه المرة..

ستعقد الأمم المتحده اجتماعًا، ولن تصل لشيء ..

وسينسوا جميعًا أن ثمّة جبل جليدي تسبب في الحادث !!!

***

الوقت متأخر للغاية حتى لعمل جريمة ما !!!

ما بين أطياف هي أقرب للحلم منها للواقع، أرى (فيروز) ترتدي ثوب سباحة أحمر من قطعتين.. أنا أعرف أنها لا تستطيع السباحة جيدًا في عالم الواقع، لكنى أراها الآن — كما لو إن والدتها كانت أصلاً سمكة - تسبح في بحر عالي الموج.. وسط عاصفة عاتية، والابتسامة — كالفجر — لا تفارق ثغرها.. أراها تلوح لي في ثقة وتؤدة .. تخبرني كم هي جميلة.. السباحة ضد التيار.

وهل كنت أفعل غير ذلك طوال حياتي؟!!

لا أحس بنفسي إلا وأنا أخلع ملابسي كلها. ولدهشتي وجدتني أرتدي لباس البحر الأزرق الخاص بي تحت الملابس.. هذا غريب جدًا.. متى تسنى لي الوقت لارتدائه؟!! بل م.......

لحظة واحدة، لأجد البحر يتقاذفني كالريشة في مهب الريح، بمنتهى العنف، بمنتهى العشوائية.. كانت (فيروز) لا تزال تبتسم.. لم تعد ابتساماتها تلك تبعث الطمأنينة.. أنا خائف الآن كالطفل الصغير.. أنقذيني يا (فيروز).. الشاطئ لا زال قريبًا.. هل أتركها وأخرج للأمان، أم أسبح متحديًا العالم، والطبيعة علّي أصل في النهاية إليها، وأشاركها السعادة التي تحس، وأتذوق من اللذة ماتعدني به؟!!

تبدأ السماء حينها تمطر ..

كلا .. ليس المطر ما أرى. إن السماء تمطر نساءً.. أجل هذا ما يحدث. إنهن يتساقطن في البحر حولي من كل حدب وصوب.. لا تلبث كلٌ منهن أن تشدّني إليها قليلاً، فتنجح قليلاً، وتفشل قليلاً.. أنجذب قليلاً، وأغرق قليلاً.. أنقذيني يا(فيروز)..

وإذ أنا على وشك الغرق تمامًا، إذ تظهر (منى) على ظهر قارب.. تخبرني أن الحرب وشيكة، وتلوّح (ندى) من خلفها في طفولية، وقبل أن أقرر أي شيء.. إذ يختفي كل ماحولي، ويصطبغ الماء لونًا أحمر.. كأنه الدم.. بل هو دم.. أظنه كذلك.

يتحول البحر حولي إلى صحراء قاحلة تارة.. وبحر كبير من نفط أسود لزج، يغلي، وتتصاعد منه أبخرة لها رائحة

كالنشادر.. كأنما أجساد بشر تتحلل، لتكون هذا البحر الأسود..

عجيبة هي تلك المفارقة المتعلقة بالنفط ..

لقد مات أناس من ملايين السنين، وحيوانات، وزرع، وسمك، وديناصورات، فتحللت أجسادها، وعلى مر الزمن تحولوا إلى هذا السائل اللزج السخيف.. يبدو أن ثمن استعادته هو أن تضع البديل!.. أجل .. جثث بديلة .. وما عليك سوى انتظار بضع مليون سنة أخرى، وسيصلك حقك كاملاً.

وسط البحر الأسود، تنجم دوامة تجذبني إليها في شدة..

أقاوم .. أقاوم ..

سأقاطع المنتجات الأمريكية والبريطانية ..

لن أكتب أدوية شركاتهم ..

لن أشترى منتجاتهم ..

سأقاطع المنتجات التي تحمل الرقم (٧٢٩) على يسارها ..

سأقاوم .. وأقاوم ..

بل سأحارب ..

أراني أقود طيارة، وأندفع بها، مصطدمًا بأحد برجي مركز التجارة العالمي.. ثم أهوي من حالق..

أري البشر تحتي يقتتلون، ويختصمون، ويموتون ..

وأنا أهوي من حالق ..

إنهم يجوعون، ويمرضون، ويموتون..

وأنا أهوي من حالق ..

يكذبون، ويلعنون، ويموتون..

كلا ..لا أريد أن أسقط وسطهم.. سأكون مثلهم.. سأرتدي ملابسهم، وآكل أكلهم، وأكذب، وأقتل، وأمرض، وألعن، وأسرق، وأذل، وأضعف، وأنتحر مثلهم ..

كلا .. كلا ..

كلا !!!!!!!!! ..

***

(الولايات المتحدة تفشل في الحصول على قرار من الأمم المتحدة بضرب العراق) ..

(العراق يخبئ أسلحة دمار شامل، رغم فشل المفتشين الدوليين في العثور عليها) ..

(صدام ......

لا أعرف ما الذي يحدث حولي .. أعلن الآن فشلي في أن أفهم .. ماذا تريد أمريكا؟! .. لماذا هي واثقة إلى هذا الحد؟!.. لماذا هي مصممة إلى هذا الحد؟! .. ألا يوجد نظام حكم خرب سوى النظام العراقي؟! .. إذا كان الرئيس الأمريكي نفسه قد جاء إلى الحكم نتيجة عيب في النظام؟! إنه لم يحصل على الأغلبية من أصوات الناخبين؛ بل الأغلبية من عدد الولايات المؤيدة، وحتى تلك يقولون أنه قد تم التلاعب فيها..

استيقظت أمي.. جاءت تقبلني قبلة الصباح.. رددت قبلتها بروتينية.. ما ذنبها هي في أي شيء يحدث لي، وللوطن، أو حتى للعالم حولي؟!! ولكني - حقًا - متضايق، وأكثر ما يضايقني .. إنني لا أفهم.

كالعادة لم أفطر، ونزلت على عجل، لأذهب إلى المستشفى.

بدأت هذه الأيام في اتخاذ طريق خلفيّ للذهاب والعودة. أطول قليلاً، لكنه لا يمر على الجامعة، والتجمعات الطلابية.. أنا لا أريد أن أحبس في مظاهرة أخرى.

على باب المستشفي، وجدت طبيبة امتياز شابة تبكي.. توقفت لوهلة أسألها عن سبب بكائها، لم تجبني.. ألححت في السؤال .. لم ترد. تركتها وصعدت. أصبح البكاء الآن لا يثيرني كما كان يفعل في الماضي.. بالأمس كانت أختي تبكي، والآن طبيبة الامتياز تبكي، وأمي تبكي تقريبًا كل يوم.. حتى أنا.. أحسني أحيانًا والرغبة في البكاء تقتلني، ولكنني لا أستطيع.

بدأت المرور على المرضى، بمصاحبة نواب القسم. لا أدري أيضًا لماذا أحس أنهم أقل حرصًا على المرضى عن أيام نيابتي. إنها ليست بالسنوات الطويلة، ولكن يبدو أن التغيير لم يعد يحتاج إلى سنوات طويلة.

اليوم يريد الأمريكان أن يغيروا وطنًا في أيام، بل يدعون إنهم يغيرون المنطقة بأسرها. أأتعجب أنا من تغيير بسيط كهذا؟! أحسست بالذنب قليلاً، لا بد أننا نحن من أهملنا في تعليم الصغار هكذا. لقد حرصنا على تعليمهم كيف يكشفون على المرضى، وأعراض المرض، وطرق علاجه، ولكننا نسينا أن نعلمهم كيف يكونوا أطباء. نسينا أن نعلمهم كيف يكونون بشرًا، يحسون، ويتألمون .. لا بد أننا أيضًا مذنبون.

وأنا في طريقي للمغادرة، كانت هناك مشاجرة بين إحدى العاملات، ومرافقة إحدى المرضى بالعنبر، تتهمها فيها

بالرشوة، وألها لا تفعل أي شيء سوى لنمرضى الذين يدفعون. هممت بالعودة لنتحقق من الأمر، وأنا على يقين إن المرافقة على حق، إلا إن عم (عبد الحكيم) عامل المصعد حثني على الركوب، لأن مريضًا على ترولي ينتظر بالمناظير، وهو قد جاءني خصيصًا لينقلني قبل الذهاب إليه، فركبت..

كنت أحس الآن برغبة عارمة بالتدخين، فتذكرت أني لا أحمل معي أية سجائر. ولما كانت الرغبة مدمرة، سألت عم (عبد الحكيم)، فقدم لي سيجارة، وهو يحس بالفخر والسعادة، لم لا وهو يقدم سيجارته المتواضعة لسعادة الباشا، لم لاوسعادة الباشا تنازل وتكرم وتعطف عليه بمشاركته علبة سجائره الرخيصة؟! لم أفكر في الأمر أكثر من ذلك، سحبت من السيجارة نفسًا عميقًا، ونفثته في عنف مغادرًا المصعد.

اليوم الخميس.. لا عيادة.. وإن سمحت ظروف (فيروز)، سأقابلها. لم أرها منذ وقت طويل.. فكرت أن أشترى لها هدية بسيطة في طريقي للمترل، مجرد شيء أخبرها به إنني حقًا أحبها. أحبها جدًا، ربما أكثر مما أعتقد.

توقفت أمام محل (بونبونة) للهدايا.

هو مكان خاص، أستطيع دومًا أن أجد فيه ما أريد. غالبًا السعر أعلى مما هو متوقع، ولكن حتمًا ستجد ما تريد، وهذا

يريحني أغلب الأحيان، فأنا لست من ذلك النوع الذي يحضر دبدوبًا جديدًا لحبيبته، كلما فكر في إهدائها شيئًا ما!!!

قابلت العجوز المشاغبة (كاتارينا).. نصف مصرية، نصف يونانية، وبالطبع بدينة.. ولكن هذه المرأة لديها ذوق، وأنا أحبها.

لم تبد على ما يرام اليوم.. مسحة من الحزن تغلف وجهها.

ما الذي يحدث للجميع؟.. حتى (كاتارينا) المرحة اللذيذة متجهمة الوجه؟!!

بلا حماس تقريبًا رحبت بي:

- أوه .. دوكتوري .. أهلاً .. أهلاً ..

- خير يا (كاتارينا) .. فيه إيه؟!

لم تجبني – كما جرت العادة أيضًا هذه الأيام، حيث لا يخبرني أيهم أي شيء – فألححت – كما جرت العادة أيضًا، حيث أنجح أحيانًا، وأفشل أخرى – فبكت، فبدأ جسدها الأبيض البدين يرتج، وهي تبدأ في البكاء.. ولما لم يكن هناك غيري بالمحل .. أعطيت نفسي الحق أن أقترب من العجوز، وأضمها إلى صدري.. أربت على ظهرها، وأملس شعرها الخفيف الأبيض. إلا إن (كاتارينا) انخرطت أكثر فأكثر في البكاء، وهو شيء اعتدته أيضًا هذه الأيام من الجميع.

لو إنني جعلت عيادتي — فقط — للبكاء، لتسنى لي أن أربح من ورائها أضعافًا مضاعفة..

أخبرتني إن حفيدتها لابنتها، والتي تعيش مع أمها المصرية، وأبوها اليوناني في أمريكا قد تعرضت للاغتصاب. ليس هذا فحسب، بل إن الفتاة ذات الخمسة عشر عامًا حبلى، وتريد أن تأخذ تصريحًا قانونيًا لعمل عملية إجهاض.

يالها من مأساة.. وياله من عالم موحش..

لم أعرف حقًا ما الذي يمكنني فعله لها.. أطلت احتضانها قليلاً، ولما بدأت أحسها تهدأ، سألتني عما أريد هذه المرة.. وبمنتهى الخفة بدأت تنقلني ما بين ركن وركن، حتى استقر رأينا المشترك على علبة موسيقية صغيرة، لها نقوش خارجية مذهبة وبديعة، وترقص وسطها راقصة بالية في غاية الرقة والرومانسية..

رفضت (كاتارينا) أن تأخذ ثمنًا لعلبة الموسيقى، واحتضنتني ثانية وهي تقول:

- أنا أحبك أوي.. يا دوكتورى (رمزي) ..أنت جميل أوي ..

ثم ضمت إصبعين وقربتهما من شفتيها، قبلتهما، وفردت إصبعيها في الهواء، لتهديني القُبلة. رددت عليها بالمثل، وتركت ثمن علبة الموسيقى بجوار الخزينة، وهي منهمكة في لف الهدية ببراعة، وإضافة زهرة لامعة من الورق المصقول فوقها..

كانت كلماها مؤثرة للغاية..

(أنا باحبك أوى ..يا دكتور (رمزي) .. أنت جميل أوي)

كادت دمعة تفر من عيني أنا..

إنه لأمر عادي للغاية.. أن أبكي!،

***

(القمة العربية ترفض الحرب، وتطالب بعدم مشاركة أي دولة عربية في العمل العسكري ضد العراق)

(العراق يدمر أول دفعة من صواريخ صمود–٢ امتثالاً لأوامر المفتشين الدوليين، وبليكس يقرر تعديل تقريره إلى مجلس الأمن، للإشادة بالإجراء العراقي)

(وزراء الخارجية العرب يشيدون بنتائج القمة العربية)

(بدء العمل العسكري ضد العراق خلال ١٠ أيام)

(القمة الإسلامية تؤكد رفضها المطلق لشن الحرب ضد العراق)

(لا للحرب .. نعم للسلام ..)

(استشهاد ٨ فلسطينيين، وإصابة ٤٠ في خان يونس، ثم استشهاد ١٣ وإصابة ١٤٠ بمخيم جباليا)

(السلطات الباكستانية تنفي المزاعم الأمريكية بوجود اثنين من أبناء زعيم القاعدة أسامة بن لادن على أراضيها)

(الرئيس الأمريكي .. يصدر قرارًا بتجميد أرصدة رئيس زيمبابوي ومسؤولين آخرين) — طبعًا لقرب زيمبابوي من الولايات المتحدة —

(بليكس والبرادعي يقدمان تقريرهما لمجلس الأمن خلال ساعات)

(الفول السوداني لعلاج السل)

(يوميات الأسبوع الأول من مارس ٢٠٠٣)

***

إضاءة خافتة.. موسيقى كلاسيكية هادئة.. زهرة حمراء حقيقية، في مزهرية بيضاء صغيرة.. شموع متراقصة اللهب.. والنيل أمامك. تدغدغ بشرتك نسمة باردة، لشتاء سينقضي، وربيع على الأبواب.. نجلس أنا و(فيروز) متلاصقين متلاحمين، يلتمس كل منا دفئًا من جسد صاحبه، تتشابك أصابعنا حتى لا تكاد تميز يدي من يديها. كلامنا كالهمس، وهمسنا كالملائكة،

والليل بكر.. وللحديث شجون. أوّاه! لكم يفتقد كلاً منا الآخر، حتى لأظن أني أموت، أو أكاد أموت.

لم تتمكن (فيروز) من مواصلة تعليمها الجامعي، لوفاة والديها.. ثلاثة أخوة، هي الكبرى لهم.. أفواه جائعة، ومصاريف تعليم، وأكل، وشرب، وملابس، ومشاكل، ودروس، وخروج، وحياة. الوالد لم يكن وزيرًا، والأم لم تكن السفيرة عزيزة؛ بل كانا مجرد فردين، يتمتعان بصفة المواطنة.. تلك الصفة التي تحملها ضمنيًا، دون أن تتساءل يومًا ما هي حقوقك وواجباتك من أجل استيفاء شروطها.

حين ولجت هذه الدنيا، فوجدت نفسك منتميًا بصورة أو أخرى لهذا الوطن، وهذا البلد، وهذه الأمة، وهذه العائلة، والشارع، والأهل، والأصحاب.. هل فكرت لماذا؟! وما هي حقوقك عليهم، وواجباتك تجاههم؟!

أول مرة رأيت فيها (فيروز) كانت مريضة للغاية.. حين تلاقت أعيننا، جفّ حلقي، وعجز لساني عن الحديث. ارتبكت، وتلعثمت، وأحسست برغبة رهيبة في أن ألقى بنفسي في أحضانها، وأريح رأسي المكدود على صدرها.. ابتسامتها — رغم مرضها آنذاك — كانت خلابة.. فقط خلابة.. ابتسامة تطمئنك، وتخبرك كم أنت عظيم وجميل.. تروي بذرة أمل

داخلك، لم تكن تظن أن توجد.. إشراقتها فجر، ورائحة جسدها كنسمة صباح، وسط بساتين فل وريحان.. جلدها ناعم كبشرة طفل وليد.. شفتيها كالسكر، أو هما أحلى قليلاً.. صوتها كالملائكة، هامس، مرتعد، خائف.. يبحث عن اطمئنان لم تؤمنه لها الأيام. شعرها ناعم أسود، مسترسل على كتفيها، كشلال من ليل أسود حالك، أريد أن أدفن وجهي داخله، فأتنسم عبيرها. خدودها حمراء متوردة، يغريانك بالتذوق.. وهي فوق ذلك كله مفرطة في الحنان. ربما قيامها بدور الأم والأب مع أخوتها هو ما خلق داخلها كل طاقة الحنان تلك، حتى إنني أذوب تمامًا حين تضمني.. أذوب تمامًا وأنتهي.. وتنتهي كل مآسي الدنيا ومشاكلها.. تنتهي كل الحروب والمجاعات والآلام.. يشفى كل المرضى.. ويرزق الله الجائع، ويهدي الحيران.. يسقط المطر على الصحراء الجدباء، وتتفتح زهور البرتقال في الحقول..

يبدأ العالم كله، وينتهي.. عند ضمة (فيروز).

هي الآن تحاول أن تواصل تعليمها في الجامعة المفتوحة.. تعمل في مؤسسة اجتماعية لرعاية الأيتام.. تقرأ الشعر، أو أقرأه أنا لها .. تسمع مثلي الموسيقى، ويتراقص جسدها مع الإيقاع الدفين داخل كلمة، أو لحن. معي، هي تحلق في السماء

السابعة.. أكاد أرى جناحيها ينبتان أعلى ظهرها، قبل أن تبدأ رحلتها في الطيران. تلك السعادة أراها في عينيها، وأدركها من ارتجافة جسدها، وارتعاشة شفتيها. تخبرني إنها لا تحس بكونها أنثى إلا في مرآة عيوني.. لا تدرك كم هو جميل جسدها، إلا عندما أخبرها أنا بذلك ..

أحبك حقًا يا (فيروز) .. حتى وإن بدا ذلك مجنونًا لك، ولكل مَنْ حولك. معك أحس بالاكتمال والراحة.. أحس بالاكتفاء والسعادة.. أحس بالهناء، والرغبة في مواصلة رحلتي مع الحياة، حتى لو كانت قصيرة، أو ربما لأنها — كما اليقين عندي — قصيرة، فلا أريد أن أضيعها في علاقات بيزنطية منطقية باردة.. علاقات تبدأ اليوم، وتنتهي أمس، قبل أن تبدأ. أنا لا أريد امرأة متكلفة متصنعة، تدعي الثقافة وسعة التعليم. أنا لا أريد (رمزي) آخر في حياتي، يكفيني (رمزي) واحد، لحياة واحدة. أنا فقط متعب، وأريد أن أرتاح، أريد تلك اللهفة في عيني (فيروز)، أحب تلك الرغبة، أتوق لتلك اللمسة، وأكاد أنتحر فوق شفتيها. حين تمس أناملي جلدها، أحسها تنتفض.. عيونها تزوغ نظراتها.. وتسقط جفونها صرعى في نصف إغلاقة.. أخبرها في كل لمسة.. أحبك.. تتنهد هي، ويخرج زفيرها حارًا رطبًا، يداعب جانب عنقي، فأحس بدوار يكتنفني.. ترتعش أصابعها في رحلة حج نحو شفاهي.. وإذ ألبي.. إذ ألتهم أناملها في رقة.. كل قبلة يرتج جسدها،

ويرجف رجفة.. قبلة.. رجفة.. حتى لأظن أن زلزالاً يضربها دون سواها.

تنغرز أنامل يدها الأخرى في نسيج ذراعي، فأود لو أن التحامًا حقيقيًا ،كالتوائم السيامية، يتم في هذا الموضع. يتحول العضل في ذراعي إلى غلالة رقيقة هشة من حرير، ويتحول جسدي كله إلى جدول ماء، يجري وينساب في تؤدة نحو الشلال..

كالفراشة تتوق إلى الاحتراق.. أقترب في بطء، لألثم خدها.. تضعف للغاية، وتنهار في محيط من ذراعي..

الآن أحس أني ملك هذه الدنيا، وما عليها..

فمليكتي ها هنا، بين أحضاني..

آسف جدًا .. ولكن بمناسبة القبل، ولمسات الأنامل..

هل يتذكر أحدكم شيئًا كان يدعى..

البوسنة والهرسك؟!!

***

(في سالف العصر والأوان..

قبل خلق العالم وخلق الإنسان..

التقت الفضائل والنقائص فأحسوا بالملل..

اقترحت العبقرية أن يلعبوا لعبة (الاستغماية)، فوافقوا ..

زعق الجنون طالبًا أن يبدأ هو بالعد.. ولأنه لم يوجد أحد يريد إغضابه، وافقوا.. فبدأ الجنون العد.. واحد.. اثنان.. ثلاثة.. جرت الفضائل والنقائص.. كلُ يبحث عن مكان للاختباء.. فاختبأت الرقة خلف القمر.. والخيانة في كومة قاذورات.. وتكوم الحنان على نفسه وسط السحاب. ادعى الكذب الاختباء تحت صخرة، ولكنه اختبأ في قاع بحيرة .. ذهب الشغف لمركز الأرض.. واختبأ الجشع داخل كيس قماش، فتمزق..

واصل الجنون العد.. تسع وسبعون.. ثمانون.. واحد وثمانون.. كل الفضائل والنقائص كانت قد اختارت مكانًا للاختباء..

إلا الحب..

بقي حيرانًا كما هو.. كما نعرفه.. لا يقدر أن يحدد، ولا يستطيع أن يحدد ..

من العسير حقًا أن يختبئ الحب..

وصل الجنون إلى العد مائة، فقفز الحب داخل مجموعة زهور.. واختبأ ..

بسهولة بدأ الجنون في العثور عليهم الواحد تلو الآخر..

حتى إن الكسل قد مدد ساقيه، ولم يكلف نفسه عبء الاختباء..

إلا الحب..

لم يستطع الحسد أن يكظم غيظه، فوشى بمكان اختباء الحب في كومة الزهور..

ولأن الكومة كبيرة.. والحب غير ظاهر من بين الزهور.. أحضر الجنون مذراة خشبية، وبدأ يضرب كومة الزهور، مرة تلو الأخرى.. حتى سمع الجميع صرخة تنخلع لها القلوب.. وإذ ذاك برز الحب من بين كومة الزهور، ويده فوق وجهه، وخيطان رفيعان من دم يسيلان من تحت يديه..

وتبين أن الجنون أثناء بحثه، قد فقأ عيني الحب، وتركه أعمى.

وإذ أحس الجنون بالندم على ما اقترف.. إذ عرض على الحب أي شيء يعوضه به عن عينيه..

مقهورًا.. حزينًا.. مغلوبًا على أمره..

لم يكن أمام الحب سوى طلب أن يكون الجنون دليله..

ومن يومها.. صار الحب أعمى، يقوده مجنون!!)

***

حين مررت بمدام (ناهد)، لأعطيها حقنة اليوم، وهي، بالمناسبة، الأخيرة، أصبت بخيبة أمل على نحو ما..إذ أن (منى) لم تكن بالمترل. وبالطبع أحسست حرجًا بالغًا من السؤال عنها، أو سبب غيابها.. لا حق لي في ذلك البتة. لذا فإن مكوثي لم يطل، وزيارتي تحولت إلى خاطفة، حتى إن (ندى) استنكرت ذهابي بهذه السرعة، وتمسكت مدام (ناهد) ببقائي قليلاً. ولكني أظنهما من الذكاء، بحيث يدركان سبب عدم رغبتي في البقاء أكثر، فتقبلا مني اعتذاري الواهي الضعيف، بوجود ارتباطات هامة لدي.

هائم على وجهي.. لا أعرف ماذا أفعل الآن ..

أتصل بـــ(أمجد).. هو على المقهى مع بعض الأصدقاء.. قررت أن أذهب إليهم، وأجلس معهم قليلاً..

كالعادة، كانت الحوارات تدور على الدوري العام، ومطربات الفيديو كليب، وآخر النكات، والتي بالطبع بدأت تتحور لتشمل المشكلة العراقية ..

هذه هي طريقتنا المثلى في الحل.. أن تتحول مشاكلنا إلى نكات، نضحك منها، ونضحك بها على أنفسنا.. هي الأخرى مجرد حقن مسكنة، نحقن بها أنفسنا، حتى أدمناها.

أحس بتوعك خفيف، فأستأذن بالأنصراف. صوت الكمان، الصادر من مشغل الأقراص المدمجة، لا يفيدني.. أحس برغبة شديدة في القيء.. يختل مقود السيارة في يدي.. يبدأ عرق غزير يغزوني.. أحس حرًا شديدًا.. أخلع چاكتتي.. لماذا تبدو المسافة بعيدة جدًا الآن؟.. أطفئ مشغل الأقراص المدمجة.. أتوقف بالسيارة على كوبري الجامعة.. نسمة هواء لطيفة.. ثنائيات أحبة.. بائع ترمس.. أمعائي تتقلص في شدة، ونبضات قلبي تتسارع، ثم أبدأ بالقيء..

أقيء.. وأقيء.. وأقيء.. حتى ظننت أن أحشائي ستخرج من فمي على شكل حبل طويل. أحسست بعض الراحة في القيء.. أخذت ألهث وألهث.. وطفر الدمع من عيوني.. أين أنت يا (فيروز) الآن.. أنا أموت.. أنا أموت هاهنا بعيدًا عن أحضانك.. عن دفء عيونك.. عن رقة أناملك.. جاءني عسكري.. لا أعرف من أين جاء.. بمنتهى البرودة قال:

– كده ممنوع يا أستاذ ..

بأنفاس متقطعة، وأحشاء تتمزق، وعرق بلل ملابسي، سألته في غيظ وغضب..

– إيه هوّه اللي ممنوع .. العيا؟!

- الركنة دي غلط .. كده ممنوع .. الظابط هييجي يديلك مخالفة .. إتفضل يا أستاذ .. الظابط آخر الكوبرى .. هييجي يزعق ..

كنت قد بدأت أتمالك نفسي.. نظرت حولي، فرأيت أنه لا توجد لافتة تمنع الانتظار .. وأن العديد من السيارات قد توقفت مثلي، ومنهم عائلات جلبوا معهم شايًا وساندويتشات وكراسي بحر .. أو افترشوا حصيرة، وجلسوا أرضًا، يلتمسون مخرجًا من ضيق يلم بهم، أو حر يشملهم، أو يتواصلون ويتحدثون في بعض أمورهم.. أو لا شيء على الإطلاق..

وجدتني أرد عليه في ضيق ..

- امشي ..

- إيه؟!!

- بقولك امشي.. امشي.. أنا تعبان ومش رايق لكلامك الفاضي ده.. روح اتشطر على الأمريكان ولا شارون .. ولا الظابط ولا....

ثم صمتت عندما بدت أمارات الذهول والدهشة على وجه العسكري المسكين، الذي فوجئت به يتركني وينصرف.. قائلاً:

- سلامتك يا أستاذ.. بس ما تطولش ..

لم أملك نفسي من الابتسام.. أحسست أني أفضل قنيلاً، فأحكمت إغلاق السيارة، واقتربت أكثر من النيل العظيم. بديع هو في إغراء.. كل مرة أرى فيها النيل هكذا، أتساءل عن الإحساس الذي ينتاب مَنْ يقفز فيه.. مَنْ يلقي بنفسه بين أحضانه ..

طفلة تبكي، وأمها مطرقة، وأبوها متشاغل عنهما في جريدة.. أخوها يمسك بيده مسمارًا، يعبث به بطلاء سيارة.. فتى شاب يحيط صديقته المحجبة بذراعه، فتنفر منه.. تبعد بجسدها عن أطراف أصابعه، ولكنها لا تبتعد عن محيط حضنه كثيرًا.. مجموعة من الشباب.. اثنان منهم جالسان فوق السور في رعونة ليس لها ما يبررها، يدخنونّ السجائر في شراهة.. يرتدي بعضهم السلاسل والأساور، وجميعهم يشتركون في قصات الشعر الغريبة ما بين إطالته المبالغ فيها، أو حلقه تمامًا حتى فروة الرأس.. لم أرَ أيا منهم يبتسم.. وجوههم تحمل الهم والإحباط.. بدأ التوعك يعاودني ..فغادرت ..

***

إبكائية:

أعطني القدرة حتى أبتسم ..

عندما ينغرس الخنجر في صدر المَرَح ..

ويدب الموت – كالقنفذ – في ظل الجدار ..

حاملًا مبخرة الرعب لأحداق الصغار ..

أعطني القدرة .. حتى لا أموت ..

مُنْهَكٌ قلبي من الطرق على كل البيوت ..

علّني في أعين الموتى أرى ظل ندم ..

فأرى الصمت .. كعصفور صغير ..

ينقر العينين والقلب .. ويعوي ..

في ثنايا كل فم !!!)

(العشاء الأخير)

– أمل دنقل –

***

رن جرس تليفوني المحمول فور دخولي من باب الشقة.. جسدي يصرخ من شدة الألم.. رقم لا أعرفه، ربما مريض يحتاجني.. رددت على التليفون، وأنا اخلع ملابسي، وأدخل الحمام في وقت واحد ..

كانت .. (منى) ..

تسارعت نبضات قلبي.. لا أعرف لماذا؟! ..

طرقت (منى) الحديد وهو ساخن..

- وحشتنا دكتور .. كيف حالك؟! ..

ازدردت ريقي في صعوبة.. في صوتها غنج لا أقدر عليه.. حاولت أن أتماسك ككل الرجال، الذين حاولوا قبلي وفشلوا .. حاولت أن أبدو محترفًا، أو لكأن أمر اتصالها لا يعنيني ..

- ماما أخبارها إيه؟! و(هدى)؟!

في خبث صححت ارتباكي:

- (ندى) ..

افتعلت ضحكة مقتضبة، وأمّنت على كلامها. في بطء، ضاغطة على حروف كلماتها، قالت:

- الحمد لله .. وإنت؟! كيفك إنت؟!!

منذ قليل كنت أنازع .. وأمعائي لا زالت تصطرع وتتقلص .. إحساس الموت القريب لا زال يتملكني، وروائح (فيروز) التي كانت تملؤني يبدو أنها تحتاج لإعادة التعبئة.. أي مصادفة تلك التي تجعلها تكلمني، وأنا على حالتي تلك، حيث يشملني قرف شديد من الدنيا والناس.. الناس الصامتين.. الكادحين بلا سبب.. والضعاف بلا حول أو قوة.. السائرين في سكون مقيت.. والمتناحرين على أتفه الأشياء وأسخفها.. هؤلاء الناس الحمقى، الذين يحيطون بك من كل جانب، كالهواء والجراثيم ..

أخبرتها أني بخير .. إلا إنها أصرت ..

- لا بجد .. مالك؟! صوتك بيه شيّ ..

شيطانة (مني) تلك.. هل عرفتني بما يكفي لتدرك ذلك، أم هي مجرد قوة ملاحظة وفطنة منها؟ لم أغضب، و لم أستدرج لفخ الجلوس على كرسي الاعتراف سريعًا هكذا..

- كِيف ما تريد .. أنا عارفة إنك مو مظبّط .. بس هاسيبك كيف ما تحب.. نمرتِي ويّاك.. فينك تكلمني أيّ وقتْ.. أنا ما بنام.. سهّرني وياك إذا حبيت.. بس إنت مو كويّس ..

شكرتها في صدق، وسألتها ..

- مش هاتقوليلي ليه العراق هاتتضرب؟! ليه أكيد هاتتضرب؟!

ضحكت ضحكة رنانة ..

- إيش بيك.. مخك دا شغال ٢٤ ساعة.. ما فينك تريح أبدًا..

ضحكت مبادلاً إياها الضحك..

- نفسي أفهم.. (ثم تنهدت تنهيدة طويلة)

- نفسك تفهم.. أنا إللي نفسي أفهم أي حاجة.. وكل حاجة.. ليش إحنا.. ليش إحنا وبس اللي يسووا ويانا كدا.. ليش الظلم كفة واحدة.. ليش قوة النظر ناحية واحدة.. ليش كل شيّ حق ومستحق.. وإحنا لأ..

صوتها الضاحك المملوء بالغنج أصبح هتافًا الآن، هو أقرب للبكاء.. أدركت أنها أيضًا متعبة، ولست وحدي. عرفت أنها كانت تريد أن تتحدث، وتخرج ما بداخلها.. كانت تظنني ذلك الشخص المثقف، اللطيف، الظريف المبتسم، المخفف للآلام، والمحارب الدائم للأمراض والعلل.. كما لو إني لا يتملكني الهم، ولا تنتابني الوساوس والكوابيس ..

..

عفوًا أيتها العزيزة (مني) ..

أحيانًا أكون لطيفًا حقًا، كما كنت تأملين.. وأحيانًا أستمع للآخرين.. وربما سأكلمك غدًا، وتصديني أنت..

انتهت المكالمة.. أحسست بعض الندم، وهداني تفكيري أن أكتب رسالة على المحمول، أعتذر بها..

كانت فكرة جيدة للغاية.. إذ جاءني ردها مطمئنًا..

(بكره أقولك.. ليش يضربوها.. تصبح على خير.)

وإذ أنا أهم بالنوم فعلاً، إذ يفتح باب الشقة..

أدرك أنه لا أحد مستيقظ الآن..

إنه (مجد).. أخي ..

(مجد).. وليس (أمجد) ..

لم يبدُ عليه أنه بخير..

وجهه شاحب للغاية.. يترنح.. ورائحة سخيفة تفوح منه.. أعتقد أنها خمر.. عيونه زائغة للغاية، ومزاجه حاد.

- (مجد) .. إيه ده؟! أنت سكران؟! ..

- هوووووووس س س سس س س س ..

قمت مسرعًا.. تلقفته بين ذراعي، كيلا يصطدم بشيء أو يحطم شيئًا .. لو استيقظت أمي، ورأته على حالته تلك لأنتحرت الآن. مسكينة أنت يا أماه، لتتحملينا، وتتحملي بلاوينا .. نحن عبء ثقيل حقًا.

- إهدا يا (مجد) .. إهدا .. ماما ها تصحى ..

- إهدا انت يا خويا (وبدأ يزعق .. ويضحك) ..

انقضضت عليه في عنف.. جررته جرًا إلى الحمام المجاور .. فتحت مياه الدش الباردة على آخرها ووضعته تحتها .. ارتجف تحت يدي، وبدأ يرتعد .. قاومني قليلاً، ولكنه كان أضعف من أن يستمر في المقاومة.. تدريجيًا بدأ يهدأ.. وفي هدوء أيضًا بدأ يبكي. ضممته إلى صدري، وابتللت معه، فبدأ يبكي أكثر وأكثر.. من وسط بكائه هتف..

- أنا زفت.. أنا زبالة.. يا رب أموت.. يا رب أموت.. سيبني يا (رمزي).. سيبني..

ضممته في قوة، وبدأت أملس على شعره المبلول ..

- بس يا حبيبي .. بس يا (مجد) .. نام دلوقت، وبعدين نتكلم.. نام دلوقت..

بدأت أساعده على تبديل ملابسه، وهو على حالته المزرية تلك.. يبكي وينشج ويترنح.. وأخيرًا..

أخيرًا جدًا..

استطعت وضعه في سريره لينام..

نام هو..

وتركني نهشًا لألف سؤال وسؤال..

تبحث عن أجوبة !!!

***

أعرف أن العالم في قلبي ..
مات ..
لكن حين يكف المذياع ..
وتنغلق الحجرات ..
أنبش قلبي .. أخرج هذا الجسد الشمعي ..
وأسجيه فوق سرير الآلام ..
أفتح فمه .. أسقيه نبيذ الرغبة ..
فلعل شعاعًا ينبض ..
في الأطراف الصلبة ..
لكن .. تتفتت بشرته في كفي ..
لا يتبقى منه .. سوى ..
جمجمة .. وعظام ..

(يوميات كهل صغير السن)

– أمل دنقل –

***

(البيت الأبيض يبدأ العد التنازلي لشن الحرب ضد العراق .. واشنطن تحشد ٣٢٠ ألفًا، وتعلن بدء عمليات القوات الخاصة ضد بغداد)

(القمة الإسلامية بالدوحة تؤكد رفضها المطلق للحرب ضد العراق)

(فرنسا وروسيا وألمانيا تتعهد بمنع إصدار قرار جديد يجيز استخدام القوة)

(مصر قالت لا للحرب .. نعم للسلام .. في مسيرة المليون التي نظمها الحزب الوطني)

(إنذار أخير للعراق لأيام محدودة في مشروع قرار الحرب أمام مجلس الأمن)

(بوش يؤكد أن الولايات المتحدة لا تحتاج إلى موافقة الآخرين لكي تحمي شعبها)

(تحت ضغط المعارضة القوية في مجلس الأمن .. واشنطن ولندن تؤجلان طرح مشروع القرار حول العراق للتصويت)

(٦ شروط أمام العراق لتجنب الحرب)

(حذر ألكسندر فيرشباو — السفير الأميركي في موسكو — روسيا من التعرض لعواقب اقتصادية وسياسية وخيمة إذا استخدمت الفيتو ضد مشروع القرار الجديد بمجلس الأمن)

(فشل أمريكي — بريطاني في توفير الأصوات لتمرير قرار الحرب بمجلس الأمن .. وبغداد ترفض شروط لندن، وتعتبرها خطة عدوانية للحرب)

(يوميات الأسبوع الثاني — مارس ٢٠٠٣)

***

تعمدت أن أتأخر في النزول اليوم التالي ..

فعليًا أنا لم أنم ..

هل لو كنتم مكاني .. لنمتم؟!!

قلبي يحترق على أخي.. عقلي يستعصي عليه فهم ما يحدث حولي.. جسدي مُنْهَك مُسْتَنْزَف.. وروحي مريضة لا علاج لها سوى الراحة الأبدية ..

كلا.. لم تعد تجدي معي نغمات الكمان، ولمسات (فيروز) وأدعية المرضى، وضحكات وابتسامات المخالطين لي في أوجه الحياة المختلفة ..

لم يعد يجدي معي الترفع، والتنزه، والتعالي..

كل الأبراج العاجية، التي حاولت أن أسكنها تهاوت..

لم أدرِ بنفسي إلا وتنحدر دمعتين ساخنتين على خدي..

نظرت لأخي (مجد)، الذي لا زال نائمًا أمامي.. لا زلت مصدومًا، مشدوهًا، مذهولاً،محروقًا، حزينًا، غاضبًا، مشلولاً ..

ذلك الجسد المترنح، الذي لطالما تلقفته بين ذراعي..

تلك العيون المحطمة المكسورة المطفئة التي لطالما أحسست بالغيرة لجمالها ..

خطأ من هذا؟!.. خطأ من؟!!

والد مجاهد في بلاد غريبة.. ندعوها شقيقة..

أُمٌ مثخنة بالجراح، هي تعمل، وتربي، وتذاكر، وتحلم بزواج الأولاد، وأولاد الأولاد، وتصير أمًا وأبًا، وعائلة كاملة كل يوم وكل ليلة ..

أم هو خطئي أنا..

الأخ الأكبر..

أتراني انغمست أكثر مما يجب في ذاتي؟..

أيعقل أن أكون متفوقًا هكذا في دراستي، ودرجاتي، وأترك أخي هكذا نهشًا للرسوب، والفشل، والنجاح المحدود.

أفشلت أن أقدم له القدوة، التي يريد الاحتذاء بها؟.. تُرى..

هل يكرهني؟!! هل يكرهني أخي؟!!

لن يكون هذا بغريب عنا، وعن بلادنا. فالأخوة عن إخوهم لاهون.. لا يهتمون.. يكرهون، ويحسدون، ويحقدون.

أيكون سرطان أوطاننا قد شمل عائلتي أيضًا؟!!

أيكرهنا (مجد)؟!!

أول مرة أفكر في أسمائنا ..

(رمزي).. (مجد).. (جميلة)..

ووالدنا.. (الأمير علي)، وليس (أمير علي) ..

إمعانًا في التعبير عن أحوالنا وما صرناه..

لاحظت أن بكائي صار نشيجًا بصوت عال..

إن الضربة لقاصمة فعلاً ..

كنت دومًا أظن أن الخراب والمرض والفساد بعيد عني وعن عائلتي.. إلا إنني كنت مخطئًا..

أمي و(جميلة) ليستا بالمترل ..

(مجد) استيقظ على صوت بكائي ..

اعتدل جالسًا في سريره، ونظرات الدهشة على وجهه.. سألني في لا مبالاة ..

- (رمزي)؟!.. إنت بتعيط؟!.. هي الساعة كام؟!

بدأت أمسح دموعي، وأنا لا أعرف ما هي جملتي التالية.. من الواضح أنه لا يذكر شيئًا عن الليلة الماضية ..

أمسك برأسه يعصرها متشكيًا من الصداع ..

وجدتني أسأله في بلاهة ..

- أخبار الكلية إيه؟!

نظر لي (مجد) كأنني مجنون، وهو لا يعرف أنني على شفا الجنون فعلاً ..

- كلية؟!! كلية إيه يا راجل .. كبّر .. فُكّك من الحوارات دي .. وهوّه إنت من إمتى بتسأل؟!!

أجل.. لُمني يا أخي.. هيا إلقِ بكل مشاكلك عليّ.. نحن بارعون في ذلك جدًا.. إلقاء اللوم، والتهرب من المواجهات الحقيقية الساخنة.. وكان هذا ما أنتظره تمامًا ..

- إنت عارف إنك كنت راجع سكران إمبارح؟!

توقف (مجد) لوهلة، وهو في طريقه إلى الحمام .. بدا عليه الغضب المصطنع، وارتفعت نبره صوته، وبدأ يهدر كأنني أتهمه بالخيانة العظمى ..

- سكران؟!.. سكران إيه؟!.. إنت باين الطب والناس والعيانين لحسوا دماغك.. إنت بتخرف..

كان قاسيًا للغاية.. ولكني لن ألين. زعقت فيه بدوري..

- إنت بتستهبل يا واد.. هوه أنا مش هاعرف إنت سكران ولا لأ .. ماشي بتتطوح.. ومش شايف قدامك.. حتى هدومك ما كنتش عارف تغيرها بنفسك.. وصاحي من النوم الصداع هايفرتك دماغك، وتقوللي إنك ما كنتش سكران؟!!

نظر مطرقًا للأرض.. وجاءني صوته وهو يبتعد ..

- وإنت مالك؟!.. هو إنت ولي أمري؟!!

قفزت من كرسيي، وأمسكت بذراعه. في عنف هتفت..

- مالي ونص.. مش أخويا.. ممكن تفهمني إنت بتعمل كده ليه؟! إيه الفايدة ..

وقف ونظر لي متحديًا..

- الفايدة إني ما حسّش بأي حاجة ..

كان صادقًا معي لحد أذهلني.. هو غير قادر على التعامل مع ما يحس به، فيلجأ للهروب.. إلا أنني وجدت في تفكيري هذا موافقة ضمنية على ما يفعل.. حل المشاكل — إن وجدت — مواجهتها، وليس الهروب منها ..

– إنت بتخرف .. ما تحسّش بإيه يا عيّل إنت؟! هوه إنت لسه بقيت حاجة علشان تقول أحس ولا محسّش؟!

– هوه الإحساس ليه سِن؟!!

– آ .. آ ...   (لوهلة لم أرد) ..

بعد وهلة قلت:

– (مجد) .. أنا ما بقولش ما تحسّش.. بس يعني.. مش هي دي الطريقة.. اللي بتعمله ده غلط.. عمرك ما هاتقدر تعمل حاجة وإنت كده.. عمرك ما تقدر تعمل حاجة وإنت سكران مسطول.

– إنت سكران؟!

– لأ ..

– مسطول؟!! (وأكمل دون سماع ردي)

– بتقدر تعمل حاجة؟!!!

هذا الملعون ليس غبيًا كما كنت أظن.. هو فقط أحمق، ويلقى بنفسه إلى التهلكة ..

استأنفت دفاعي..

- أيوه باقدر.. أو على الأقل بأحاول.. بأحاول أكون أحسن.. بأحاول أساعد غيري.. بأحاول أعمل خير.. بأدور على الحق.. عايز أفهم أكتر علشان أكون أفيَد.. أنا اللي ف إيدي نفسي.. وهوه ده المهم ..

التقطت نفسي وأردفت:

- زي ما بأقول .. إللي بتعمله ده مش حل .. إللي زيك قلّتهم أحسن..

واجهني متحديًا.. أمسك بمقص كان على المكتب، وسدده في وجهي..

- طب خد.. خلّص عليا.. مش قلّتي أحسن.. خد موّتني يالا علشان نبقى أحسن والدنيا أجمل والمشاكل كلها تتحل ..

أمسكت المقص من يده، ووضعته على المكتب ثانية. سألته، والشرر يتطاير من عينيه، وأنفاسه تتلاحق..

- إنت بتكرهني يا (مجد)؟!

- بأكره الدنيا كلها.. خلاص استريحت .. ممكن تسيبني بقى.. صدعتني أكتر مما كنت مصدّع ..

تركني وانصرف.. وقد عاودتني الرغبة في القيء والبكاء.. لا زالت كلماته ترن في أذني .. يبدو أن عدم الفهم يزداد أكثر

وأكثر.. لن تكون مشكلتي فقط في تفسير التصرفات الأمريكية، والقمع الإسرائيلي، وحكوماتنا وقراراتها.. لن تكون مأساتي فقط الصراعات من حولنا، ومصير العراق، والإرهاب العالمي، وأسلحة الدمار الشامل، التي لا أعرف مَنْ خبّأها.. بل إن المشكلة أكثر من ذلك جدًا.. أكبر جدًا ..

مشكلتي مع الإنسان حولي.. هؤلاء البشر، الفاسدون،

الخانقون..

المختنقون ..

اللاهون العابثون ..

كيف حدث هذا ..

ولماذا؟!

بل ماذا نحن فاعلون؟!!

- ٣ -

طبعًا لم أذهب لأي مكان اليوم سوى العيادة. ما ذنب المرضى في أخ فاسد مستهتر.

لكن.. لو أني لم أستطع أن أعالج أخي الأصغر، هذا الذي ربيته، أو على الأقل ساهمت في تربيته، هل سيكون بإمكاني إذًا أن أعالج المرضى؟.. أن اخفف آلامهم؟!!

ماذا عن ألمي أنا؟.. وقلبي المريض أنا؟..

بالطبع كنت سخيفًا باردًا.. لم أرد على رنة (فيروز)، أو مكالمة (منى).. أظن أنني كنت سمجًا اليوم.

لم أستطع أن أكون غير ذلك..

لم أتمكن من إلقاء النكات مع المرضى.. أو السخرية عنهم.. لم أسألهم عن أحوالهم كما اعتدت.. وحمدت الله على قلتهم اليوم..

هل تلومونني؟!!

هل أجد فيكم مَنْ يعارض؟!

من يخبرني محاضرة عن عدم تأثير حيواتنا الشخصية على أعمالنا.. أنه لا يجب الخلط بين ما يحدث لنا، وما نفعله للآخرين.. هل يتفضل هؤلاء أن يخبروني من نحن؟!!

ما نحن سوى الآخرين للآخرين.. كما هم بالنسبة لنا آخرون.

عندما ركنت سيارتي - وفي طريقي لعمارتنا -كانت مجموعة من الشباب يجلسون على السيارات حولي.. سألني أحدهم في صوت مهزوز ..

- يا أستاذ .. النهاردة كام ..

أحسست بالوجل لوهلة.. هؤلاء مجموعة من المدمنين.. أجد سجائر البانجو في أيديهم.. الأدخنة الزرقاء تتصاعد ..

- ١٥ في الشهر ..

عاود سؤالي:

- يعني يوم جمعة؟!

توقفت.. ياله من سؤال.. ما العلاقة بين هذا وذاك.. أجبته أن لا.. استمر نفس الشاب يسألني، محاطًا بنظرات أصدقائه..

- بُكره الجُمعة ..

وجدت أن الحوار هكذا من الممكن أن يستمر إلى ما لا نهاية، فأخبرته ببساطة أن اليوم هو الاثنين وغدًا الثلاثاء، ولا علاقة للجمعة بشيء.. وإذ أهم بعبور الشارع الفاصل بيني

وبين العمارة، إذ تقدم مني رجل في منتصف العمر، يرتدي بذلة أظنها غالية.. سألني بمنتهى الهدوء والرزانة..

- هما كانوا عايزين منك إيه؟!

سؤال غريب، وموقف أغرب.. لا بد أنني أحلم.. إلا أن الرجل استمر في إذهالي..

- ممكن عشرة جنيه سلف.. لو سمحت.. ممكن تديني نمرة تليفونك وعنوانك ومكان شغلك وأنا أجيب لك العشرة جنيه.. ولا أقولك .. ممكن تديني عشرين ..

رغبتي في القيء تتزايد ..

هذا كابوس.. لا بد أن هذا كابوس.. لا بد أن هذا كابوس.. كابوس سخيف.. أخي ليس سكرانًا.. والشباب غير مدمنين.. والشعب لا يتسول.. والمجانين لا يمشون في الشوارع..

هذا وهم.. سأفيق منه الآن.. هذا كله غير حقيقي..

ما كل هذا الذي يحدث؟..

ما كل هذا الجنون.. ما كل هذا السخف؟!

وأنا ها هنا أتساءل لماذا ستضرب أمريكا العراق؟!!

لماذا تفعل إسرائيل بنا ما تفعل؟!

والله لو تُركنا وحدنا لهلكنا دون أمريكا، ودون إسرائيل..

لن يحتاج الأمر لأسلحة دمار شامل مخبأة، أو إيواء أفراد إرهابيين من تنظيم القاعدة، أو عدم تنفيذنا للديمقراطية كما يراها لنا الآخرون.. لن يحتاج الأمر لمجهود من أحد.. فقط اتركونا.. اتركونا وحدنا مع أنفسنا.. وسنعدكم أننا سننقرض.. وحدنا سننقرض.

***

وأخيرًا عدت ..

أحمل في صدري صمت الطاعة ..

وبلا .. ساعة ..

ما جدوى الساعة في قوم قد فقدوا الوقت؟!

ورجعت بدون كتاب .. غير كتاب الموت ..

وضجيج الناس ..

أغنية .. كغطيط نعاس ..

" لم تولد لتهز الدنيا "

" لم تخلق لتخوض معارك !! "

" نحن ولدنا ..

للإلهام ..

للأحلام ..

للصلوات .... " .

– (العراف الأعمى)

– أمل دنقل

***

فتحت بريدي الإلكتروني ..

أخبرتني صديقتي الأمريكية أن أقارب لها قد تم استدعاؤهم للحرب ضد العراق.. هي لا تعرف ما سر هذا الجنون، ولماذا لا يسلّم صدام أسلحة الدمار الشامل التي لديه ليريح ويستريح.. هي خائفة من الحرب، لأن الدنيا أصبحت كالقنبلة الموقوتة .. هي لا تريد أن يشتعل الفتيل في مكان، لتنفجر القنبلة في مكان آخر.. هي لا تريد أن تفقد أحدًا عزيزًا آخر لديها.. يكفيها أن فقدت إحدى صديقاتها العزيزات، في إنفجارات مركز التجارة العالمي.. هي لا تريد للإرهاب أن يتصاعد، وللعنف أن يسود.. تتمنى أن تصير الدنيا أهدأ حالاً، وأكثر سماحة وسلامًا..

ومن سمعك يا أختاه .. المهم أن تسمع حكومتك ذلك وتصدقه ..

يقولون إن الحرب على العراق هي الحرب الأولى التي يرفضها الشعب الأمريكي قبل أن تبدأ. حتى حرب ڤـــايتنام، أسود نقطة في التاريخ الأمريكي الحديث - بعد التطهير العرقي للهنود الحمر - قد تم رفضها بعد بدء الحرب بفترة، وبناء على التقارير المتضمنة لعدد القتلى والجرحى من الجنود الأمريكان.

صديقتي الكندية أرسلت لي صورة كاريكاتورية لذيذة، مستلهمة من غلاف فيلم حرب النجوم، عن الحرب على

العراق ممثلاً صدام، وبوش، وبلير، وكولين باول، وكل الأبطال العالميين للأحداث الحالية..

قابلت (لبنى) على الإنترنت.. وبدأنا الدردشة..

هي أيضًا تحس بالإحباط الشديد، ويتوالد داخلها إحساس متعاظم أن الضربة الأمريكية آتية لا محالة..

سخرت من زملائها، الذين طالما رغبوا في السفر لأمريكا لاستكمال دراستهم.. لماذا السفر لأمريكا، إذا كانت أمريكا قادمة بنفسها؟!

لطيفة (لبنى) تلك، وتتمتع بروح الدعابة.. أهلها ناس طيبون أحسنوا تربيتها، في زمن صعبت فيه التربية، وسهل فيه الانحراف. هي طبيبة أسنان متوسطة الحال، ما زالت تقضي فترة امتيازها، وتبحث عن المستقبل. جسمها رياضي ممشوق، وبشرتها بيضاء محمرة، ولكنها لا تفكر حاليًا في الأشياء التي تفكرون فيها، وتفكر فيها أمي، ويفكر فيها الجميع.. حتى لأظن أننا نولد من أجل البحث عن أزواج وزوجات.. ولا نلبث نتزوج، حتى نبحث عن أفضل الطرق للوفاة، وحسن الخواتيم.. هي تفكر أن وراء خلقها حكمة ما وهدفًا، وهي تبحث عن هذه الحكمة، وتجتهد لهذا الهدف.

لذا فقد كانت صداقتنا سهلة سلسة، لا تعقيد فيها، لا رغبات مكتومة، ولا إيحاءات غير مطلوبة.. لا هي تتدلل من أجل أن تبدو في ثوب الفتاة زهرية اللون، الرقيقة الجميلة اللطيفة الظريفة المؤدبة المستحية، ولا أنا أتذاكى من أجل أن أبدو شابًا ذكيًا فطنًا سريع البديهة، رجلا يعتمد عليه، مهذب جنتلمان .. من أجل هذا كله، أخبرتها بما حدث مع (مجد)، وأيدتني في اتخاذ أسلوب المواجهه الشخصية. حاولت طمأنتي أن كثيرًا من الشباب يفعلون ذلك فترة شبابهم، ويقلعون بعد ذلك.. أن الأمر ليس خطيرًا كما أظن، وهو بالطبع ليس نهاية العالم. هم يرون قدوتهم من النجوم، والمطربين، ولاعبي كرة القدم يفعلون ذلك أيضًا.. أمنّت على كلامها، غير مقتنع تمامًا بالطبع ..

تأخر الوقت بنا .. ولم ندرك .. فافترقنا على وعد باللقاء القريب والمتابعة.

حسنًا أيتها العزيزة .. سأتركك في رعاية الله .. ولتحاوطك الملائكة من كل جانب ..

ماذا تظنون فعلت الآن ..

لقد طرقت الحديد وهو ساخن ..

دخلت على (مجد)، فوجدته لازال مستلقيًا في سريره، مستيقظًا، يتأمل اللاشيء المثير في سقف الغرفة. في حزم قلت:

- (مجد) .. أنا عايز أتكلم معاك شوية ..

بمنتهى الضعف والاستكانة أجابني.. نبرة صوته كمن على وشك البكاء..

- (رمزي).. أرجوك سيبني دلوقت.. أنا مش طايق نفسي..أنا نفسي أموت.. والنبي سيبني.. وسامحني على الطريقة اللي كلمتك بيها الصبح.

جاورته على السرير.. يا إلهي! نحن لم نفعل ذلك منذ فترة طويلة.. أعتقد أن الحياة ألهتني فعلاً.. في حميمية قلت:

- ممكن أفهم الفاشل الصغير بتاعنا ماله؟!

ضحك ضحكة مقتضبة، عرفت بعدها أنني أخطأت التعبير.. ربما أصبحت فظًا قليلاً هذه الأيام.. ولكن كيف لي أن أنسى منظره بالأمس وهذا الصباح؟!

- شفت.. أديك قلتها.. فاشل.. أنا فعلاً فاشل.. أنا مش دكتور عظيم زي أخويا الكبير.. ولا متفوق في المدرسة زي أختي الصغيرة.. أنا رلاحاجه.. أنا مجرد حاجة وسطانية كده مالهاش لا طعم ولا لون ولا ريحة ..

- بس بس بس.. وقف هنا.. أنا أسف يا (مجد) ما كانش قصدي.. أنا كنت بأهزّر معاك.. وفعلاً عايز أفهم مالك.. إيه

إللي بيجرالك.. إنت طول عمرك كنت مثال المرح والاستمتاع والسعادة وخفة الدم.. إيه اللي حصل؟

– إيه اللي حصل؟!! اللي حصل هوّه اللي حصل لكل الناس.. اللي حصل للبلد.. اللي حصل للعالم..

ثم أردف:

– ممكن تقول لي هي فين السعادة؟!! هوّه فين المرح؟!! إيه اللي ممكن تستمتع بيه؟! وإيه فايدة خفة الدم؟!!!

– إهدا بس يا (مجد).. إهدا يا حبيبي وفهمني إيه اللي مخليك تقول كده؟!

أشاح بوجهه بعيدًا عني، وغمغم ..

– ولا حاجة.. أنا كده لوحدي.. مخنوق.. مخنوق يا (رمزي).. إنت عمرك مابتتخنق؟!

– كل يوم وحياتك.. وكل ساعه.. وكل لحظه أنا عايش فيها باتخنق.. بس عمرى ماشربت و ..

– إنت أحسن مني.. إنت دكتووور ..

في صرامة هتفت:

– ((مجدي)) !؟! أنا مش أحسن منك ولا حاجة ... وبطل حكاية دكتور دي اللي على لسانك على طول.. إيه.. في إيه؟!! إنت بتكره إن أنا دكتور؟!! فاكر إن أنا كده أحسن منك؟!!.. ده إنت تبقى غبي قوي صحيح...

أردفت:

– كل واحد يا ((مجدي)) له دور في الدنيا دي.. المهم اللي يعمله كويس.. دكتور، مهندس، خدام، ميكانيكي.. المهم نشتغل.. مش نقعد نبص لبعض ونحسد بعض ونحقد على بعض، ونندم على إننا مش زي التانيين...

– بس أنا أحرتي إيه يعني.. محاسب؟!!!

هتفت:

– ومالُه محاسب؟!! بكرة تشتغل في بنك ولا حاجة وتجيب فلوس قد كده وتبقى مليونير.. وحوافز وبدلات.. وممكن تكبر وتبقى حرامي قد الدنيا.. ((انقلبت جديتي سخرية))

ضحك في عصبية، وضحكت معه، مستشعرًا مدى التوتر اللذي يعانيه، ولا أدري له سببًا...

– بس ما حدش بيحبني يا ((رمزي)).. كل الناس بتكرهني.

صعقتني جملته، التي جاءت كالملح على الجرح المفتوح..

- مين اللي قال كده.. ده إنت بالذات كل الناس بتحبك.. علشان ظريف ووسيم ودمك خفيف وكل الحاجات دي ..

أطرق في الأرض وقال:

- باقول لك ما حدش بيحبني .. صدقني ..

انتظرت لحظة أن يستأنف.. أن يخبرني ما الذي يقصده من جملته تلك.. ولكنه لم ينطق فسألته:

- أنا مش فاهم.. قصدك إيه ما حدش بيحبنى.. إيه اللي حصل بالضبط؟!

- ولا حاجة.. مش مهم..

- ماما؟! بابا؟! جميلة؟! أنا؟! حد من أصحابك؟! حد من صاحباتك؟!!

- ما فيش..

- إنت بتستهبل يا (مجد).. فهّمني إيه الموضوع !!!

- ما فيش.. ما فيش.. ما فيش..

وأردف:

- أرجوك يا(رمزي).. أبوس إيدك.. أبوس رجلك .. لو بتحبني زي ما بتقول سيبني دلوقت .. خلاص يا (رمزي)

أوعدك مش هأسكر تاني .. أوعدك مش هأشرب تاني .. بس سيبني دلوقت .. أرجوك .. أرجوك .. أرجوك سيبني..

أدركت أني لن أستفيد منه بأكثر من ذلك..أنه لن يتحدث أكثر من ذلك.. فتركته.. على الأقل لقد بدأت إعادة بناء الجسر بيني وبينه.. وأنا لن أتركه حتى أفهم ما يدور..

أخبرتكم أني أريد أن أفهم، وسأحاول دومًا أن أفهم.. حتى أخي!

***

(بيان مهم للرئيس الأمريكي يعلن فيه التزامه الشخصي بتنفيذ خطة الطريق للسلام ولقيام الدولة الفلسطينية)

(قمة أمريكية — بريطانية — أسبانية غدًا)

(١٥ مارس ٢٠٠٣)

***

اليوم بالمستشفى .. اكتشفت أن عم (حنفي) مات ..

أنتم بالطبع لا تعرفون عم (حنفي) .. بالرغم من إقامته بالمستشفى طيلة ست وعشرين عامًا ..

أجل.. ست وعشرون سنة كاملة..

لا أحد يعرف كيف بدأت القصة بالضبط.. ولكننا جئنا فوجدناه موجودًا، ملازمًا لفراشه، يتحدث قليلاً، ويتحرك بصعوبة نتيجة إصاباته المتكررة بجلطات في المخ..

لم نكن نعرف له أهل، فقد كان كل مَنْ في المستشفى أهله، ربما ماتوا، أو نسوه، أو تناسوه على مر السنين.. ولكنه بفعل الزمن صار أبًا، وجدًا لكل ممرضة وطبيب بالمستشفى ..

أول مرة رأيته كان على كرسي معدني مهترئ متهالك قديم.. ومع الوقت أصبحت أراه على كرسي حديث بعجل مطاطي وفرامل يد وموتور بسيط لبدء الحركة.. لقد كان عم (حنفي) أيضًا يتطور، ولكنه أيضًا مات ..

وبالرغم من أنه مرت عليه الكثير من أوقات الشدة مسبقًا.. مثل أصابته بالالتهاب الرئوي، أو المرة التي أصيب فيها بانسداد معوي، وتم عمل استئصال لجزء من الأمعاء له، أو حين أصيب بجلطة جديدة في المخ مرتين متتاليتين.. إلا أنه لم يمت.. ومات الآن ..

مات في هذا العالم الذي نحياه.. مات في هذا اليوم، وفي هذه الساعة، وهذا الشهر، وتلك السنة.. وياله من اختيار.

ولماذا مات؟! لم نعرف هذه المعلومة ..فلم يكن أحدهم موجودًا حين حدثت..

أصابني ضيق شديد.. كما أصاب كل الممرضات، وأغلب الأطباء.. إلا إن النواب الحاليين لم يبدُ على إي منهم بادرة تأثر لما حدث .. كأن الأمر لا يعنيهم .. مجرد عجوز مريض آخر مات.. لا يهم.. لقد كان بالكاد واعيًا لما يحدث حوله، وكان لا يحكم بوله، ولا يأكل إلا من خلال خرطوم، ما الذي يجعله مهمًا الى هذا الحد؟! لم يعتقد أحدهم أنه كان مهمًا.. وأنا لم أجادل طبعًا.. فقد مات عم (حنفي).. وكفى.

***

(الحرب ضد العراق محتملة للغاية، ولسنا في حاجة إلى قرار ثان لكي يكون الهجوم قانونيًا)

(قاذفة قنابل ثقيلة تقصف موقعين عراقيين)

(الملايين في كبرى مدن العالم يتظاهرون ضد الحرب)

(١٦ مارس ٢٠٠٣)

***

رن جرس الباب ..

احزروا من جاءنا ..

كلا.. لن يمكنكم أن تزوروا أبدًا.. فهذا شخص جديد تمامًا عليكم...

أقدم لكم رجل التعليم الأول في بيتنا.. رجل العصر وكل عصر.. السيد المبجل.. ((الأمير علي)).. والدي..

كان وجهه مرهقا متهالكًا.. يبدو عليه كما لو أنه سافر على قدميه، حاملاً العالم على كتفيه، تمامًا كـ((أطلس)) البطل الأسطوري الإغريقي.. أبي.. كم أوحشتني يا أبي.. كم افتقدتك يا أبي.. لماذا عدت يا أبي.. ماذا حدث يا أبي..

وقبل حتى أن يجلس ... كانت ((جميلة)) قد تعلقت برقبته، وسلم عليه (حمد) في فتور، وانخرطت أمي في البكاء وشددت أنا على يديه، كأننا أصدقاء قدامى ...

أبي عاد بعد أن أعطوه أجازة مفتوحة، بسبب الأحداث الجارية في الخليج الآن، وذلك بناء على تحذيرات من الجنود الأمريكان، الذين وصلوا بالقاعدة العسكرية في منطقة قريبة..

شكرًا لكم أيها الجنود الأعزاء، فقد أعدتم لنا العزيز الغالي، الذي افتقدناه.. ولتديروا شئون بلادنا كما يحق لكم، فنحن ما عدنا نقدر على ذلك، ومرحبًا بكم ضيوفًا وغزاة.. ستكونون أنتم الأهل ونحن الغرباء.. وسنقيم لرؤسائكم ومسئوليكم

الموالد والأعياد.. سنتعلم منكم الديمقراطية الحقة، ستكون انتخاباتنا بنسبة واحد وخمسون بالمائة، ولن نجدد لأحد من مسئولينا.. سنفعل كل ما تريدون لنا أن نفعل.. ونشكركم على عودة الغائب لنا.

أخبرنا والدي عن الذعر، الذي يتسبب فيه الجنود الأجانب.. عن حظر التجوال في مناطق عُرف عنها الهدوء والسكينة.. مضايقاتهم للمارة حين يسكرون.. أصواتهم المزعجة حين يغنون الأغاني البذيئة.. سخريتهم طوال الوقت من كل ما حولهم.. عدّتهم وعتادهم المستفزَّين لكل الناظرين.. كل هذا تحت مسمى أمن أمريكا ومحاربة الإرهاب، وكأن ما يفعلونه لا يخل بالأمن ولا يسبب الإرهاب ..

ظنت أمي أن عودة أبي نهائية.. إلا إنه طمأنها أن الأمر مؤقت، وسينتهي بمجرد انتهاء الموقف في العراق إن شاء الله.. وقد وعد الجنود الأمريكان أن ينتهي كل شيء سريعًا.. وليس عليها أن تقلق، فهذه الإجازة مدفوعة الأجر..

كان الضغط قد ارتفع عندي، وسخونة تصاعدت إلى قمة رأسي.. فما كان يدور أمامي من حوار، لهو منتهى الاستفزاز.

– قصدك إيه يا بابا أن كل حاجة هاتخلص بسرعة وكل حاجة هاتبقى تمام وإن إحنا ما نقلقش علشان خاطر إنت هاترجع بسرعة وهاتاخد فلوسك تالت ومتلّت؟!!

– قصدي إن الحرب هاتخلص بسرعة .. هايضربوا صدام ضربة سريعة وبعدين يمشوا ..

– يمشوا؟!! .. يمشوا يروحوا فين؟!! وبعدين يضربوا صدام.. همه هايقابلوه في الشارع يعني ويضربوه علقة موت وبعدين يسيبوه..

– ما هوّه يا بني إللي مش راضي يسلم الأسلحة إللي عنده..

– وهي فين الأسلحة إللي عنده ..

– الأمريكان بيقولوا إنها موجودة ..

– وهمّه عرفوا منين؟!!

– يا بني ما الأمريكان بيعرفوا كل حاجة وبيصوّروا كل حاجة .. وعارفين دبة النملة لما بتدب ..

– ومادام كده ماعرفوش مكان الأسلحة لغاية دلوقت ليه.. ما العراق كانت مفتوحة قدامهم وقدام المفتشين وقت طويل .. ومادام هم عارفين كل حاجة كده ما يطلعوا صدام من المكان

إللي مستخبي فيه بفرقة كوماندوز ولا حاجة كده وخلاص .. ليه الحرب يعني .. هم إللي هايحاربوا فيها دول مش عراقيين .. اللي هايموتوا فيها مش عراقيين .. اللي هايتكسر فيها دي مش بيوت ومساجد ومتاحف ومصانع ومدارس ومستشفيات العراقيين..

- إهدا بس يا بني .. إهدا .. إحنا مالنا ومالهم .. إحنا فين وهما فين .. خلينا ف حالنا يا بني ..

- خلينا في حالنا؟! ومين قال لهم يخلونا ف حالنا؟!! ومين قال أن هم هايخلونا في حالنا؟!! وهو إيه حالنا أصلاً اللي المفروض نخلينا فيه؟!!

قالت أمي:

- فيه إيه يا(رمزي) أنا عمري ما شفتك متنرفز كده .. وعمرك ما زعقت مع أبوك كده .. فيه إيه؟! ده تعبان ولسه جاي من السفر ..

أطرق والدي في الأرض .. (مجد) و(جميلة)، المتعلقة بأبي ينظران لي في ذهول .. أحسست صراعًا رهيبًا لم أعرف له سببًا.. أحسست بحسرة وألم.. اعتذرت.. واستأذنت .. وغمغمت..

- النهاردة هم .. وبكرة إحنا .. وبعده يا عالم مين؟!

دخلت غرفتي .. كتبت رسالة على المحمول لـ(منى) سألتها: (لماذا؟!)

أرسلت لها الرسالة ثلاث مرات ..

وقبعت وحدي.. حزينًا.. مقهورًا.. أنتظر أن ترد.

***

(بوش وبلير وأثنار يوجهون الإنذار الأخير لصدام بترع أسلحته فورًا أو مواجهة الحرب)

(قمة الآزور تمنح مجلس الأمن مهلة اليوم فقط للموافقة على مشروع القرار الأمريكي – البريطاني)

(الرئيس الأمريكي: صدام يمكنه تفادي الحرب بمغادرة العراق)

(١٧ مارس ٢٠٠٣)

***

طلبت مني (منى) أن أقابلها الآن، وحددت لي المكان.. وإنني إذا لم أتمكن، عليّ أن أرسل لها رفضي أو عدم تمكني. أرسلت لها موافقتي، وانطلقت ..

في الطريق، لم أمنع نفسي من التفكير في اللقاء المرتقب.. تلك الفاتنة البريّة.. تلك العيون الخضر المترقبة الثاقبة المتأملة..

هل سأتمكن من الصمود.. ساعدني يا الله، فأنا ما عدت أعرف ما سيحدث لي، وما يحدث لي دائمًا وأبدًا..

وفي المكان المحدد، كانت (منى) واقفة، تنعكس عنها أشعة الشمس، فتعطي جسدها وميضًا خاطفًا. تتأبط ملفًا كبيرًا، أو حافظة أوراق، على عينيها نظارة شمس سوداء، أضافت لها غموضًا وسحرًا.

فترة قصيرة بعد اللقاء، وكنا قد استقررنا على طاولة مجاورة للنيل تمامًا.. كأي فيلم عربي، يتقابل البطل والبطلة، ويختار المخرج فيجعلهما يتقابلان على نفس الطاولة كل مرة، بجوار النيل.. لا يهم.. ولكن هذا ما فعلناه فعلاً.. واندهشت لكون الجميع هاهنا يعرفونها معرفة جيدة.. كيف ذلك، وهي لازالت صغيرة إلى هذا الحد..

سألتها، فأجابتني بأن هذا مكانها المفضل ..

لولا النيل ما كانت مصر.. وهذه من أجمل المناظر المطلة على النيل.. ودائمًا ما تجلس هنا لتقرأ، أو تكتب، أو تذاكر.. ومع الوقت بدأت تعقد صداقات مع كل من حولها.. ولتبرهن على صدق كلامها، أشارت إلى ماسح أحذية صغير، يبدو في الثانية عشرة من عمره، وقالت:

- (سيد) .. ولد لذيذ أوي .. بتحب تمسح الشوز بتاعتك؟!

ابتسمت وشكرتها.. وابتسمت لـ(سيد)، الذي قد بدأ يهم بالمجيء نحونا وشكرته.. وجلست أمامها مأخوذًا بالكاريزما الرهيبة، التي تبثها حولها، وتناسيت أنها ربما تصغرني بعشرة أعوام كاملة أو أكثر.. أحسست كما لو إنني طفل بجوارها، وهي التي تقودني..

- كيفك دا الحين .. شكلك مو عاجبني لسه ..

- وهو إيه بس اللي عاجبك يا (مني)؟! علشان شكلي أنا يعجبك ..

- إنت بتعـــجبني ..

لو أني أبيض شاهق مثلها لاحمرت خدودي خجلاً.. إن هذه الفتاة جريئة حقًا.. ولذيذة أيضًا.

- أنا؟!!

- إي أنت.. ما تعرف إنك تعـــجب ..

- يعني.. مش قوي كده ..

ثم أردفت:

- إنتِ ما بتعرفيش تتكلمي زينا ..

- أحكي مصري يعني؟!

- أيوه ..

- باعرف طبعًا ..

- طب ماتتكلمي معايا مصري، بدل عوجة اللسان اللي مالهاش لازمة دى ..

- ما بَدّي ..

مسايرًا الجو العام:

- أمال بَدّك إيه؟!

- بَدّي تتكلم أنت ..

- أنا؟! وأنا هاتكلم عن إيه؟! ده أنا إللي عايزك تتكلمي.. عايزك تساعديني علشان أفهم.. علشان أوصل لنتيجة.. عايز أعرف إنتِ ليه كده واثقة من كل حاجة.. وبتخليني أحس إنك عارفة كل حاجة ..

- لأن كل حاجة حصلت قَبلْ.. اللي يدرُس الماضي.. بيعرف الحاضر.. ويتنبأ بالمستقبل.

ثم أردفت:

- الموضوع سهل جدًا ..

وتابعت:

- بس للّي بيدرس ويفهم ويربط الأشيا كلّتها بعضها ببعض..

كنت أنظر في انبهار، وأستمع في شغف، لو أدرك الغربيون مدى ذكاء هذا الكائن، الذي يجلس أمامي، لكفّ عن إطلاق النكات عن الشقراوات في الحال ..

- وبعدين؟!

- وبعدين شو؟!!

- رأيك إيه إنتِ؟ إيه اللي كان مخليكي متأكدة كده..

أخذت نَفَسًا عميقًا .. ودفعت حافظة الأوراق نحوي..

- كل أسئلتك عم بتلاقي أجوبتها في الحافظة دي..

- طب أمّال طلبتي تقابليني ليه، ما دام كان ممكن تديني الأوراق دي من زمان..

- كان بدّي أشوفك..

ثم أردفت:

- لوحدنا ..

ازدردت ريقي في صعوبة، وأحسست معدتي تتقلص، وجالت صورة (فيروز) بخاطري وهي تنظر لي في لوم.. بينما لم أتمكن من منع عيوني من ابتلاع هذا الكائن الشهي، الجالس أمامي بكل ما تمثله من فتنة وإغراء ..

– بس ..

– بس شو؟! مو عاجبك كلامي؟! مو عاجباك أنا؟! (وبدا في عينيها تساؤل قاتل مختلط بشبه لوم) ..

في إصرار نفيت:

– بالعكس .. أنا عمري في حياتي ما أعجبت بحد زيك .. أنا عمري ما شفت واحدة تشبهلك ..

ثم أردفت:

– في جمالك .. وذكائك .. ورقتك .. ودلالك.. و ..

تألقت عيناها فيما يشبه الانتصار.. إلا أن التساؤل في نظراتها وهي في انتظار الكلمة التي ستفسد عليها كل ما تحس من سعادة.. فجأة فتر حماسي في أن أفسد حماسها، ولكني احترمت نفسي وسألت:

– إنت عايزة إيه يا (منى) ..

- دكتور (رمزي) .. إنت شيّ مختلف عن كل اللي أعرفهم.. چنتلمان بجد.. طيب وحنين.. وفيك خير كتير.. والأهم من كده.. إنك بتحس.. فاهمان عليّ؟.. ده شيّ كتير صعب.. مو موچود.. إللي متلك مو موچود ..

ثم أردفت:

- علشان كده أنا حابّه إني أعرفك أكتر وأكتر.. وأقرب منك أكتر وأكتر ..

ثم أطرقت في الأرض وهي تتساءل:

- يا ترى ده شيّ حلال ولا حرام؟!!

- مش قصدي يا (منى) .. بالعكس .. ده أنا اللي بقيت عايز أعرفك وأقرب منك لأنك بكل المقاييس أكتر بنت استحوذت على اهتمامي قابلتها في حياتي .. بس ..

- بس ما تنسيش إن أنا .. يعني ..

تنحنحت: - كبير شويّتين فـــ ..

ازدردت لعابي في صعوبة: - يعني قصدي إنك ما يــــــــــــ...

ثم نفضت رأسي وقلت:

- انسي.. انسي كل حاجة قلتها.. ماحدّش واخد منها حاجة.. ومش ممكن نضيع من إيدينا فرص التلاقي بين أصحاب الفكر والإيمان الواحد علشان التقاليد والخوف من المستقبل.. ونغلب العواطف على العقول.. بس ده مش معناه إنك تفهمي كلامي غلط.. أو تعتبري كلامي موافقة ضمنية على إن علاقتنا ممكن تتعدى حدود الصداقة.. ولما نتفق على ده.. أنا أبقى تحت أمرك إن شا الله ٢٤ ساعة في اليوم.

لمحت شبه دمعة تكاد تسقط من مقلتيها الخضراوين.. أظنني كنت قاسيًا قليلاً، وأحبطت كثيرًا من حماسها الشاب الفائر.. إلا أن هذا لمصلحتها، ففارق السن بيننا كبير.. ثم إنّ قلبي، وإنْ كان يخفق لدى مرآها، إلا إنه ملك لفتاة أخرى.. ربما أقل جمالاً.. أقل ذكاءً.. أكبر سنًا، ولكنها مالكة مفاتيح قلبي ومسيّرة أموره.. (فيروز).

***

العينان الخضراوان ..

مروحتان ..

في أروقة الصيف الحران ..

أغنيتان مسافرتان ..

أبحرتا من نايات الرعيان ..

بعبير حنان ..

بعزاء من آلهة النور ..

إلى مدن الأحزان ..

– العينان الخضراوان –

(أمل دنقل)

***

ياله من توقيت مذهل ..

أن تأتيني رسالة من (فيروز) الآن..

هي تريد أن تراني.. يا لسخرية القدر..

هل أصبحت رؤياي مطلبًا جماهيريًا إلى هذا الحد ما بين يوم وليلة؟.. لا بد أنني وسيم للغاية ولا أعرف.. نظرت لساعتي.. وافقت.. ذهبت لمقابلتها.. إنه عصر السرعة كما تعلمون..

بالطبع لم أجلس معها في نفس المكان، الذي جلست فيه مع (منى) منذ قليل.. أخبرتكم من قبل من يريد أن يشاهد فيلمًا عربيًا عليه أن يكف عن متابعتي، وليفتح جهاز التليفزيون..

كانت (فيروز) فرحة للغاية.. مما جعلني أشعر لوهلة بالذنب لاستمتاعي السابق مع (منى).. الأحاسيس داخلي تتضارب.. ترى هل استمتعت حقًا بصحبة (منى)؟! لماذا لم أخبرها بذلك إذن؟! هل أنا معجب بها؟! هل ...

- حبيبي.. أنا نجحت.. النتيجة ظهرت من شوية..

عظيم جدًا.. هذا يعني أن المستحيل قد اقترب بمقدار خطوة، أن الحلم دنا ولو قدرًا ضئيلاً..

لم يكن المكان مناسبًا لأتلقفها بين ذراعي، ولكن كلاً منا أدرك ما يريده الآخر.. ووصله الإحساس كاملاً غير منقوص أو مشوه ..

طلبت منها أن تقوم ..

لم نكن قد طلبنا شيئًا بعد.. واستطعنا أن نفلت بالخروج قبل أن يلحق بنا النادل متسائلاً عن سر انصرافنا المبكر.. ذهبنا إلى السيارة وركبنا، وأنا بعد متكتم عن المكان الذي سنذهب إليه..

لم تدرِ (فيروز) بنفسها، إلا وأنا أطلب منها النزول.. كنا قد وصلنا خان الخليلي.. حيث يوجد صديق لي، يصنع الحلي والمجوهرات تفصيلاً ..

بعد شرب الشاي بالنعناع، كنا قد انهمكنا — أنا وهو — في تصميم هدية، عبارة عن دلاية ذهب مفرغة، تحمل اسم (فيروز) .. وهي تراقبنا منبهرة، لا تقوى على قول أو فعل شيء..

هكذا كنت أصنع لحظاتي مع (فيروز) ..وهكذا كنت أعرف أني حقًا أحبها، ولا أتوانى ..

ما الحياة إلا سلسلة موصولة من اللحظات، إن أسقطنا إحداها عمدًا أو سهوًا، لانفرطت السلسلة، ولفقدنا الطريق لما تبقى لنا من عمر.

فلتسعدي يا حبيبة القلب، إذ لا يعلم أحد بما يخبئه الغد لنا.

وأنا في طريق العودة، محاطًا بنظرات (فيروز)، التي تكاد تبتلعني حيًا.. جاءني تليفون من المترل.. لم أكن معتادًا قبلاً على أن يتصل بي أحد من المترل.. أحسست لوهلة بالقلق.. ترى أيكون (مجد) قد أقدم على فعل آخر أخرق دون علمي؟!! أيكون حدث مكروه لأحد منهم .. أ ...

- أاالو ...

كان والدي هو المتصل ..

- إنت فين يا بني؟!

- خير؟! (القلق يتزايد) ..

- مش هاتتغذى معانا؟.. إنت فاكر إن أنا قاعد كتير .. دول كلهم يومين وراجع ..

للمرة الثانية يذكرني والدي بتفاهة الوضع الحالي، وإنه لا يستحق أن نفكر فيه البتة.. علينا أن نتعامل معه كما لو أنه قادم في أجازة مؤقتة.. (يومين وراجع).. يومان وينتهي كل

شيء في العراق.. أو يومان وتنتهي العراق.. بهذا المعدل اللطيف لن تحتاج بلادنا جمعاء لأكثر من شهر ونصف على الأكثر، حسب توقيت والدي ..

– لا .. شكرًا يا بابا .. أنا أتغديت بره ..

– بره فين؟! ومع مين؟! إنت فين دلوقت يا (رمزي)؟!

أتت تلك هي اللحظة التي ذكرتني بأن عمري قد اقترب من ثلث القرن، وأن هذا النوع من الأسئلة لم يعد يناسبني .. خصوصًا من والد غير موجود أغلب الوقت، تحوّل برضاه ورغبته إلى بنك للائتمان الاقتصادي لمترلنا لا أكثر. لا أظن أن هذا يعطيه الحق في مثل هذه الأسئلة. وحقيقة لا أعرف لماذا اهتمّ أصلاً بسؤالها، أم تراه مدفوعًا مثلاً من أمي، التي لا بد بحسها المرهف قد استشعرت توتر العلاقة بيننا منذ عودته.. أتراني أغار من استعادته لقيادة زمام أمور عائلتنا؟.. أأكون طامعًا في القيام بدور الأب، ورب العائلة للدرجة التي أوهمتني بالتنافس مع والدي على هذا اللقب؟.. أصار تفكيري مريضًا إلى هذا الحد؟.. أحسست وخزة في صدري، وجفافًا في حلقي، ولكني لم أرد..

أمسكت يد (فيروز)، كأني أحتمي بها من مجهول لا أعلمه، وهي، بإحساسها المرهف، استشعرت أني لست على طبيعتي أثناء المكالمة، فشدّت بيدها على يدي..

- إنت جاى إمتي يا بني؟!

- شويّه كده يا بابا.. شويّه وراجع ..

كنت أعصر يد (فيروز) في شدة حتى لاحظت أنها تألمت، ولكن لم تنبس ببنت شفة ..

- يعني هاتيجي قبل ما تروح العيادة؟!

- ربنا يسهل ..

- يعني إيه ربنا يسهل؟! آه ولا لأ؟!!

- مش عارف يا بابا.. ربنا يسهل.. حسب الظروف.. إنت عايز حاجة مني؟

- كنت عايزك بس تقيس لي الضغط، وتحلل لي السكر بالجهاز بتاعك ..

- إنت كويس يا بابا؟ (بدأ القلق يتسلل إليّ)

- أه .. الحمد لله .. بس اطمئنان مش أكتر ..

- هوّه إنت عندك السكر يا بابا؟ (غضب في صوتي)

- يعني .. بسيط كده ..

- من إمتى؟.. (إحساس بالندم يعتريني)

- فترة يعني.. ما تشغلش بالك إنت.. تيجي بالسلامة ..

وأغلق التليفون.. لقد نجح في إثارة قلقي عليه بالفعل. لا أدري لماذا يفعل الجميع بي هكذا.. لماذا يتركون لي مهمة القلق عليهم ولهم..

كان جسدي كله يرتعش، حتى إن عجلة القيادة اهتزت في يدي.. ودون سابق إنذار، ودون طلب مني، قبلتني (فيروز) على خدي.. في منتهى الرقة والنعومة.. آه من الأحلام، لو أنها كانت فقط تتحقق ..

***

(أمريكا تعلن انتهاء الدبلوماسية في مجلس الأمن)

(المفتشون يستعدون لمغادرة العراق)

(استشهاد ١١ فلسطينيًا في مجزرة بقطاع غزة)

(١٨ مارس ٢٠٠٣)

***

عدت للمترل في سرعة ..

كنت قلقًا فعلاً.. كل ما في الدنيا الآن يبعث على القلق، أليس من الأجدر بي أن أقلق على والدي بالذات؟.. بالفعل كان السكر مرتفعًا، والضغط عاليًا.. ثم هو لم يقلع عن التدخين كما أوهمنا قبلاً.. هذا الرجل، الذي يحاول إيهامنا بأن كل الأشياء في الدنيا سهلة وبسيطة، وأنك يمكنك أن تشترى الأمان وراحة البال بعدم التفكير في شيء.. رجل كاذب.. أجل .. والدي كاذب.

هو فقط نوع ثقيل من أنواع الكاذبين.. هؤلاء الذين يبدون اللامبالاة والسخرية من الأوضاع، دون سخرية حقيقية، فيؤدي بهم الأمر لتمثيل دور المستسلمين للأمر الواقع، فقط لتكون اللعبة حلوة والأداء حقيقيًا، لا أكثر ولا أقل .. ولكن دواخلهم تتمرد عليهم، فيمرضون ويهرمون ويموتون ..

لماذا يا أبي؟!

لماذا لا تعطى لنفسك الفرصة كي تغضب.. كي تسخط..

ألأنك تتحمل المسئولية؟! ألأنك لا تملك رفاهية أن تغضب أو تسخط، ففي رقبتك كوم لحم كما يقولون.. كم أشفق

عليك يا أبي.. الأمر ليس بسيطًا أو سهلاً كما تقول .. والحياة هناك ليست بالجنة المنشودة.. أنت فقط لا تريدنا أن نقلق، وتستأثر وحدك بالقلق.. ياله من نوع غريب من الأنانية.

بالمثل.. ولكن بطريقة أخرى..

تعاملت مع مرضاى بالعيادة اليوم - ولربما دومًا - فمعهم أنا ضاحك ساخر لاه عابث، وأحيانًا شبه ماجن .. واثق أنا من كل شيء، وعارف لكل شيء.. وكل شيء في الدنيا سهل وبسيط.. وأنا أيضًا كاذب.. وأنا.. أيضًا أناني غريب آخر.. أنا ساخط غاضب؛ ولكن لا يبدو عليّ.. أنا ناقم حانق؛ ولكنكم أبدًا لن تعرفوا ذلك ..

الآن تذكرت الملف الذي أعطتني إياه (منى)، وهدية (فيروز) التي صنعتها في خان الخليلي.. لم أكن قد قرأت شيئًا من الملف، ولكني أرسلت رسالة على المحمول لـ(منى) تقول: (فعلاً .. هاينمربوها .. قريبًا) جاءني الرد .. (بديت تفهم .. اشتقتلك) تقلصت أمعائي، رنيت على (فيروز)، جاوبتني برنة هي الأخرى.. بعدها وصلتني منها رسالة تقول: (أخبار بابا إيه؟! وحشتني موت). جاءني تليفون من (أمجد). (ماما تعبانه قوى يارمزي وما بتردش عليا .. الحقني).. وأغلق السماعة. كنت في طريقي عائدًا للمترل، فغيّرت وجهتي إلى مترل (أمجد).

والدته أصيبت بجلطة في المخ، وهي في غيبوبة.. ضغطها مرتفع للغاية.. نقلناها في سيارتي، فسيارات الإسعاف في بلادنا غير مجهزة أصلاً، وتأتي متأخرة، ولن تفيد في شيء.. أدخلناها الرعاية المركزة، وبقيت بجوارها، واستسمحتهم فأدخلوا معي (أمجد) ..

الأحداث تسري في سرعة رهيبة..

أنا متعب للغاية.. لم آكل منذ فترة طويلة، وجسدي منهك.. أحس ألمًا في صدري، وتقلصًا في معدتي، وتنميلاً غريبًا في أطرافي.. استأذن (أمجد) ليدخن سيجارة بالخارج، فخرجت معه.. كانت الدموع تترقرق من عينيه، وهو صامت لا يتكلم.. ربتت على ظهره وقلت (هاتبقى كويسة .. الحمد لله ما فيش نزيف في الأشعة المقطعية) .. (مسألة وقت بس .. سيبها على الله) ..

الآن بكى (أمجد) وقال: (دي اللي فاضلة لي من الدنيا يا رمزي.. ماليش حد غيرها.. هي ستي وتاج راسي.. أنا ما قدرش أعيش من غيرها..)

جاءني تليفون من (محمد) صديقنا، يسأل عن والدة (أمجد)، فطمأنته في الوقت الذي جاءتنا فيه أختا (أمجد) المتزوجتان تهرولان في طرقة المستشفى..

يا له من هرج ومرج .. كان الصداع ينهش رأسي، فجاءت إجاباتي كلها مقتضبة مختصرة، كأني متضايق؛ ولكني لم أكن..كنت فقط أتمنى لهذه الليلة أن تنتهي، فقد صارت طويلة أكثر مما يجب..

ولكنه في النهاية حدث ..

عائد للمترل، جسدي كله يتمزق.. أحسّني على وشك الدخول في غيبوبة. وعندما دخلت من الباب - ورغم الوقت المتأخر - وجدت أبي مستيقظًا يدخن.. سألته عما به.. أخبرني أن (مجد) لم يعد للمترل.. لم أعرف بم أرد.. هل أخبره أن هذا هو المعتاد.. أأخبره أن (مجد) لا يعود إلا فجرًا، وربما مخمورًا أيضًا؟

تقلّصت معدتي أكثر، وأحسست بالتشاؤم يغزوني.. المواجهة اقتربت، وسينكشف كل شيء.. لكن الأقدار كانت رحيمة هذه الليلة، فقد دخل (مجد) الآن، ولم يكن مخمورًا، بل كان سعيدًا مرحًا.. كان على المقهى يلعب الكوتشينة مع أصدقائه.. ولدهشتي مر كل شيء بهدوء.. مجرد توبيخ بسيط من والدي، وتنبيه بعدم التأخير ثانية، أتبعتها نكتة من (مجد) ..

أنا على وشك الإغماء.. هل تصدقون كل ما يحدث لي في يوم واحد؟!! تحسبًا للمفاجآت أغلقت تليفوني المحمول،

ونزعت فيشة التليفون العادي من غرفتي، وقررت أني لن أذهب للمستشفى صباحًا، وربما العيادة أيضًا..

أنا مرهق للغاية، وأكاد أموت.. حقًا أحس أني أكاد أموت. ولو حدثت الليلة لن أستغرب، فقد بدا يومي كأنه اليوم الأخير.

***

(بوش يهدد بشن هجوم مصغر على العراق قبل انتهاء المهلة)

(فرنسا وروسيا تحذران الرئيس الأمريكي من تحدي الإرادة الدولية والعواقب الوخيمة للحرب)

(العراق يرفض الإنذار الأمريكي لصدام بالرحيل ويعقد اليوم جلسة طارئة بالبرلمان)

(الحرب تبدأ بغارات جوية مكثفة لإحداث الصدمة يعقبها هجوم بري كاسح)

(١٩ مارس ٢٠٠٣)

***

" ... لم أعرف أين أنا .. ولكن ..

فجأة فُتح باب الغرفة ..

دخل جندي مدجج .. طلب مني أن أخلع ملابسي ..

وأقف على أطراف أصابعي .. وأقفز ..

قبل أن أوافق أو أرفض ..

اصطدم كعب بندقيته بوجهي .. أحسست رجفة في كياني..

والكهرباء تسري في جسدي ..

صفعني الجندي على وجهي ..

وبدأ يقهقه ..

كنت لا زلت مدهوشًا مصعوقًا أغالب بقايا النوم ..

وقبل أن أقرر إذا كنت سأبدأ في التنفيذ أم لا ..

ارتدى الجندي قناعًا واقيًا على وجهه ..

وألقى قنبلة في الغرفة وأغلق خلفه الباب ..

أحسست شيئًا حارقا يسري في جسمي كله ..

وبدأت أبكي والعرق يترل مني غزيرًا وتبوّلت على نفسي وأصابني إسهال شديد وقيء ومغص وضربات قلب سريعة ..

لا أعرف ما اعتراني ..

كنت أفقد كل جسدي دفعة واحدة ..

كل فتحاتي تنضح وتكب ما تحتويه ..

كأني أفرّغ من محتوياتي ..

أين أنت أيها الجندي الرهيب ..

لماذا تفعل ذلك بي ..

ما هي تهمتي .. أنا استسلم ..

أرجوك .. ارحمني ..

أنا خدامك .. ارحمني ..

أنقذني .. أنجدني ..

ارحمني ..

آااه .. آاااااه

أفقت فجأة من كابوسي ..

كان السرير مبتلاً بالعرق.. نظرت حولي لأستبين مدى حقيقة الكابوس، الذي كان يبتلعني. أحس اختناقًا شديدًا.. كان الوقت قد صار ظهرًا .. (مجد) ليس بالغرفة، وأصوات التليفزيون بالخارج تصلني محمّلة بالأغاني السعيدة.

أرخيت رأسي للوراء، وبدأت أتأمل السقف فوقي.. للكابوس طعم كالحقيقة.. والوهم قد صار قريبًا، حتى إنني أحسه منتظرًا خلف الباب المغلق.. الأيام قد صارت قوية للغاية.. فاليوم الآن يحمل قوة السنوات.. كل شيء يحدث ما بين يوم وليلة ..

في الماضي كان أي حدث يحتاج لسنوات، وسنوات ..

هذا هو عصر السرعة.. عصر التكنولوجيا.. عصر التقدم والحضارة والمدنية..

وربما يكون آخر عصر..

من يدري؟!!

اتصل بي (أمجد) ..

لقد ازدادت غيبوبة أمه عمقًا ..

كان يبكي، وينتحب كما الأطفال الرضّع، الذين يبكون في هستيريا، فتنتفض أجسامهم، لكأنها تتشنج.. دقائق وكنت ألهب أسفلت الطريق، ذاهبًا إليه، فوجدته على شفا الانهيار..

بالفعل، حالة والدته تزداد سوءًا.. ضغطها لا زال كما هو مرتفعًا.. وبلغم كثير على صدرها.. نفسها غير منتظم، وكذا ضربات قلبها.. جسدي كله كان ينتفض أيضًا.. أحس ملايينًا

من النمل تسري تحت جلدي، وعضلات رقبتي تتقلص.. لا أعرف ماذا أفعل، بل لا أعرف لماذا تدهورت هكذا.. طلبت إعادة للأشعة المقطعية، وجلست أنتظر.. جلس قبالتي (أمجد)، تلاقت عيوننا، وكنت لا أحب لها أن تتلاقى.. ضعفي يخونني.. دموعي تحاول تقهرني.. لو إنني استسلمت وبكيت الآن، لانتهى كل شيء..سينهار (أمجد) تمامًا..سأشعر بالذنب الرهيب لأني تصديت لمسؤلية علاج والدته.. سأحس أني فقدت جزءً من ذاتي..

لماذا تلاقت أعيننا الآن؟!

حاولت أن أبتسم مطمئنًا إياه.. بصوت واهن ضعيف سأل:

– هو فيه إيه؟! فيه إيه يارمزي.. ماما مالها.. قول لي ماما مالها؟

لم أرد.. وهو لم يواصل السؤال ..

فقط ركز على عيوني أكثر، محاولاً أن يستشف منهما ما يحدث لوالدته؛ ولكني – في اللحظة الأخيرة – تماسكت كجبل صوان، كجلمود صخر كما يقولون..

جاءت أم (أمجد) من الآشعة المقطعية ..

كان هناك ارتشاحًا في المخ ..

في لحظات كنا – أنا والنواب – نعلّق محلولاً، ونشفّط صدرها و .. و .. و .. و ....

كان الوضع أشبه بالتجمل.. نحن لا نفعل شيئًا فعليًا .. نحن نحاول أن نبدو كما لو كنا نفعل، وحقيقة الأمر بين يدي الله..

ليست (أم أمجد) فقط ..

ولكننا كلنا كذلك.. بيوتنا وأهلنا كذلك..

بل وأوطاننا.. هل يتنبأ لي أحدكم بما سيحدث غدًا؟!

قررت أني لن أذهب لأي مكان اليوم..

(أمجد) يستحق مني ذلك على الأقل..

الحمد لله أنه لا يوجد استقبال لإرسال المحمول داخل الرعاية المركزة، سأرتاح منه اليوم أيضًا.. تذكرت ملف (منى)، إنه لازال معي بالسيارة.. بما إنني سأمضي اليوم بالرعاية المركزة، على الأقل أحاول أن أقضي الوقت بطريقة لا تجعلني أشعر به..

حاول (أمجد) أكثر من مرة أن يدفعني للذهاب، لكن شيئًا ما كان يجذبني لأبقى.. كأن ألف يد ويد تدفعني للرحيل، ويد واحدة تشدني.. وقد نجحت.

محاولة شعرية غربية ساذجة، وجدتها بين أوراق الملف.. تاريخها عجيب للغاية ..

"…. ١١ نوفمبر ١٩٩٨ ..

كل الحب ..

في العالم ..

لا يستطيع أن يغيّر الطريقة التي أشعر بها ..

كل الحب ..

في العالم .. لا يتمكن حتى من بدء الالتئام ..

عذاب أطفالنا ..

مستمر من الشروق إلى الشروق ..

على أيدي أخواتنا البشر ..

آلاف الأسباب للنفوق ..

يُقتلون واحدا ثم آخر ..

لا نهاية في الأفق ..

لهذا القتل الجماعي القذر ..

يا له من اشمئزاز ..

أن يكون لك مثل هذا القدر ..
لا تستطيع الاستسلام .. من أجل السلامة ..
لا تستطيع الاستمرار .. من أجل الكرامة ..
الكل يفكر أن طريقته أفضل ..
الديمقراطية للعالم ..
الآخرون لا وزن لهم ولا ثقل ..
لا يهم من الظالم ..
مساقون بالجشع المقيت ..
للحرية والدم ..
سيطرتهم واجب ..
وليُقلى الشعب في الزيت ..
إنهم يقررون مصيرنا ..
كأنها رغبتنا ..
يقتلون أطفالنا ونساءنا ..
يستحقون .. قالوا لنا ..
نفذ أو مت ..

هذا خيارنا الوحيد ..

اسجد .. انكب ..

هذا هو العالم الجديد ..

هل سنقف في وجوههم ..

هل ستلطخ دماؤنا كفوفهم ..

هل يأتي يوم ويعلمون ..

أن من حقنا أن نعيش ..

ونعبد ما نعبد ..

أن نعطي الشيء بإرادتنا ..

مع إنهم أبدًا لا يشبعون؟!

كل الحب ..

في العالم ..

لن يرد لنا أطفالنا ..

كل الحب ..

في العالم ..

لن يمنع الهجوم عنا..

ومر الوقت، رغم قراءتي للملف وما يحتويه من معلومات مثيرة وتحليلات شيقة، ثقيلاً، سخيفًا..

لا أعرف كم الساعة الآن.. ولكننا لا زلنا في انتظار أن تزورنا الملائكة، ومعها الأخبار المفرحة.

(أمجد) تحوّل إلى قاطرة بخارية.. أشعل سيجارة جديدة، ولا زالت الأخرى في منفضة السجائر أمامه، لم تنته،علمًا بأن التدخين ممنوع هنا أصلاً.. ولكن من يجرؤ على الاعتراض؟!!

- إنت مش هتروح العيادة النهارده؟!

- اسْمعني ..

- إنت قاعد هنا من الصبح، وما بتعملش حاجة معينة .. روح شوف الناس اللي محتاجة لك ..

وجدت أن كلامه صحيح إلى حد بعيد.. إلا أني وددت لو لا أذهب إلى أي مكان.. لو أن شيئًا جديًا حدث، وأنا غير موجود، فلن أسامح نفسي أبدًا.. ليس هذا ضربًا من التشاؤم ولكن يبدو أن أيامنا، وأزماننا، وأحوالنا، وأوطاننا عودتنا على توقع الأسوأ الأفظع الأقسى.. لم تعتد شعوبنا على الأمل، وإن كنا عشنا في كنفه مرارًا قبلاً.. لا نعرف طعمًا للفرح، حتى إننا في أفراحنا نبكي.. نحن شعوب بكائية رثائية من الدرجة

الأولى.. نحن نجعل للموت توقعات، ومقدمات، وطقوسًا كما لو كان ملكًا أو أميرًا.. نحن نحترم الموت كثيرًا، ونعطيه مما يستحق، وأحيانًا أكثر.. لقد احترفنا فن انتظار الموت، واقفين، أو جالسين، أو على أسرّة مرض.. أو حتى داخل بيوتنا، وبين أهلينا وذوينا..

لهذا، لم أذهب لعيادتي، وبقيت بجوار صديقي.. لماذا يحيق الموت بنا من كل جانب هكذا؟! لماذا يبدو كما لو كان الموت اختص بلادنا دون سائر البلدان؟! بل والمرض أيضًا ..

نحن شعوب مرضى..

أطفالنا مرضى سوء التغذية، والأنيميا، والبلاهة الفكرية، وانعدام القدوة، والفراغ، والهزال، وانعدام الغد أمامهم.. أما شبابنا فمرضى السمنة، والهوس، والإدمان، والجنس، والبطالة، والسخط، والقهر، والمقاهي، وعدم الكفاءة.. أما كبارنا فحدث عن أمراضهم ولا حرج.. وهل يوجد مرض من أمراض الطب والنفس إلا فيهم! .. ماذا نفعل نحن — الأطباء — مع كل ذلك .. نحن — الأطباء — لا نقدر على كل ذلك .. مَنْ سنعالج، وكيف، ومتى، ولماذا، وأين؟! بل مَنْ يعالجنا نحن؟! أظن أنه لا حاجة بنا للأطباء ..

أظن أنه لا فائدة للأطباء في أوطاننا ..

أعتقد أننا نستفيد أكثر من الدجالين، والمشعوذين، ومدعي العلم والغيب والأسرار .. وهم أصلاً أكثر عددًا من الأطباء.. ولكنك لا تراهم. إن عياداتهم أكثر ازدحامًا، ومرضاهم أكثر سعادة بالخدمة التي يتلقونها.. ترى لو أن أم أمجد تحت رعاية أحد الأولياء الصالحين الآن، ألم تكن في حال أفضل؟!!

تذكرت أمي أنا ..

هي لا تعرف شيئًا عني، ولا بد أنهم اتصلوا بي في كل مكان، ولا يعرف أحد مكاني. قررت أن أخرج من الرعاية قليلاً، حتى أتمكن من الاتصال بها.

وما أن خرجت من الرعاية، حتى أخذ التليفون يرن، ويعطي إشارة وصول رسالتين في الوقت ذاته.. هستيريا من الأصوات المتداخلة المتعاقبة.. كانت أمي المتصلة، والرسالة الأولى من (فيروز)، والثانية من (منى).

(إنت فين حبيبي؟!)

هذا ما قالته أمي في المكالمة، و(فيروز) و(منى) في رسالتيهما.. الجميع يبحث عني، لا أعرف لماذا؟! هل أنا مُهم هكذا؟! ولماذا؟!!

أدركت الآن لماذا يدخن الناس؟! لماذا أدخن أنا؟! إنهم يدخنون من أجل أوقات كتلك..

لذا أشعلت سيجارة، وكدت أنهيها في نفس واحد.. وسريعًا كنت قد انتهيت منها، لأشعل الثانية. وذهبت لسيارتي، جلست خلف عجلة القيادة، وأدخلت قرصًا مدمجًا في مشغل الأقراص، وأخذت أنفث الدخان، وأنا استمع لأنغام الكمان الشجية.. حتى لو كان ذلك مسكنًا، فأنا أحتاج الآن لمسكن، لا أكثر ولا أقل ..

لم أرد على أي منهما .. (فيروز) أو (منى) ..

نظرت لساعتي الآن.. كانت تقترب من الواحدة والنصف صباحًا.. تذكرت أني و(أمجد) لم نأكل شيئًا تقريبًا منذ الصباح. ذهبت بسيارتي، أحضرت بعض الفول والطعمية، وعُدت لصديقي، الذي كان منهكًا مُتعبًا، ولكنه لا يجرؤ على العودة للمنزل، وترك أمه هكذا بين الحياة والموت. ولكنه لم يعترض كثيرًا على تناول الطعام، فأكل قليلاً بانعدام شهية.. ولكنه أكل.

كانت الساعة تجاوزت الثانية.. ربّت على كتفي، وأخبرني أن أذهب لمنزلي، لأنام قليلاً، وأنه سيتصل بي فورًا إذا حدث شيء .. لم أجد داخلي أثرًا للمقاومة، فوافقت، وذهبت لمنزلي..

***

شيء في قلبي يحترق ..

إذ يمضي الوقت ..

فنفترق ..

ونمد الأيدي ..

يجمعها حب ..

وتفرقها طرق ..

(شيء يحترق)

– أمل دنقل –

***

(الخميس ١٧ من محرم ١٤٢٤ هجرية .. ٢٠ مارس ٢٠٠٣ ميلادية ..

وبدأت أمريكا حربها ضد العراق ..

*** بدأنا أول مراحل نزع أسلحة الدمار، وتقويض نظام (صدام)**

– چورچ بوش –

*** دونالد رامسفيلد – تقارير للبنتاجون الأمريكي:**

– أيها الشعب العراقي .. دعوني أهنئكم .. قد جاءكم الخلاص .. وأصبح يوم الحرية والاستقلال في متناول أيديكم..

– قوات التحالف ستأخذ كل الطرق لحماية المدنيين الأبرياء.

– تلك حرب.. لا ضد أشخاص.. ولا أوطان.. وبالطبع ليست ضد أديان..)

رن جرس المحمول ..

كنت قد نمت كما أنا بملابسي على الكنبة بالصالة..

انتفضت متوقعًا الأسوأ بخصوص والدة (أمجد) طبعًا..

انتفضت أكثر عندما كان المتصل.. (منى) ..

أجل (منى) ..

الجرس لحوح جدًا ،كما لو كان يحمل خبرًا هامًا.. وقد كان.. وقد كانت هي تبكي.. وتنشج.. وقد كنت أنا مفزوعًا..

- ضربوها .. ضربوها .. ضربوها .. ما قلتلّك .. خلاص يا (رمزي) .. صار كيف ما قلــ .... إهئ .. إهئ ..

كنت أقرب للنوم.. غير واع ولا مستيقظ.. ولكني أدركت كل شيء.. ألم أقل لكم إننا دومًا نتوقع الأسوأ.. الذي بدوره دومًا يحدث.. أكثر الأشياء، التي تستعصي على الفهم، تحدث، وكل ما هو أقرب للعقل والمنطق، لا يحدث .. إنه حقًا عالم قذر، وزمن قذر، وأناس قذرة ..

جزء مني كان يبدو شاذًا ساذجًا متفائلاً.. كنت أظن، لآخر لحظة، أن شيئًا من ذلك لن يحدث.. أن أمريكا ستتراجع.. أن الأمر لن يعدو كونه تهديدًا صارمًا، وأنه سيتم توقيع عقوبات، وتتزايد عزلة العراق الدولية.. وفقط. ربما كان هذا ما يحدث في الماضي.. في الزمن الماضي.. في الدرب الماضي.. أما الآن فكل الكوابيس تتحقق وأسوأ..

حاولت أن أهدئ من روع العصفورة المرتجفة المذعورة على الطرف الأخر من الخط، ولكنّي فشلت .. ولم أندهش.

أنا قد كففت عن الاندهاش.. تُرى بم يفيد الاندهاش؟! بل ما هو الاندهاش أصلاً؟!! كي نندهش يجب أن نتمتع برفاهية أن يكون المنطقي العقلاني المتوقع هو السائد.. نحن لا نتمتع بهذه الخاصية.. بلادنا لها ميزات خاصة.. ما يحدث لها، ومنها جعل أمثالي يتنازلون عن حقهم بالميلاد في خاصية الاندهاش ..

- هلا كّلاتنا عَم نِستنّي أدوارنا .. كلّه چاي عليه الدور..

لم أرد.. ولم يكن لدي رد.. فقد كانت صادقة تمامًا..

أليس كذلك يا أبي؟!

أبشر ها هو المراد قد تم، وستعود لعملك سريعًا، لتقاسي وتعاني في صمت، وأضف لقلقي أضعافًا مضاعفة من القلق عليك وعلى صحتك ..

تُرى .. ما حال أم (أمجد) الآن؟!!

وفي نفس اللحظة، وأنا مازلت مع (منى) على خط التليفون، سمعت أزيزًا يدل على وجود شخص آخر يطلبني، وهو الآن على الانتظار، وطبعًا هو (أمجد)!!

نظرت وهلة لنفسي، لأتأكد أني لازلت بملابسي، تحسبًا للنزول ثانية. حاولت أن أهدئ من روع (مِنى) قليلاً.. أخبرتها إن (أمجد) على الانتظار، ويجب أن أتصل به لأطمئن على والدته، ووعدتها أني سأعاود الاتصال بها سريعًا..

اتصلت به، ومن بين بكائه الهستيري ميزت أهم ما كان يعنيني.. هي لم تمت بعد. وقبل أن أغلق معه الخط، كنت وصلت لنصف الطريق للمستشفى، غير عابئ بالأصوات المتساءلة عن سبب نزولي ثانية من أمي وأبي ..

وصلت ..

كانت الحالة تزداد سوءًا دونما سبب واضح.. التنفس غير منتظم، وغازات الدم سيئة، ودرجة الوعي متدهورة إلى حد غير مسبوق. عضلة القلب ستتوقف حتمًا.. لحظات صعبة ورهيبة.. صارت الآن أم (أمجد) على جهاز التنفس الصناعي.. توقفت لوهلة، والعرق يتصبب مني غزيرًا، رغم وجود التكييف البارد بالرعاية.. ملابسي تهدلت، وأصبح الدم يغطيها مصحوبة بإفرازات كريهة الملمس والرائحة.. ألهث في شدة.. صدري يعلو ويهبط في عنف..

(أمجد) واقف قبالتي، تنزل دموعه في صمت، بل الأدهي.. أني وجدت دموعي أنا تنزل رغمًا عني، وفي صمت أيضًا..

خلعت قفازاتي المطاطية، لأدرك أني مُتعب للغاية.. تحركت في بطء خارجًا.. توقفت لوهلة بجوار (أمجد).. ربت على كتفه، وربت هو على يدي، التي كانت تربت على كتفه.. خرجت أنا.. وظل هو واقفًا .. على أقرب كرسي بممر الرعاية انهرت، وخررت ساقطًا.. صداع رهيب يمزق رأسي.. أشعلت سيجارة في قهر.. كان (أمجد) قد خرج الآن، مشيرًا إلى الجهاز الذي صارت أمه تحت رحمة متسائلاً.. أجبته دون أن يسأل:

- تنفس صناعي .. ربنا يسهل .. الله أعلم ..

نفثت الدخان في حُرقة، نظرت له من تحت لفوق، ورأسي بين يدي، وكوعي على ركبتي.. غمغمت ..

- مش ضربوا العراق خلاص ..

تركني، ودخل لأمه ثانية.. وأطرقت أنا برأسي في الأرض..

مهزوم أنا، وعلى كل المستويات.. أتمنى حياة غير حياتي، وعالم غير عالمي، وأيام لا علاقة لها بأيامي .. هل أنا مصاب بلعنة من نوع ما؟!! أم تراها لعنة تشملنا جميعًا؟!!

أمسكت تليفوني المحمول.. بدأت أكتب رسالة عليه ..

(دلوقت اتضربت العراق.. وأم واحد صاحبي حطيتها على جهاز التنفس الصناعي.. كل حته فيا محتاجه ليكي.. وحشتيني)

يبدو أن (فيروز) لم تكن قد نامت بعد، فقد بادلتني الرسالة برنة.. هي من قبيل: (وأنا أكثر)، التي دومًا تهزمني بها ..

كانت دموعي الآن تنزل غزيرة ..

غريب جدًا، فقد كنت أظن أن بكائي لهو شيء مستحيل.. وإن حدث يجب أن يكون له مقدمات رهيبة، تعلمني أني سأبكي.. ولكني لم أتصور يومًا أني سأضبط نفسي أبكي، دون أن أعلم!.. هل البكاء سهل هكذا؟.. أهو مثل الحب.. يحدث رغمًا عنك، ولا تملك التحكم أو السيطرة عليه؟!.. هل سأكون أفضل حالاً بعد أن أبكي؟.. هل يتغير العالم من حولي؟!!

في بطء ووهن، بدأت أرفع ناظري لتصطدم عيناي بعيني (أمجد).. أنا غير قادر على التماسك أكثر من ذلك.. أنا لست بطلاً أسطوريًا.. أنا بشر.. وما يحدث لي قد فاق احتمالي.. أعصابي مرهقة للغاية، وجسدي منهك، وروحي ممزقة..

ربت (أمجد) على كتفي هذه المرة .. وهمس ..

- إنت إيه؟! جبل؟! ما بتتهدش؟!! ما بترتحش؟! روّح ..

ثم أردف ..

- روّح يا (رمزي) .. إنت كده هاتتعب .. إحنا نعمل إيه لما إنت تتعب؟! نضيع ..

أردف:

- أيوه يا (رمزي) .. إنت لو تتعب .. كلنا نتعب معاك .. كلنا محتاجين لك .. أنا .. وأمي .. وأهلك وعيانينك وشغلك وصحابك .. ونفسك .. أيوه يا أخي .. إنت محتاج لنفسك .. روّح يا (رمزي) ونام .. نام كويس .. ولما تبقى كويس .. ابقى ارجع لي .. علشان ربنا يجعل شِفا أمي على إيديك .. لو بتحبني يا (رمزي) .. روّح ..

البكاء الآن صار متبادلاً .. وحارًّا ..

لم أدرِ بنفسي إلا وأنا أرتمي في حضن صديقي الضخم، وهو يضمني في شدة.. أوّاه يا (أمجد) .. لَكَمْ كنت أحتاج لمثل هذا الحضن وهذه الضمّة.. اسحقني يا عزيزي أكثر.. أذبني داخلك، واجعلني غلالة خفيفة شفيفة من مادة رقيقة تحوطك، وتخترقك، وترفرف بالصحة والسعادة عليك، وعلى أمك، وكل من أحب .. اللهم اجعلني كذلك .. لو إنه مقدّر لي ذلك..

جاءتني رسالة على المحمول ..

تركني (أمجد) لوهلة، لأقرأ رسالة (فيروز) القصيرة ..

(كل لحظة في عمرك.. بأحبك أكتر وأكتر.. ربنا معاك ويخليك ليا.. وحشتني أكتر)

ارتسمت على وجهي شبه ابتسامة.. بها كل المرارة، وكل القلق، وكل الحزن، وكل الحيرة ..

***

(قوات أمريكية وبريطانية ضخمة، تدعمها المدرعات تتوغل في جنوب العراق فجر اليوم .. إسقاط جنود خلف الخطوط العراقية، وبريطانيا تعلن سقوط أم القصير والفاو .. ديك تشيني نائب الرئيس الأمريكي في حديث مهم: العملية العسكرية ستمضي سريعة جدًا، ولا نريد أن نبقى في العراق أكثر مما هو ضروري، وليس هناك قائمة ضرب تتضمن دولاً عربية وإسلامية أخرى بعد العراق)

(بغداد تحترق تحت نيران أعنف قصف جوي في بداية الهجوم الكبير على العراق)

***

-٥-

كنت شاردًا للغاية، وأنا أقوم بالتدريس لطلبة السنة الرابعة درسهم الإكلينيكي اليوم. فقد انهمكت أكثر في تأمل وجوه الطلبة، الذين كانوا شاردين بدورهم، لا يهتمون، متشاغلين عني، وعن كل ما أقول بأشياء لا أعلمها، وربما لا يعلمونها هم أيضًا، بل ربما بلا شيء أصلاً.

انتزعني طالب من شرودي.. كان يطالب بإلغاء التدريس اليوم، فحالتهم النفسية لا تسمح بالتركيز في الدرس، بسبب حرب العراق والافتراء الأمريكي، ومشاكل الشرق الأوسط، وأزمة البلد الاقتصادية؟!!

ضحك زملاؤه، وعاتبه بعضهم، وسخر منه آخرون..كنت أظنني سأرد عليه ردًا لاذعًا.. لا .. سأحوله للتحقيق، فهو يسخر من أستاذه، ومن التدريس، ومن قدسية المدرسة الطبية العريقة، التي من المفترض أنه ينتمي إليها .. و .. و .. ولكني أجبته بمنتهى المنطقية.. كل هذا دائم ومستمر، وُلدنا وهو موجود، ويحدث حولنا كل يوم.. هل نتوقف عن ممارسة الحياة؟

لم أعد أميزه من بين زملائه.. الآن لا أذكر على وجه التحديد من الذي أثار هذه الـــ ..

الـ ...الـ ..هذه الـ ... ماذا؟!

قضية؟! نقطة؟! ملحوظة؟! طرفة؟!

لم أجد لها اسمًا ..

استعدت تركيزي الكامل، وبدأت أستأنف الشرح في حماس شديد. حتى الطلاب بدأوا في التفاعل معي، وبدأوا يركزون مع كل ما أقول، يسألون ويجيبون. أعطاني هذا بعض الأمل .. هل تصدقون؟! .. بعض من الأمل.. هل تحدث في حيواتكم أشياء تمنحكم بعض الأمل؟.. تمسكوا بها إذًا.. فالحياة تعدكم عدم التكرار..

انتهى الدرس، وهممت بالمغادرة ..

ابتسمت ثانية.. فقد كانت العاملة لا تزال تتشاجر — كعادتها — مع أحد المرافقات للمرضى. نزلت الدرج، ولم أستخدم المصعد.. في لهفة دخلت الرعاية المركزة.. أم (أمجد) حالتها مستمرة على جهاز التنفس الصناعي.. لا جديد.. بينها وبين الموت كما بينها وبين الحياة.. كأنها في برزخ من نوع ما. قابلت أخت (أمجد) في طريقي خارجًا. (أمجد) في عمله، سيأتي بعد قليل. ربتت على ظهرها في مواساة، ابتسمت ابتسامة مقتضبة. طلبت منها الدعاء بأفضل ما تستطيع، وسأكون معها داعيًا .. وغادرت.

هممت بإرسال رسالة لـــ(مني) أطمئن عليها، ففوجئت بها تطلبني هي. غريب جدًا.. كل مرة أهمّ بالاتصال بها لسبب أو آخر، تهمّ هي بفعل ذلك قبلي، كما لو كانت تراقبني.

ولدهشتي أنا، كان صوتها عاديًا جدًا، لا أثر فيه لبكاء أو دموع، كأن شيئًا لم يحدث. سألتني عن يومي، وكيف كان، وإن كنت أستطيع مقابلتها، فقد أوحشتها كثيرًا، ولديها ألف موضوع تريد أن تتحدث معي فيه.

جريئة جدًا.. جريئة جدًا جدًا.

مِمَ صُنعت هذه المخلوقة؟.. أليس حريًا بها أن تتواصل مع زملائها بالكلية؟.. تلهو معهم.. تذهب للنادي معهم.. أو تشارك في مظاهرة من نوع ما، كتلك الموجودة في كل مكان، اعتراضًا على العدوان الأمريكي الغاشم..

هل يريد أحدكم أن يتفضل ويخبرني هل توجد كلمة أخرى نستخدمها في حياتنا اليومية أكثر من كلمة (غاشم) ..

الاحتلال الإسرائيلي (الغاشم).. العدوان الأمريكي (الغاشم).. القوة الأجنبية (الغاشمة) ..اللوبي الصهيوني (الغاشم).. الاعتداء(الغاشم) للميليشيات اللبنانية بعضها على بعض.. العقوبات (الغاشمة)على ليبيا ..

أليس حريًا بـــ(مني) أن تهتم، وتصبح جزءً من هذه الأشياء الجميلة، التي تملأ حياتنا سعادة وبهجة؟!! ماذا تريد منيّ هذه الشيطانة الصغيرة؟! ألم نخض هذه المجادلة قبلاً؟!! لذا فقد اعتذرت لها في رقة، فأجابتني بطريقتها التي تقطر عذوبة ولومًا.. إغراءً واستسلامًا..

- كيف ما بدّك ..

أكاد أتراجع لوهلة عن رفضي.. ولكن أظن أن هذا هو الأصلح..لن أسقط في هذا الشرك الذي تنصبه لي .. لن أتعلق بها أكثر مما يجب ..

أغلقت الخط ..

ردًّا عليها.. طلبت (فيروز) كأني أقول لها إني أحب أخرى.. ألا ترين ذلك .. دعيني وشأني ..

***

(القوات الأمريكية تعلن سقوط الناصرية ومقاومة عراقية ضارية حول البصرة)

***

وصلت العيادة، فهالني أن اللافتة المضيئة، التي تحمل اسمي تحطمت، وألصق أحدهم ملصقة تندد بالاحتلال الأمريكي الإسرائيلي على باب العيادة.. كما كتبوا عبارات مماثلة بالطلاء

الرش على باب العمارة، وجسدها من الخارج.. تشويه ما بعده تشويه.. أنزل علينا الرحمة من عندك يا الله ..

قوات أمن كثيرة منتشرة في الشوارع..

ولم يحضر العيادة سوى اثنين من المرضى في استشارات لهم.. وكانت المفاجأة.. (سماح) تخبرني إن (فيروز) بالخارج، ولا يوجد أحد آخر بالعيادة..

أمرتها بإدخالها فورًا، والانصراف إن أرادت. سأغلق أنا العيادة. ما أن انصرفت (سماح)، وبدأت (فيروز) بالدخول، وقبل أن تُتم (سماح) إغلاق الباب ،كنت و (فيروز) يندفع كل منا نحو الآخر، وفي قوة تعانقنا.

احتضنتها في شدة، وبدأت أُقبّل كل ما يمكن أن تصل شفتاي إليه.. شعرها.. وجهها.. أذنها.. أنفها.. رقبتها.. لا يهم.. المهم إني كنت أقبل جزءً منها ..

بعد وقت ما.. توقفنا نلهث، والدموع تظفر من عيوننا .. طرقت (سماح) الباب.. أخبرتني إنها ستغادر، فأومأت وأنا شارد عنها.. جالس وقبالي (فيروز) على كرسيي المرضى الوثيرين المواجهين لمكتبي، كأنما نحن جالسان في كازينو ما أو مطعم.. يتبقى لنا فقط مزهرية بيضاء صغيرة، بوردة حمراء داخلها على الطاولة الصغيرة ما بيننا.

عيناي مثبتتان على الكائن النوراني، الذي يواجهني الآن، وأتمنى لو تتوقف عقارب الزمن عند هذه اللحظة، حيث السعادة.. والهناء.. والمرح.. حيث الجنة.. حيث أحب ما أنا عليه، وأرضى.

ستتساءلون أين (رمزي)، الذي كان يعاني الأمرين منذ قليل.. أنا هو أنا، ولكن ما المانع؟.. علينا أن نشاهد شروق الشمس ولو لمرة كل سنة.. أن نفكر أفكارًا كبيرة، ولكن لا ننسى أن نستمتع ونتلذذ الاستمتاعات الضئيلة.. ألا نتوقع العدل من الحياة؟.. أن نغني – مثلاً – أثناء الاستحمام.. أن نتعلم قول أشياء من قبيل (آسف.. لقد أخطأت) أو (لا أعرف).. أن نحتاج الآخرين، ونكون موجودين حين يحتاجوا لنا.

أترون ذلك صعبًا إلى هذا الحد؟!!

سألتها عن سبب الزيارة غير سابقة الإعلان، فأخبرتني إنها تشاجرت مع عمها، الذي يسكن بالجوار، وأنها أحست بالقهر، فقررت أن تمر عليّ، خاصة وأنها استشعرت قلقًا منذ آخر مرة تكلمنا، ومنذ بدأ العدوان الأمريكي على العراق..

سألتني في سذاجة عن الحل؟!!

سألتها بخصوص عمها؟! فابتسمت وقالت بل ما يحدث في العراق ..

لم أعرف بم أجيبها.. أخذت أفكر قليلاً، ثم قلت لها..

- هاحكي لك قصة لطيفة أوي ..

رفعت ساقيها عن الأرض، ودستهما تحتها على الكرسي الوثير، فبدت كما لو كانت قطة شقية تكورت على نفسها أمام مدفأة دافئة في ليلة شتاء باردة ..

- كان فيه غابة كبيرة زمان .. وكان فيها فيل كبير جبار قاسي القلب.. وعايشة جنب منه عصفورة ضعيفة صغنونة.. قعدت العصفورة تبني عشها على شجرة جميلة وأوراقها كثيرة.. يوم ورا يوم.. لحد ما خلصت.. ولما استقر بيها الحال باضت.. وقعدت العصفورة على البيض لحد ما فقس وخرج منه عصافير صغيرة..

سكتّ قليلاً، لأرقب الترقب والتطلع في نظرات (فيروز)..

- وف يوم هبت عاصفة جامدة أثناء الليل فحركت العش لغاية ما بقى متعلق من فرع واحد.. طلع الصبح وراحت العصفورة تجري على رزق عيالها.. جه الفيل الصبح جعان.. قعد يدبدب برجليه على الأرض.. يفزع الحيوانات ويكسر

الزرع وأكل من الشجرة وخلص على الورق اللي فيها لحد ما العش وقع على الأرض والبيض اللي كان باقي فيه انكسر.. قعدت العصافير الصغيرة اللي في العش واللي لسه ما تعلمتش الطيران تصوصو.. تصوصو.. والأم لسه بعيدة.. بص الفيل تحت رجليه.. كان ممكن يتفادى العش.. كان ممكن ما يدوسش على العصافير الصغيرة .. بس هوّه ما عملش كده.. وبكل غل وبكل قسوة وبكل جبروت داس ع العش.. داس عليه وموّت كل اللي فيه ..

بدأت ألمح شبح دمعة تكاد تسقط من عين (فيروز).. رقيقة هي.. رقة تلك العصافير الصغيرة.. وتدهسها الدنيا كل يوم كما فعل الفيل مع العش.

- جت العصفورة قبل المغرب ولقيت الفيل عمل اللي عمله لأن رجليه كانت عامله في الأرض حفر جنب الشجرة .. راحت تعيّط له وتسأله ليه عمل كده .. فطوّح بخرطومه حتى كاد يفتك بها .. فرحلت عنه تستأنف البكاء في مكان أخر .. ذهبت لجماعة الطير وحكت لهم ما حدث وسألتهم المشورة .. فقالوا لها .. واحنا هانعمل إيه للفيل .. بصي له وبصي لنا .. شوفي حجمه وشوفي حجمنا .. قالت لهم: المسألة مش مسألة حجم .. المسألة مسألة عدالة وقصاص .. رئيس الطيور سألها:

يعني إنت عايزة إيه دلوقت؟! .. فكرت العصفورة شوية وبعدين قالت: شوية حمام على كام غراب بعد يومين ولمدة ساعتين بس مش أكتر .. بص رئيس الطيور لجماعة الحمام وجماعة الغربان فأومأ رئيس كل منهما بالموافقة ..

كانت الدهشة تلتهم (فيروز) الآن، والتساؤل احتل كيانها، فاستأنفت ..

– راحت العصفورة لغدير الضفادع.. واشتكت لهم زي ما اشتكت للطيور.. وردوا عليها زي ما ردوا.. واحنا هانعمل إيه؟! واحنا نقدر نسوي إيه؟! احنا ما نقدرش نصارع الفيل.. وكلام زي كده.. قالت لهم العصفورة: إنتو مش هاتحاربوا الفيل ولا تصارعوه.. كل المطلوب منكم أن إنتو ترفعوا صوتكم بالنقيق.. ممكن؟!.. الضفادع وافقت وهمه متأكدين أن العصفورة دي أكيد مجنونة..

إنتِ إيه رأيك؟!

ابتسمت (فيروز)، وتهللت أساريرها، فبدا وجهها البدر ليلة التمام ..

– بيتهيألي المسكينة اتجننت من اللي حصل لعيالها ..

بادلتها الابتسام .. وتجاهلت أجابتها..

– وجه اليوم المنتظر.. طلبت العصفورة من الحمام والغربان أن كل واحد فيهم ينقر عين الفيل نقرة صغيرة، لغاية ما الفيل اتعمى، وقعد يجري في الغابة وهوّه عمال يتخبط يمين وشمال.. وهنا جه دور الضفادع.. العصفورة كانت موقفة الضفادع صف عند حافة وادي عميق مالوش قرار.. جه الفيل عطشان وجعان.. علّت الضفادع صوتها بالنقيق.. فافتكر الفيل إن فيه هنا نهر ولا حته فيها ميه.. علشان الضفادع موجودة.. قام الفيل جاي جَرْي على صوت الضفادع.. وهوووووب.. قام واقع من فوق في الوادي.. واتفتفت سُتّميت حتّة..

– أحسن .. يستاهل .. براڤو عليهم ..

أخذت أتأملها لوهلة، وأنا أدرك في قرارة نفسي أني أحبها للغاية ..

– وبس يا ستي .. توتة توتة .. أهي فرغت الحدوتة .. حلوة ولا ملتوتة ..

هبّت من كرسيها، وقبلتني قبلة حارة، وهي تهمس..

– بحبك أوي يا (رمزي) .. بحبك أوي وما قدرش أعيش من غيرك .. إنت كل اللي ليا في الدنيا دي ..

احتضنتها في قوة، فأحسست جسدها يرتعش.. نظرت لساعتي، كان الوقت متأخرًا، فأخذتها من يدها، وبدأت أغلق

العيادة. اصطحبتها لسيارتي كي أوصلها، ولم يفتني النظرات المسترية للجيران، والمحمّل بعضها بالبغض والكراهية، مما لا أدري له سببًا، ولا أدري له مبررًا.

العادات والتقاليد؟!

أوووف.. ألم تسأموا بعد.. هذه لعبة قديمة بليت منذ زمن.. ما الذي بقى لنا نحن من عادات وتقاليد؟!

نحن نرى الخطأ في الآخرين، ونفشل في رؤيته فينا نحن..

كل الآخرون سيئون .. ونحن فقط الصالحون ..

نحن ..

هم ..

تفرقة، كأنما هي خط فاصل بين الأبيض والأسود..

نحن قادرون جدًا على أن ننقم على الآخرين.. على أن نكرههم، وننقدهم، ونسبهم، ونلعنهم.. بل ونرجمهم بالحجارة حتى الموت.. لكننا أبدًا.. أبدًا.. لن نملك القدرة على أن نحبهم.. أو نقبلهم.. أو نسمعهم.. أو أي شيء من هذا الهراء الرخيص ..

سحقًا لهم ..

هؤلاء الآخرون !!!

***

آه .. ما أقسى الجدار ..
عندما ينهض في وجه الشروق ..
ربما ننفق كل العمر ..
كي ننقب ثغرة ..
ليمر النور للأجيال .. مرّة ..
ربما لو لم يكن هذا الجدار ..
ما عرفنا قيمة الضوء الطليق !!

(ديباجة البكاء بين يدي زرقاء اليمامة)

– أمل دنقل –

***

(بذلنا أقصى جهد لتفادي الحرب ويجب ألا تتحول المسيرات إلى تحطيم الممتلكات ..)

(إسرائيل تعتقل (٢١) فلسطينيًا وتغلق (٣) مكاتب لحماس)

***

عدت للمنزل ..

كان والديّ يشاهدان التلفاز بالصالة، ما بين صحو ونوم .. وتكورت (جميلة) بينهما.. أو بالأحرى كانت متكورة في حضن أبي الأكثر نعاسًا ..

دخلت الغرفة، حيث فوجئت بـ(مجد) جالسًا في الظلام على سريره يبكي.. أغلقت باب الغرفة بالمفتاح، وجلست بجواره على السرير، حيث بدأ يرمقني في قهر واستسلام..

- ما لك يا (مجد)؟!! مالك يا حبيبي؟.. إنت قالقني عليك قوي.. كل يوم كده والتاني حالتك مش مريحاني.. ممكن تحكي لي مالك؟! ..

- (رمزي) إنت حبيّت ..

- ولا زلت.. أنا فعلاً بأحب..

- وإيه رأيك في الحب؟!

- الحب.. هو الحاجة الوحيدة اللي مصبراني على الدنيا اللي أنا فيها دي يا (مجد).. لولا الحب واللحظات اللي بأقضيها مع اللي بأحبها كان زماني انتحرت ولا اتجننت ولا سبت البلد من زمان..

- يعني الحب ده حاجة كويسة قوي كده؟!!

- غالبًا ..

ازداد بكاؤه، وبدأ يتشنج.. فاستطردت ..

- الحب برضه ممكن يجيب التعاسة ..

- زيي ..

- بس عارف يا (مجد).. ما فيش راجل أو ست يستاهل دمعة عين ..

- إزاي بقى.. مش إنت لسه قايل إنه حاجة حلوة قوي.. يعني لما يبقى فيه مشاكل أو كده يبقى يستاهل مننا البُكا..

- أبدًا.. أبدًا.. لأن الشخص اللي يستاهل الدموع إذا اتوجد.. لا يمكن يخليك تبكي أبدًا.. ومش معني إن فيه حد مش قادر يحبك زي ما أنت عايز أو بالطريقة اللي إنت عايزها أنه مش بيحبك.. لأن ممكن برضه يكونوا بيحبوك بكل ما عندهم وإن دي طريقتهم في حبهم ليك.. خليك دايمًا بتحب

مش علشان اللي إنت بتحبه إيه ولكن علشان إنت بتحب البني آدم اللي إنت بتكون عليه وإنت معاه او معاها..

فاهمني يا (مجد)؟! . فاهمني ولا لأ ..

- مش قوي .. بس أنت كلامك حلو قوي يا (رمزي) .. أنا أول مرة أتكلم معاك ..

بدأت دموعه تهدأ.. فاحتضنته ..

- إوعى تكشر ولا تعيط.. حتى لو كنت زعلان.. ما حدش عارف مين ممكن يعشقك ويقع في هواك بسبب ابتسامتك.. وإذا كنت إنت حاسس إن إنت مجرد فرد واحد مش مهم في العالم.. فممكن جدًا إنك تكون العالم كله لفرد واحد.. وده مهم ..

- بس (شيماء) ...

- (شيماء)؟!! بقى الست شيماء دي هي المشكلة بتاعتك؟!!

أومأ برأسه..

- وهي اللي خلتك تسكر وتتغير وتبقى عامل زي المدمنين اللي بنشوفهم في الشوارع..

أومأ ثانية ..

- إزاي؟!! إزاي الحب يهدمك بدل ما يبنيك.. إزاي يخليك أوحش؟!!

- الخيانة يا (رمزي).. الخيانة صعبة أوي..

- موافق.. بس من إمتى الخيانة سبب البُكا.. إزاي تبكي بسبب واحدة بتقول إنها خانت ..

- أنا مش باقول.. هي خانتني فعلاً..

- احكي لي..

- سابتني وصاحبت (مصطفى).. أعز أصحابي..

- اسمعني..

- علشان هو أروش.. وأغنى.. ومعاه عربية.. وبيقدر يصرف عليها كويس لما يخرجوا..

ضحكت.. أجل ضحكت.. فأبدى (مجد) الغضب، وسألني في حدة:

- ممكن أعرف إيه اللي بيضحكك دلوقتي؟!

من بين الضحك اعتذرت ..

- والله مش قصدي يا (مجد) .. بس كلامك ده فكرني بنكتة الواد اللي بيقول لحبيبته.. يا حبيبتي أنا معنديش عربية

زي (مصطفى) ولا يخت زي (مصطفى).. ولا أبويا مليونير زي (مصطفى).. بس بحبك أوي.. راحت قالت له....

- وأنا كمان يا حبيبي.. بس كلمني أكتر عن صاحبك (مصطفى) ..

وضحك (مجد)، وضحكت معه، بعد أن أكمل هو النكتة.. أخذنا نضحك، ونضحك، ونضحك.. حتى كدنا نسقط على ظهورنا من الضحك.

- أيوه كده يا راجل.. خليك (مجد) بتاع زمان.. اضحك دي الدنيا بقت وحشة أوي.. وإنت لسّه صغيّر.. وفيه مليون واحدة أحسن من (شيماء) بتاعتك دي..

أطرق في الأرض وقال..

- بس أنا بحبها فعلاً يا (رمزي).. ومش قادر أتخيلها مع حد غير..

- بس دي بياعة يا (مجد) .. فاهم يعني إيه .. بكره لما تلاقي واحد أغنى من (مصطفى).. ولا عربيته أحسن من عربية (مصطفى) ها تسيبه..

- عندك حق.. بس..

- ولا بس ولا حاجة.. ده إنت قلقتني عليك أوي يا مجد..

- ليه؟!

- كنت خايف تكون ضعت من إيدينا زي باقي اللي ضاعوا والحاجات التانية الحلوة اللي برضه ضاعت وما بقيناش لا قينها ولا حتى فاكرينها ..

- ما تخافش عليّا يا دكتور.. أنا كنت منفسن حبّتين.. ودلوقت بقيت كويّس..

ابتسمت.. فربّت على ظهري في حنان..

أحسست بقشعريرة تسري في جسدي، تبدأ من الموضع حيث ربت عليّ بيده.. لقد كنت خائفًا حقًا.. وأخذت أتساءل بيني وبين نفسي، بينما وقف هو يهم بفتح المفتاح قائلاً:

- أنا هافتح الباب لحسن يفتكروا إننا بنتفرج على حاجة سيكو سيكو ولا كده ..

ابتسمت ثانية في سعادة.. وتابعت التساؤل.. أين ذهب الحب بين شباب هذه الأيام؟!! لماذا صار الحب عيبًا، ومؤذيًا إلى هذا الحد؟! ولماذا صار الشباب رخوًا ضعيفًا هكذا.. سهل جدًا ينكسر.. وأن يضيع.. لقد صرنا واهنين للغاية، لا نتحمل عاصفة صغيرة، كزوبعة في فنجان..

فلتلطف بنا يا الله.. فالزمن القادم يبدو أصعب وأصعب.. إنه زمن الاحتلال.. أجل .. نحن الآن نحيا في أحكام عرفية ابتدعناها لأنفسنا، نعاني القهر من الآخرين، ونمارسه عليهم أيضًا.. وإن لم نجد من يقهرنا، فإننا نقهر أنفسنا.. نستسلم، ونسلم راياتنا لأتفه الأشياء.. كلنا يكره ما حوله، لأننا لا نجد الحب فيما حولنا، أو فيمن حولنا. أين ذهبت الرقة.. أين ذهب الهمس.. أين ذهبت الزهور الجميلة، وهواء النيل العليل؟!

بل أين ذهب الابتسام في وجوه الآخرين؟.. أين ذهب الصبية الذين يساعدون كبار السن على عبور الطريق؟.. أين ذهبت كلمة "آسف" حينما نخطئ في حق الآخرين؟.. أين ذهب اللمس الرقيق؟!

كل شيء حولنا مادي بطريقة خانقة، وغير منطقية. لقد ولى الجمال وذهب.. وجاء الاحتلال..

دون احتلال ..

***

(فرق الحرس الجمهوري تتصدى لقصف أمريكي .. الصحاف يتهم الأمريكيين باستخدام قنابل انشطارية في قصف ديالى ..)

***

أيها الواقفون على حافة المذبحة ..

أشهروا الأسلحة !!

سقط الموت ..

وانفرط القلب كالمسبحة ..

والدم انساب فوق الوشاح ..

المنازل أضرحة ..

والزنازن أضرحة ..

والمدى .. أضرحة ..

فارفعوا الأسلحة ..

واتبعوني !

أنا ندم الغد والبارحة ..

رايتي : عظمتان .. وجمجمة ..

وشعاري :

الصباح ..

– الإصحاح الأول –

(أغنية الكعكة الحجرية)

– أمل دنقل –

جاء الصباح ..

ومعه الرغبة في رؤية ما حدث لوالدة (أمجد).. يقولون (نو نيوز إز جود نيوز).. حينما لا توجد أخبار، فهذا معناه أخبار جيدة .. أظن أن هذا المثل ينطبق تمامًا على حالتنا تلك. فعدم وجود أخبار يعني أنها لا زالت حية، ولو تحت رحمة جهاز عملاق، يتنفس عوضًا عنها، وأنابيب وخراطيم كل وسيلتها أن تنقل داخل جسدها فتاتًا من فتات الحياة..

وأنا في السيارة ..

جاءني اتصال تليفوني من (ماهر).. أتذكرونه.. إنه صديقي المعار لإحدى الدول الشقيقة، والذى ترك أمه وحيدة من أجل حفنة من النقود، ولا نستطيع مع ذلك أن نلومه.. ولا حتى أمه، التي لا تفكر إلا في كونها ستموت وأولادها بعيدون كل البعد عن حضنها.. ولكن سيدتي العزيزة، والدة صديقي العزيز.. ومن منا هذه الأيام يضمن الموت في أحضان من يحب، أو قريبًا مما يحب؟ الموت الآن يأتيك بغتة، لا يمكنك أن تختار طريقة، أو مكان، أو وسيلة لموتك.. الموت الآن يأتيك في الطعام، ومن الهواء، وفي مياه الشرب، وفي ضغوط الحياة، والآمال المكسورة، والقهر الذي نرزح تحت وطأته.. الموت الآن يأتيك من شاشات التليفزيون، وصفحات الجرائد،

ومحطات الإذاعة، وفي الشوارع، وميادين القتال، وحتى داخل البيوت الآمنة.. يقولون إنه.. كلا.. سحقًا لما يقولون.

المهم إن (ماهر) الآن في مصر.. لقد عاد. هو الآخر في إجازة مفتوحة، لكي نشاهد احتلال العراق من بين أحضان مَنْ نحب، أو قريبًا مما نحب. مع بدء العدوان يقولون إنهم قد أعلنوا حالة الطوارئ في مصر.. كما لو كانت حالة الطوارئ في مصر تحتاج لإعلان.. كما لو أنها ليست معلنة طوال الوقت، ونحياها طوال الوقت، ونعاني منها طوال الوقت.. المرافق مستعدة.. لا أعرف ما هي المرافق المستعدة؟! تأثيرات غير مباشرة على العمالة، ولجنة إجلاء في المطار لنقل المصريين، المَوانئ جاهزة لاستقبال العائدين، وفي السويس مركز إغاثة لإدارة الأزمة ..

عودوا يا أبناء.. أمكم مصر قد فتحت أذرعها لكم..

ترى كيف يكون شكل (ماهر) الآن؟!

توقفت بالسيارة بغتة.. كالموت. وأخذت أرقب ما يحدث أمامي.. عسكري المرور، الذي لا علاقة له بإشارات المرور الضوئية، فنحن في بلادنا، ليس لدينا إشارات مرور ضوئية، لأننا لن نلتزم بها.. أوقف السيارات بغتة.. كالموت..

سائق ملاكي - متهور - قرر الالتزام بإشارة عسكري المرور، ممثل السلطة، والقوة اللازمة لحفظ الأمن، والنظام،

والسلامة لنا، ولأجيال من بعدنا، فاصطدم به من الخلف، وبمنتهى الرفق، سائق أجرة شاب..

لو أننا فقط نبتسم.. ونعتذر؟!!

ولكنه لم يحدث.. سائق الملاكي، يبدو عليه أنه رجل محترم، يرتدي البذلة الكاملة، ورباط عنق أظنها غير ملائمة للون البذلة، اشتبك معه وفي عنف.. سائق الأجرة الشاب، الذي يرتدي قميصًا كالحًا يخرج من بنطلونه الچينز، ويرتدي فردتي شبشب غير متشابهين..

انصرف عنهما العسكري، وبدأ يشرب من زجاجة ماء قذرة ،كانت تموء بجوارها قطة مشّردة، من قطط الطريق.. تركهما يتوصلان بالمفاوضات، لكنه المخطئ ومن ثمّ معاقبته.. من المفترض أن هذين الشخصين في بداية يومهما.. لقد كانا نائمين، مستريحين، هادئي البال منذ قليل.. وهذا هو الصباح الجميل لهما!..

كانا يتحدثان في ذات الوقت، ويتبادلان السباب، ويزعقان في تناغم، كأنهما في جوقة غنائية..

إنهما يعيشان على الحافة.. حافة الانهيار.. جهازهما العصبي على وضع الاستعداد الأحمر، جاهز للانطلاق طوال الوقت،

وسنجدهما كذلك مع عائلتيهما، وأصدقائهما، وزملائهما، وأثناء مشاهدة كرة القدم على المقاهي أوعلى شاشات التليفزيون بالمنازل. بالأمس كانوا يسبّون صدام، واليوم چورچ بوش، وغدًا سيسبانهما معًا.

ابتسمت.. فقط شاهدت شجارهما، وابتسمت..

في مرارة..

***

(انفجارات ضخمة تهز قلب بغداد ليلة أمس والعراقيون يكبّدون القوات الغازية خسائر فادحة)

(أمريكا ترسل (١٢٠) ألف جندي تعزيزات إلى ميدان القتال، لمواجهة المقاومة العراقية الضارية.. قائد القوات البرية الأمريكية يؤكد أن جنوده يواجهون عدوًا غير الذي تدربوا على قتاله قبل الحرب)

***

لا زال الحال كما هو عليه ..

أم (أمجد) .. أختا (أمجد) .. (أمجد) ..

كأنها صورة فوتوغرافية ثنائية الأبعاد..

لا عمق.. لا زمن.. الحياة تفتقد بُعدين من أبعادها..

المظاهرات المخرّبة – كالعادة – على أشدها بالخارج..

الملصقات المناوئة شوهت الجدران، والطرقات بالداخل.. لم يكن لدي شيء آخر أفعله.. كنت مرهقًا جدًا، وأريد أن أنام.

تجاهلت رنات (مني) و(فيروز) و(ماهر) ورقمين آخرين أجهلهما.. عدت سريعًا للمترل..

ما أن دخلت، حتى فوجئت بأبي، وقد شمر ساقي بنطلون بيچامته حتى الركبتين، وأمسك بفرشاة لتنظيف الستائر، ووقف على سلم لدينا، وهو يمارس مهام التنظيف.. نصف سيجارة في فمه.. سيجارة خلف أذنه اليسرى، ونصف كوب شاي في يده الأخرى.. التليفزيون مُشغل.. الراديو مُشغل.. وهو يُغني.

ارتبك لوهلة عندما رآني..

– إنت إيه .. رحت ف إيه وجيت ف إيه؟!

نظرت له في دهشة بالغة من فوق لتحت، وأجبته..

– أنا ما كانش عندي شُغل أصلاً.. أنا بس كنت رايح أطمّن على أم واحد صاحبي في الرعاية المركزة..

– ماشي يا بني .. ربنا معاك ..

– أمّال ماما فين ..

- راحت تشتري شوية حاجات لقيت نفسي زهقان وواضح أن الستاير ما كانش فيه حد بينضفها علشان ما كانش بيجيلكو ضيوف وأنا مش موجود.. قلت يعني.. أساعد شوية.. بدل ما أنا كده قاعد.. لا شغله ولا مشغلة ..

ابتسمت في لا مبالاة.. تركته ودخلت غرفتي.. كان (مجد) لا يزال نائمًا.. غيّرت ملابسي، وألقيت بنفسي على الفراش، إلا إنني لم أستطع النوم.. فقط أخذت أتأمل السقف في بلاهة.

أين هو النوم الذي كنت أرجوه منذ قليل؟!! لا أدري.. أظنني أحس بالقلق.. ولكن لماذا؟! لا أدري.. قدرّت أني لم أطالع بريدي الإليكتروني منذ فترة .. لا بد أنه صار صاخبًا مليئًا بالأحداث..

***

((قتل أحد الجنود الأمريكيين نمر بنغالي نادر في حديقة الحيوان ببغداد، بعد أن نهش النمر ذراع زميله .. وتوالت ردود الفعل على الخبر ..

فأعلن كولن باول إن الجنود كانوا في مهمة رسمية في حديقة الحيوان، للبحث عن أسلحة الدمار الشامل..

وأعلن العقيد القذافي إن الجماهيرية مستعدة لدفع التعويضات المناسبة لذراع الجندي، وكافة أعضاء جسمه إن لزم الأمر..

توعد الرئيس الأمريكي چورچ بوش بالقصاص من كل النمور في الغابات الأفريقية والأسيوية، وحذر قائلاً إن الولايات المتحدة لن تقف معضوضة الأيدي..

أعلنت السعودية إنه لا توجد نمور داخل أراضي المملكة، وأن النمور لا تعيش في الصحراء، ولكنها ستحقق إذا ما كان هناك نمور قد دخلت للعمل في المملكة بڤيزا قرود.. بينما أذاعت قناة الجزيرة شريطًا مسجلاً للشيخ بن لادن، يهدد فيه بالثأر للنمر الشهيد ..

بكت الممثلة الفرنسية برچيت باردو على مقتل النمر، مؤكدة أنه حيوان رقيق.. بينما صرح وزير خارجية قطر إنه على استعداد لمنح الجندي، الذي فقد ذراعه الجنسية القطرية، شريطة انضمامه لمنتخب كرة اليد القطري.. واعلنت كونداليزا رايس بأنها ستقوم بزيارة خاطفة لعد المتبقي من النمور البنغالية.. بينما أكد الرئيس بشار الأسد في برقية مواساة أنه أسد والأسود لا تحب النمور .. صرحت مصر بأن النمور المصرية نباتية، لا تأكل اللحوم بسبب وضع الجنيه المصري.. أعلنت الكويت الحداد على ذراع الجندي المبتورة ونكست الأعلام.. بينما صرحت الحكومة الأسبانية استعدادها للقبض على أي نمر بتهمة التخابر مع القاعدة .. أشاد صدام حسين

بشجاعة النمر.. ودعا كل النمور والقرود والأسود للمقاومة حتى النصر..

طالب رامسفيلد بنقل كل النمور الأسيوية والأفريقية إلى غابات جوانتانامو، لحمايتها من الانقراض ..

أعلن الرئيس عرفات .. بأن النمر المذكور ..

شهيد .. شهيد .. شهيد ..))

رسالة أخرى تطالبنا، وتجار الأطعمة، والأشربة، وتجار السيارات، ومستأجريها أن نقتدي بثمامة بن أثال وأبي بصير رضى الله عنهما، الذين قاطعا التجار المشركين وتجارتهم .. إمضاء الشيوخ العراقيين الركع، والأطفال الرُضّع، والنساء الفُجّع..

ثم مجموعة لصور الأسرى، مرتدين الرداء الأحمر، مكممين، معصوبي الأعين، راكعين.. وأخرى وقد غطت رؤوسهم بأجولة سوداء، وجلسوا على الأرض مقيدي الأذرع والأرجل في منتهى المذلة.. وأخرى بملابسهم الداخلية، ورؤوسهم مغطاة بما يشبه الأكياس السوداء، ومربوطين إلى الحائط.. صور بشعة للغاية..

ثم صور أخرى تمزق نياط القلوب، لطفل عراقي باكٍ مشوه الوجه، وقد فقئت إحدى عينيه، على خلفية الصورة تفجيرات ليلية لمدينة بغداد بالقنابل والصواريخ الأمريكية ..

أحسست تقلصًا في معدتي.. لا أستطيع أن أطالع أكثر.. حسبي الله ونعم الوكيل.. لا أستطيع أن أرى أكثر من ذلك. أحس ضيقًا شديدًا واختناقًا، وأرغب في أن أغمض عينيّ وأفتحهما، لأجد كل شيء لم يكن.. أو أجدني.. لم أولد أصلاً.. على الأقل في هذه الدنيا.

ومع كل.. لم أستطع أن أرفع عيني عن صورة الطفل العراقي المشوه .. حتى إن الأمر اختلط عليّ.. أترى الصورة قد انطبعت في مخيلتي، فلا زلت أظنني أراها، أم تُراني لا زلت مسّمرًا أمام الشاشة الحمقاء للجهاز الأخرق، الذي جلب لي مثل هذه التعاسة؟!!

أريد الآن أن أنام.. هذا إذا جاءني النوم.. أو أن يحدث في حياتي شيء جديد، لأدرك به أنها تستحق العيش لها.. ولكن ما الذي يمكن أن يحدث؟! ما هو المتاح؟! ما هو المتوقع؟! وما هو الممكن؟!!

دخل عليّ والدي.. ربت على كتفي في حنو..

- مالك يا بني ..

- مش عارف يا بابا.. نفسي أعرف.. نفسي أفهم..

- كل حاجة واضحة وباينة ومفهومة.. إنت محيّر نفسك ليه؟!

- محيّر نفسي ليه؟! عاجبك اللي بيحصل.. بجد فاهمه وواضح وباين قُدّامك..

- يا بني إحنا نستاهل كل ده وأكتر..

- اشمعنى إحنا.. ليه بس إحنا بس؟!

- علشان حاجات كتير.. علشان الذمم عندنا خربانة ونفوسنا فسدانة والدين بننفذه مظاهر بس مش تصرفات وأخلاق.. علشان إحنا بنظلم بعض.. وبنفتري على بعض وكسلانين وطماعين وبنسرق بعض وبناكل بعض ومش بنخاف على بعض.. علشان كده لازم يجرالنا اللي بيحصل ده وأكتر منه شويتين..

أعجبني ما قاله أبي كثيرًا .. مما أثار دهشتي لموقفه السابق:

- أمال ليه كنت بتتكلم عن الموضوع بالطريقة الغريبة اللي كنت بتتكلم بيها أول ما جيت؟

- علشان عايز أعيش.. وعايزكم تعيشوا..

– ما حنا لما نطاطي نموت.. مش نعيش..

– ده مش دوري.. أنا لازم أطاطي.. علشانكم لازم أطاطي.. علشانك يادكتور وعلشان الواد (مجد) يتخرج من الجامعة والبت (جميلة) تاخد دروسها.. علشان أأمن مستقبلكم..

– مستقبل إيه يا بابا.. إذا كان المستقبل إن إحنا نبقى خدامين للأمريكان واليهود وكل الدنيا.. إن إحنا نعيش مذلولين عيشة الموت أهون وأكرم منها لأي واحد بيحس ..

– غلط يا بني.. غلط.. بكره لما تتجوز ويبقى عندك عيلة وعيال هتفهم..

ران علينا صمت كئيب، فغمغمت..

– جايز .. الله أعلم..

قام أبي، وربت على كتفي ثانية..

– ربنا يهديك يا (رمزي) يا بني .. ويرزقك ببنت الحلال اللي تهدِّي سرك وتمتعك وتهديك الذرية الصالحة اللي تفرحك وتسعد أيامك ..

– شكرًا يا بابا .. ربّنا يخليك ..

وقمت محتضنًا إياه، وقد بدأ يصلني إحساسه كاملاً غير منقوص. الآن أصبحت ألومه أقل، وأفهمه أكثر، وأحبه أكثر وأكثر.. لا يوجد وجه واحد للأشياء، وعلينا تحمل الفهم، وعدم قدرتنا على الفهم أيضًا.. علينا قبول الأشياء، وضدها.. وعلينا أن نسمع الآخرين، وإن اختلفوا معنا ..

فقد تكون وجهات نظرهم أنسب لهم، ولحياتهم..

وربما لحياتنا أيضًا ..

بالطبع لم أستطع النوم..

أحسست رغبة عارمة في التدخين، ولكني تذكرت أن والدي بالخارج، فاستشعرت حرجًا في أن أدخن أثناء وجوده.. وبالرغم من إني قد مللت من أخبار الاحتلال الأمريكي للعراق، إلا إنني لم أمنع نفسي من قراءة مقال في الجريدة اليومية – التي أحضرها أبي أثناء وجودى بالخارج – عنوانها " لماذا الحرب على العراق؟ بقلم: توني بلير " .. هو ليس مقال بالمعنى المفهوم، بل أقرب إلى تصريح صحفي، أو ريبورتاج.. غريبة جدًا قدرة هذا الرجل على الكذب، ولَي الحقائق بأناقة.. نعومة فائقة في سياقة دوافع تافهة، والدفاع عن قيم لا يملكون حق الدفاع عنها، بل لا يجرؤون على الدفاع عنها أصلاً؛ لأنهم يفتقدونها!!! وفوجئت برد فعلي الغريب.. فقد ضحكت، ثم

ضربت كفًا بكف..لابد أني اعتبرتها نوع من الكوميديا السوداء..

دخل أبي للمرة الثانية.. ارتبكت، لأني لم أتوقع دخوله.. سألني في حنو..

- تحب أعملك تفطر؟

ياله من سؤال غريب.. أن يسألك والدك عن رغبتك في الإفطار.. نظرت لساعتي.. ولما وجدت أن وقت الغذاء اقترب، ولابد أن أمي ستأتي بعد قليل، و(مجد) سيستيقظ، وسيكون جائعًا، فاعتذرت له في رقة، وداريت تعجبي واستغرابي..

بالفعل، استيقظ (مجد)..

جاءت (أمي)... ثم (جميلة)..

ازدادت دهشتي أكثر أثناء مطالعتي لورقة طبية حديثة وأنا راقد على السرير.. أصوات أبي وأمي يختلفان.. يتناقشان بصوت عالٍ.. خرجت لاستجلاء الأمر، فوجدت أمي توبخه على إخراج البوفتيك من الفريزر، وهي التي اشترت فراخًا طازجة أثناء عودتها للغذاء.. ثم بدأت تلومه على التدخل في أمور البيت أكثر مما يجب.. انفعل أبي واحتد.. ألقت أمي بالأكياس النايلون أرضًا.. تدخلت (جميلة) لتهدئة الموقف،

واقترحت أن نضع الفراخ في الفريزر، ونتناول البوفتيك .. حاول (مجد) أن يكون مرحًا كعادته، فاقترح أن نأكل الاثنين فهو جائع جدًا جدًا..

زعقت أمي:

– خلّي أبوكم يطبخ لكم.. مش هو بقى شاطر قوي في شغل البيت من ساعة ما رجع ..

حذرها والدي من التمادي أكثر وأكثر في حدة.. عندها أقسمت أمي أنها لن تطبخ الغذاء !!!

لأفاجأ عندها بوالدي يغادرها على عجل، وقبل أن نلحظ أي شيء، كان قد غيّر ملابسه، فتح باب الشقة، وخرج، دون أن يغلق الباب وراءه.

أمي لم تنبس بكلمة.. نظرت لها في لوم.. الموقف لم يكن يستحق كل ذلك، وهي قد جرحته. انحدرت دمعة صامتة على خدّها.. واستها (جميلة) وهي تغادر مدخل المطبخ إلى غرفة نومها في صمت ..

لم أعرف ماذا أفعل؟!

أأدخل لأتكلم مع أمي، أم أذهب خلف أبي. ولما كنت قد قدرت أن أمي هي المخطئة، فقد ارتديت ملابسي أنا الآخر..

ونزلت إثر أبي، أملاً في أن أجده جالسًا على المقهى القريب، أو بمعنى أشمل وأعم، أحد المقاهي القريبة!!

منظر الشارع يبدو غريبًا بالنسبة لي في هذا الوقت من النهار.. ربما أصبحت غير معتاد على المشي في الشوارع.. تذكرتني قبل أن أتحول إلى مخلوق يستخدم سيارته لعبور الطريق!! لقد ازداد وزني كثيرًا مذ ذاك.. حتى إن مهمة البحث عن أبي على مقهى قريب أصابتني بضيق في التنفس!!

لم يدم بحثي طويلاً – حمدًا لله – إذ أبي سرعان ما وجدته على مقهاه المفضل.. أمامه طبق كشري، ونصف كوب من الماء.. لُمته في رقة على غضبه، وترك المترل هكذا. كان الموقف كله غريبًا للغاية، مفتعلاً للغاية، كأنه رد على حديث سابق، أو خلاف سابق. لم أعرف بالضبط ماذا قلت أو فعلت.. المهم أنه نجح.. ترك والدي نصف طبق الكشري بلا أكل.. قام معي.. وجهه مطرق في الأرض.. أحس انفعالات الدنيا كلها تعتمل داخله.. أبدأ في إدراك ما يحدث.. ثانية أدرك أن هناك صنوفًا من البشر لا تظهر دواخلها، وما يعتمل في نفوسها.. لقد اعتاد والدي دورًا معينًا في الحياة، وما صار يقدر على تغييره، أو الاعتياد على وضع آخر..

حين عدنا للمترل ..

كانت أمي قد انصاعت لاقتراح البوفتيك، والفراخ معًا.. اقترب منها والدي متوددًا.. انحنت عليه أمي في دلال.. شبح ابتسامة ألمحها على وجه (مجد)، والتماعة دمعة في عيني (جميلة)..

أما أنا ..

فقد ضربت كفًا بكف، فقد كان هذا ما ينقصني حقًا، وسط هستيريا الحياة التي أحياها.. أن يُجنّ والديّ.. أجل.. فما يحدث حولي قليل وبسيط، يحتاج لبعض من التوابل والمقبلات!!! أليس كذلك؟!!

لا داعي لأن أخبركم، فأنتم تعلمون بالطبع أنه في اللحظة التي خطرت فيها (منى) على بالي، كانت تتصل.. إنها طريقة ناجحة للغاية كما ترون.. ولكنه صار مخيفًا لي.. ربما أكثر من اللازم. جاءتني لكنتها الشامية المحببة المملوءة غنجًا ودلالاً:

- كِيفَك ؟!

ابتسمت، وكدت أتلعثم وأنا أحمد الله.. لصوتها تأثير بالغ عليّ .. كيف يملك المرء أن يتماسك أمام هذا الصوت؟! كانت هي أيضًا تتعمد أن يأتي صوتها خافتًا، عميقًا، حارًا.. أحس كل حرف كأنه تنهيدة، وكل توقف آهة.. أجبرتني على أن أعترف لها..

- وحشتيني ..

- عم تتكلم جد؟! ما بتمزح؟!

اللهفة التي ملأت كلماتها أورثتني إحساسًا بالندم.. ألم نتفق قبلاً على إبقاء الباب مغلقًا أمام المشاعر الحساسة، التي قد تتعاظم وتتحور ما بين لحظة أو أخرى.. أكان يجب أن تخونني كلمة واحدة كل هذه الخيانة.. أن يتخاذل صوتي ويأتي محمّلاً بالشوق الحقيقي الذي أحس به من مجرد كلمة ..

- ليش ساكت؟! احكي ... اتكلم .. عبر ..

ثم أردفت:

- والله ما بتعرف كيف بيسوي صوتك فيا ..

جف حلقي.. وارتبكت أكثر وأكثر.. تحشرج صوتي وأنا أغمغم

- (منى) ..

- نعم يا حبيب (منى) ..

لو أن صاعقة صدمتني الآن، لكانت أخف وطأة عليّ .. أحس أحشائي تتقلص، وألمًا شديدًا في صدري.. كانت أقصى كلمة قالتها (منى) من قبل هي " اشتقتلك " .. الآن أصبحت

"حبيب مني" .. الكلمة كبيرة للغاية، ولها معان كثيرة .. تساءلت ..

- حبيب (مني)؟!!

ارتبكت وتلعثمت بدورها وقالت ..

- (رمزي) .. أنا آسفة .. بجد اعذرني .. سامحني .. ما كان قصدي .. غصب عني .. اعذرني ..

- إنتِ عارفة إن الكلمة دي .. معناها كبير أوي ..

امتلأ صوتها بالبهجة:

- فعلاً؟!!

- (مني) إحنا سبق واتفقنا .. ما تفهمينيش غلط ..

- والله باعرف .. سامحني .. زلة لسان ..

- مش مهم زلة لسان ولا لأ .. المهم إنت تقصدي الكلمة ولا مجرد تعبير والكلمة فلتت منك؟!

صمتت ولم ترد ... كم أنا لحوح وسخيف ..

- (مني)؟! إنت بتحبيني؟!

- .... (لم ترد) ..

– مش حاسة إن علاقتنا لسه بدري أوي على ماتقدري إنك تحسي بالشكل ده..

– .... (ثانية .. لم ترد) ...

– إنت ما بترديش ليه؟

جاء صوتها تخنقه الدموع ..

– أنا أسفة يا (رمزي) .. سامحني .. بس لازم أقفل معاك دا الحين ..

– (منى)؟!!!

جاءني فقط صوت بكائها .. وأغلقت المكالمة.. صداع رهيب يبدأ يكتنفني.. ما الذي فعلته لهذه التعسة.. لماذا أنا مصرّ على جلب البؤس لمن حولي هكذا؟! لماذا لا أخبرها أني أحب (فيروز) .. لماذا دائمًا لا أقدر على مواجهتها حتى تكف.. ما كنت أخشاه قد حدث.. والطفل الذي ما كنت أرغبه قد ولد.. ارتكبت خطيئتي وتركتها.. بترددي.. وحمقي.. الذكر الأعمى داخلي أبى أن يرفض اقتراب هذه الأنثى المبهرة منه.. غرور وصلف بالغين.. هل صحيح أني ظننت حين أخبرتها أن تكف عن الإعجاب بي للسبب الواهي الأخرق الذي قدمته لها – فارق السن!!! – أنها أطاعت والتزمت؟.. لماذا لم أخبرها بوجود امرأة أخرى .. لماذا؟! ولماذا لم أستطع أن أفعل ذلك الآن بدلاً من محاولتي المكشوفة لانتزاع اعتراف صريح منها

بحي.. ألم يكن هذا ما أسعى له فعلاً.. كم أنا بغيض وكريه.. هل يعني ذلك أنني غير مقتنع بـــ(فيروز)؟! أنها ليست ما أطمح.. الحقيقة المروعة تصدمني.. جزء مني يؤكد وفاتي إذا ما اختفت (فيروز) من حياتي، والجزء الأخر يتساءل عن سيناريو النهاية.. الغد؟! أجل.. الغد.. تلك الكلمة الصغيرة الحروف، كبيرة الهم والشجون.. الشيء الذي نكره أن نفكر فيه، ويقتلنا القلق منه وعليه.. ما هو الغد بالنسبة لي ولـــ(فيروز)؟! هل ظننت — فعلاً – أنه بوسعي أخذها إلى تلك الجزيرة حيث نعيش وحدنا؟!! هل سأستطيع أن أجد لنا مكانًا في هذا العالم؟! ما الذي سأقوله لأبي وأمي؟! وإخوتي؟! الآن أدرك أنني ضعيف للغاية.. ومريض جدًا.. طعنات خناجر أحسها داخلي الآن.. رغبة في القيء.. ضربات قلبي سريعة جدًا، وأظنها غير منتظمة.. التنميل يشمل أطرافي .. كأني موشك على الإصابه بجلطة في المخ، أو شيء من هذا القبيل.. أحس بالقهر وقلة الحيلة.. ما الذي فعلته بنفسي وبمن حولي.. أنا الذي كنت دومًا أحس أن الله قد خلقني لحكمة ما.. أن أشفى النفوس قبل الأبدان.. أن أملأ الحيّز الذي أملأه من الفراغ في الدنيا بالحب وعمل الخير.. أن أكون أنسانًا مثاليًا يفهم الأشياء، ويحللها، ويجد لها حلاً، وينفذه !! سؤال واحد.. هل أحب (فيروز) فعلاً؟! ولماذا؟! وكيف؟! وهل أستطيع أن أكمل معها مشوار حياتي.. أو ما تبقى منها على الأقل؟!.. السؤال التالي.. هل سأستطيع أن أستغني عنها وأحيا بدونها؟.. بل هل ستستطيع

ذلك هي؟! وكيف أخبرها بتراجعي؟! وإن فعلت ذلك.. هل سيكون بوسعي أن أحب (منى) عندئذ .. أم إنه في النهاية سأستقر، وأتزوج فتاة مثل (لبنى)؟! ولم لا تكون (لبنى) فعلاً؟!!

الألم في صدري يتزايد.. ووعيي ينسحب مني تدريجيًا..

أبدأ في القيء.. لكأن أمعائي على وشك الخروج من فمي..

العيادة انتهت منذ فترة طويلة، و (سماح) في منزلها، واللافتة المضيئة مكسورة مطفأة، والباب مغلق ..

لو إنني مت هاهنا ما أدرك أحد وجودي ..

أبكي في حرقة شديدة.. أحاول أن أقف.. أتعثر.. أسقط أرضًا لاهث الأنفاس، أستمسك بأي شيء.. كل شيء أمسكه يسقط معي.. أتوقف لوهلة، أتساءل عن كُنْه ما يحدث لي.. أيكون هذا هو الاحتضار.. أم آلام لولادة قرار؟!

وإذا كان هو غير قادر على اتخاذ قرار، فكيف يطلب من الآخرين أن يقرروا لأنفسهم؟.. أيكون الفرد منا قد اكتسب قدرته على عدم اتخاذ القرار أسوة ببلادنا؟.. الواحد ما هو إلا جزء من الكل، والكل خائف صامت متردد، يحيا اليوم بيومه إذا ما أبقته الظروف حيًا، ولا يعرف إن كان الغد سيأتي عليه أم لا، فيكف عن التساؤل عما سيحدث فيه!!!

ترى هل تفكر (فيروز) مثله .. هل هي الأخرى عاجزة عن اتخاذ القرار، ورؤية الغد.. أم إن الأمر بالنسبة لها مختلف. فلو إنها أحبته وتزوجته، لبدا ذلك بمثابة تحقيق أمالها، ولما بدا أي شيء عندها غريبًا مُنتقدًا.. لقد قالها (مجد) قبل الآن .. " أنا مش دوكتووور زيك ".. أحقًا يخاف من والده وأمه، أم من مظهره الاجتماعي، واللقب الضخم، الذي يسبق اسمه في كل مكان .. دكتور (رمزي) نام.. دكتور (رمزي) قام.. دكتور (رمزي) دخل الحمام!!! لو إنه الأستاذ (رمزي) المدرس، أو المحاسب، أو فني التكييف، لبدا الأمر عاديًا طبيعيًا لا غضاضة فيه.. ولكن القيامة لا تقوم مبكرًا إلا إذا كان هذا الـــ(رمزي) دكتورًا !!! فأمه حينئذ ستكون أم الدكتور، ووالده أبو الدكتور، و(مجد) أخو الدكتور، و(جميلة) أخت الدكتور، وجيرانه، وأصدقائه، وزملائه، ومرضاه، وممرضاته، وعمّاله، وحتى البقال، والمكوجي، والقهوجي .. هم أيضًا جيران، وأصدقاء، وزملاء، ومرضى، وممرضات، وعمّال، وبقال، ومكوجي، وقهوجي الدكتور.. وستظل (فيروز) أقل منه تعليمًا، وثقافة، ومستوى اجتماعي .. والدها المتوفى سيظل يُذكر أنه كان سائقًا.. ووالدها المتوفاه ستظل تُذكر على إنها ربة المترل المتواضعة، التي لم تحصل على شهادة الابتدائية يومًا.. وأن أختها ممرضة، ولها أخ أميّ بالتجنيد، والآخر معاق ذهنيًا.. هذه هي الحقيقة، التي لا يمكنني الهروب منها.. أم إنه يجب أن أنتظر أن يموت هؤلاء أيضًا، فتنقطع كل صلة لها بالآخرين،

وبالماضي والحاضر، والمستقبل، وتصير لبنة بين يدي أشكلها كيفما أردت؟.. سنقول حينئذ إن والدتها الناظرة، ووالدها الأستاذ الجامعي قد توفيا في حادث لوكربي مثلاً، وهما ذاهبين أو عائدين من أجازة لتجديد عيد زواجهما.. وبالطبع لم يكن لها أخوة أو أخوات، فهم ماتوا ولا داعي لذكرهم .. كيف ينحدر تفكيره إلى هذا الحد.. ألكَيْ تستقيم الأمور له، ولمن حوله يجب أن يختفي الآخرون من الوجود؟!! ألم أقل لكم أن وجود الآخرين مشكلة مزمنة لا حل لها سوى الجراحة.. جراحة استئصال الآخرين.. ولكن إذا كان لا يقدر على فراق (فيروز) هكذا، كما لا يستطيع أن يقترب منها كما يجب أن يكون الاقتراب.. أليس من الأفضل له حينئذ أن يموت؟.. أو على الأقل قلبه يموت.. أو عقله يموت..

إذا كان الموت سهلاً للغاية هذه الأيام ..

ومتوفر بغزارة على كل لون وبكل الأنواع ..

لماذا يبدو بعيد المنال عنه إلى هذا الحد؟!!



" وعاجز الرأي مضياع لفرصته ..

حتى إذا فات أمر .. عاتب القدر .. "



أشق في الحائط حد المطواة ..

والموت يهب من الصحف الملقاة ..

أتجزأ في المرآة ..

يصفعني وجهي المتخفي

خلف قناع النفط ..

من يجرؤ أن يضع الجرس الأول ..

في عنق القط؟!

(سرحان لا يتسلم مفاتيح القدس)

-الإصحاح الثانى-

-(أمل دنقل)-

(وزير الدفاع الأمريكي يؤكد استمرار الزحف نحو بغداد.. غارات عنيفة على بغداد فجر اليوم .. الصحاف يعلن إسقاط طائرتين أمريكيتين .. والقيادة المركزية تنفي)

(باول: الحرب ضد العراق من أجل أمن إسرائيل ومنطقة الشرق الأوسط .. سنجرد صدام من أسلحته ونساعد الإسرائيلي على التفوق ..)

(المقاومة العراقية تخوض حرب شوارع ضد القوات الأمريكية)

(بوش: قطعنا مئات الأميال .. و لم تبق أمامنا سوى مئات الأمتار)

(الأسبوع الأول من أبريل ٢٠٠٣)

***

اليوم أخطأت خطأً كبيرًا ..

كلا .. ليس أني استيقظت من النوم، رغم أحداث الليلة الماضية، وليس لأني قضيت الليل بالعيادة، ولم أرد على خمس وعشرين مكالمة، منها أربع عشر من المترل فقط.. إذ يبدو أنني أثناء غيبوبتي تلك – لن أجرؤ أن أسميها نومًا بعد الآن – قد فقدت ذاكرتي.. حتى أني الآن لا أذكر لِمَ بقيت بالعيادة بعد انتهائها، ولم أغادر .. صدقوني لا أذكر .. ليس هذا ما أخطأت فيه.. خطئي كان في رد فعلي.. أثناء مغادرتي – والوقت ظهر – لسعتني عيون الآخرين الحارقة.. أخجلتني، ولم تكن لتخجلني.. الجيران، الذين يبدو أنهم تفرغوا لمراقبتي هذه الأيام ينظرون لي شذرًا.. وأنا – بلا داع – لم أنظر لهم في عيونهم.. خضعت، وطأطأت رأسي كأني أخطأت.. ولم أدرك أني بذلك أبدأ الخطأ.. متى وكيف حدث هذا ..

أن سمحنا للآخرين أن يُملوا علينا تصرفاتنا، والمباح لنا لنفعله، والمُحرّم علينا كيلا نفعله.. ولماذا استسلمت هكذا.. لو أن معي حجابًا لوضعته أمام وجهي.. مصمصات شفاه أسمعها كأن الكون قد فُرّغ من حولي.. وغمزات عيون أراها رغم إن عيوني منهمكة في عد الشقوق الموجودة في سلم العمارة،

التي بها عيادتي.. الغمز والهمس واللمز أحسسنني بالعري أمام تلك العيون الذئبية، ذات المخالب والأنياب.. هذه العقول المريضة بالخطأ، وافتراض الخطأ، والبحث عن الخطأ، واكتشاف الخطأ، وتسمية وتعريف الخطأ .. ولكن بالطبع ليس في أنفسهم.

خطئي أني قمت بدوري كأفضل ما يكون.. دور المذنب الذليل الخاضع لإرادة المجتمع.. الخارج عن المألوف، والذي يعرف أنه خرج عن المألوف، فيلتمس العذر من الآخرين، ويعترف – دون أن يتحرك لسانه – بخروجه المزعوم هذا عن المألوف، ويعمل دومًا على تحقيق التوازن، الخاص بالبلاء والاستتار .. التوازن نفسه صحيح في منطوقه، جيد في مضمونه، خاطئ في تنفيذه وتطبيقه.

ما هو البلاء في " إذا بليتم " ..

وما هو الاستتار في " فاستتروا " ..

من الذي يضع هذه الشروط، ومن الذي يحدد المواصفات..

في بلادنا نكتشف أن ذوي البلاوي الحقة.. مستترون.. مستترون.. مستترون.. هم خلف جدران من رصاص غير منفذة لإشعاع عيوننا الحاسدة الحاقدة البغيضة.. وليست عيوننا

فقط.. بل وأيدينا، وحسابنا، وقانوننا، وكلامنا، وحتى عقولنا.. رصاص من نوع خاص.. أمنع، وآمن، وأحوط من أي معدن آخر في الكون.. ذوي البلاوي في بلادنا يعرفون أصول اللعبة، بل هناك مقولة — غير مؤكدة، ولكنها منطقية — إنهم من وضعوها، ليلعبوا من خلالها.. ذوي البلاوي لا يقابلون سوى الوجوه المسالمة المبتسمة، غير المتساءلة، غير المحاسبة، غير الكارهة.. عيون هي برد وسلام عليهم، وعلى ذويهم.. ألسنة تلهج بالشكر والثناء وكثير الدعاء..

أما أنا فأخطأت، إذ تصرفت كالمخطئين. وهي أمور لا عودة فيها.. سأظل ما حييت مذنبًا في عيون الآخرين، فأنا بالطبع كنت أدير عيادتي وكرًا للمخدرات، أو أني مدمن وأتعاطى في العيادة، أو أني كنت أقوم بعملية إجهاض غير قانونية في جنح الليل، أو أني كنت أستقبل فتاة ليل، وغادرتني مبكرًا، أو كنت أتولى بنفسي الإشراف على عملية تزييف نقود مُحكمة، عيادتي ما هي إلا الموقع الخطير، الذي يتم فيه ذلك، وبالطبع سيجدون أشرطة أو (سي ديهات) إباحية، صورتها في الخفاء لممارساتي الشنيعة مع المريضات المترددات على العيادة.

كل ذلك فعلته.. واتهمت به.. وأقررت بفعله...

لو أن انفجارًا إرهابيًا حدث اليوم في التحرير، لوجدت أفراد الأمن المركزي يجرونني جرًا من سريري بالمنزل. لقد

انتهى كل شيء.. لقد وجدوا المذنب المسئول عن كل الأذى، الذى يحدث في المجتمع.. لو إنهم فقط يكفون عن الاعتقاد أن الله قد خلقهم ليكونوا أوصياء على الآخرين، وأنهم أنبياء الله الباقون في ملكوته، ليسنّوا القوانين، ويطلقوا الأحكام، وينفذوا كلمة الله في الأرض. لو أنهم فقط يبحثون عن أدوارهم الحقيقية في الدنيا، وفى الحياة، ويتوقفون عن هذه المسرحية الهزلية.. الأزلية..

فقد طفح الكيل ..

وكفى ..

***

(القوات الأمريكية تتوغل في بغداد .. والصحاف يؤكد أن العراق لن يستسلم وسيواصل المقاومة .. معارك ضارية حول مجمع الرئاسة في وسط العاصمة .. مايرز: لم يعد هناك دفاع عراقى متماسك حول بغداد .. قوات الاحتلال تسيطر على مطار الرشيد وجسر الجمهورية الاستراتيجي ...)

***

" إلحق يا دكتور (رمزي) .. (سيد) اتقتل .. و(فيروز) بتحاول ترمي نفسها من البلكونة.. إلحقنا بسرعة.. أرجوك.."

عبر التليفون صرخت في أذني (أحلام) .. شقيقة (فيروز) الصغرى.. و(سيد) هذا هو أخوها المعاق ذهنيًا..بالطبع كل

هذا لم يهمني.. ولكنها الجملة الصاعقة.. (فيروز) تنتحر.. هل تكون هذه النهاية؟.. هل أصل متأخرًا، فأجد حبيبة قلبي، التي بت ليلتي أبحث عن حل لعلاقتي بها، قد ماتت، فتنتهي بذلك مشاكلي، التي تؤرقني، وأهرب منها أحيانًا كثيرة؟.. أهكذا يكون تدخل القدر؟.. هل هذا هو الحل الذي أريده؟.. لقد تمنيت الموت مرارًا وتكرارًا، بل وأحسه قريبًا للغاية.. هذا عن نفسي.. أما كان حريًا بي أن أفكر أن استجلاب الموت حلاً لمشاكلي، واستجداءه ليخلصني مما أنا فيه، قد يثير شهيته نحو حل آخر، وطرف آخر من أطراف المشكلة؟!!

أحس تقلصًا عنيفًا في معدتي، ولا أقدر على التنفس..

ليس هذا ما أردته ..

(فيروز) حبيبتي الجميلة الرقيقة الرائعة ..

(فيروز) التي لا ذنب لها سوى أنها وقعت ضحية جبني وترددي، فأحبتني بكل ما تملك من مشاعر بكر بريئة، لا هدف لها سوى أن تقدم نفسها، قربانًا لرضائي عنها، وسعادتي في الدنيا..

كانت الآن بضع دموع تغافلني من أجل الانحدار من عينيّ.. وكانت مغافلتها ناجحة.. إذ أنني أحس بالبلل يرعش خديّ ..

الرؤية أمام عينيّ تهتز، وأنا ممسك بعجلة القيادة، وأقود في سرعة وتهور.. تُرى هل تأتي النهاية الميلودرامية الرائعة، التي أراها دومًا في الأفلام العربية.. عجلة القيادة تختل.. الدموع تصنع حاجزًا أمام رؤية صافية أمام عينيّ.. أنحرف عن الطريق الرئيسي في سرعة جنونية.. الوقت متأخر والدنيا مظلمة.. تصدمني الأضواء المبهرة اللامعة من الجانب الآخر من الطريق.. ثم تظهر المقطورة الكبيرة، التي يقودها سائق مخمور ومخدر.. ثم..

ينتهي كل شيء ..

وفي اليوم التالي.. يمر السائقون ببقايا سيارتي، التي صارت حطامًا بلا معالم، فيمصمصون شفاهم، ويبدون كما لو كانوا يتخذون من حادثته العظة والعبرة.. ولكنهم لا يفعلون ..

إلا إن القدر لم يكن يهزل لهذه الدرجة..

فالجو صحو، والدنيا مضيئة، ولازال للنهار بقية.. عجلة القيادة لم تختل.. ثم إنني وصلت حيث تسكن (فيروز) بالفعل!!

من موقعي بالشارع نظرت للأعلى، لأجد نصف (فيروز) الأعلى متدليًا من الشرفة، تشدها (أحلام)، ووالد (فيروز) على ما أعتقد.. لا.. والدها متوفى.. وهذا الشخص يشبهه.. إذًا هو عمها.. وما أن وقعت عيناها عليّ حتى لوحت.. أصابني الذعر

من أن يختل توازنها في هذه التلويحة.. أشرت لها في رجاء أن تتراجع قليلاً.. هتفت من الأعلى..

- إزيك يا (سيد).. إزيك يا حبيبي.. إنت جيت.. ما تتعبش نفسك وتطلع السلم.. أنا نازلة لك..

كنت الآن أبكي فعلاً ..

بكاء لا مراء فيه ولا تزوير ..

بكاءً حقيقيًا ساخنًا مرًّا يمزق أحشائي تمزيقًا ..

عروق وجهي نافرة، وشعري مشعث، واللعاب يتساقط من شفتي.. حين وصلت باب الشقة وجدته مفتوحًا، ولم يكن الموقف ليتحمل أصول اللياقة والتهذيب، إذ قفزت مباشرة إلى الداخل، وفي خطوتين على الأكثر كنت أجذب الجسد البض الرائع، المملوء بالحيوية، والذي لطالما احتويته بين ذراعي إلى حيث الأمان. (فيروز) تقاوم في عنف رهيب.. العم يجذب بلا انفعال.. (أحلام) على شفا الانهيار.. جذبة أخرى.. ونجحنا في إعادة (فيروز) عن حافة الشرفة.. فانهارت بيننا أرضًا، وانخرطت هي الأخرى في البكاء ..

من بين بكائها ..

– إنت رحت فين يا (سيد).. أنا مش قلت لك ما تروحش بعيد لوحدك.. تعالى يا (سيد).. يالا تعالى بقى.. الوقت اتأخر والغدا هايبرد.. يالا يا (سيد) يا حبيبي..

نفض العم عنه بقايا (فيروز) كأنها كانت حشرة ما مثلاً، وهو يغمغم:

– كويس يا دكتور اللي لحقتنا .. والله البت دي مش ناوية تجيبها لبر.. ياريتها كانت عملتها وخلصنا.. الواحد بس بيخاف من ربنا..

نظرت له شذرًا، وأنا أربت بروحي على حبيبة قلبي المنفطرة بكاءً الآن، ولم أرد.. جلس على كرسي بالجوار، أخرج علبة سجائره، وعزم عليّ ببرود.. كدت آخذ منه العلبة، وأطوحها من الشرفة خلفي.. إلا أني آثرت عدم الانفعال.. سحب نفسًا، وبدأ يسألني، كما لو كنت صديقًا له على المقهى، وبيننا أكواب الشاي، ودور من أدوار الطاولة اللذيذة..

– إلا يا دكتور ما تخدوهاش عندكوا البت دي تتحجز في السرايا .. مش المفروض كده..

الآن أدرك أن جريمة ما سترتكب خلال وقت قصير.. وقبل أن أرد عليه، جاءه صوت (أحلام) المبحوح من أثر البكاء..

- إن شاء الله إنت ومراتك.. دي (فيروز) أعقل منك ومن كل عيلتك.. أنا اللي غلطانة اللي كلمتك.. إتفضل يالا.. متشكرين أوي.. مش عاوزين النهاردة..

لطمها العم على وجهها لطمة خلعت قلبي، وأعادتني لحيز التفكير وهو يصرخ ..

- اخرسي يا بنت الـــ(...) .. يا (...) إنت وأختك .. الحق عليا اللي عبّرتكوا .. مش كفاية بلاويكوا اللي على كل لسان وف كل حتة ..

ثم التفت لي ..

- يرضيك كده برضه يا دكتور؟! يرضيك قلة الرباية دي واللسان الطويل؟! بالذمة مش البت دي مجنونة ومحتاجة السرايا الصفرا؟!!

أيهما أفضل؟ أن أنقض عليه فأخنقه، أم ألكمه في ذقنه، فأجعله يبتلع سيجارته المتدلية من فمه الكريه؟!!!

إلا إنني حاولت التماسك حتى الرمق الأخير.. وجسد (فيروز) أحسه جواري ينتفض.. ونظراتها ذاهلة، متجهة نحو نقطة في الأفق لا معنى لها.. تبحث عن عزيز فقدته، وتشكو

أيامًا صارت لا تستحق العيش فيها.. ضغطت على نفسي حتى النهاية ..

- لا يا حاج.. مش مجنونة ولا حاجة.. دي بس أعصابها تعبانه شويه من الصدمة اللي أخدتها وهاتبقى كويسة ..

التفت نحو (أحلام)، التي كانت تتشبث بأختها كما يتشبث الرضيع بأمه.. وبخّ في وجهها ..

- مش تقومي كده يا بت يا بنت الـــ(..) تعملي للدكتور شاي كده ولا قهوة.. مش كفاية بهدلناه وجبناه على ملا وشه؟!!

أومأت برأسي لها أنْ لا، ردًا على نظرتها المتسائلة، التي رمقتني بها فيما يشبه الاستغاثة ..

- متشكر أوي يا (حاج) .. بس فيه دوا عايزينك تجبهولنا من الأجزخانة.. ممكن ؟!

أطفأ الرجل سيجارته، وهب من الكرسي وهو يهز رأسه ..

- بس ما يصحّش يا دكتور ..

- ما يصحّش إيه؟!

- صحيح إنت دكتور وعلى عيني وراسي .. بس مايصحّش أسيبك هنا ف الشقة مع حُرْمتين.. ولا إيه؟!

برغم غباء مقولته.. إلا إنني لم أجادله هذه المرة.. كنت قد عزمت على النزول أنا.. ولكني خشيت أن تتهيج (فيروز) ثانية من كلمة يقولها هذا العم المستفز، أو تصرف أحمق غير محسوب منه ..

– أنا هانزل أجيب الدوا يا (حاج) .. بس ممكن تسيبهم لوحدهم شوية.. إيه رأيك ما تيجي معايا؟! أهي فرصة نتعرف على بعض أكثر.. وربنا يسهل ..

– لحسن البت ترمي نفسها تاني ولا حاجة، يبقى في راجل على الأقل يلحقها.. ولا إيه؟!

لم أزد.. وضغطت كل حرف، وأنا أطلب منه فيما يشبه الأمر..

– لو سمحت تعالى معايا.. أنا عارف اللي بأقوله.. ما تخافش.. خلاص الخطر راح.. تعالى معايا زي ما بأقول لك..

الخرتيت السخيف استجاب أخيرًا.. وعلى مضض بدأ يتبعني.. حيث أحضرنا أمبول (نيورازين) من الصيدلية المجاورة.. وهو شيء جيد للغاية.. فحاليًا تبدو محاولة شراء شيء كهذا، ولو بواسطة طبيب، ضربًا من المستحيلات..

بعد أن أعطيتها الحقنة، ومع الإرهاق العصبي العنيف، رفرفت عيون الجميلة كفراشة رقيقة.. بدأت تغمغم حروفًا، وكلمات، لا تميز منها سوى اسم (سيد) أحيانًا.. ثم خضعت لنوم عميق.. تعاونت و(أحلام) على وضعها في سريرها جيدًا.. غطيتها وكم تمنيت لو تمددت بجوارها، وأحطتها بذراعي.. لو كنت قد غطيتها برموشي، وأغلقت عليها أجفاني.. وعندها سأكف عن البكاء ما بقى لي من العمر، خشية أن أهدر منها جزءً في قطرة من قطرات دموعي ..

الآن فقط أدركت أن لا حياة لي بدون هذا المخلوق البديع، النائم غير بعيد عن أصابع يدي، التى تنهشها الرغبة في أن تربت على كل شيء فيها.. كل خلاياى تلهج بالدعاء لرب رحيم أن يحفظها لي من كل شر، ويبقيها لي سببًا يبقيني على قيد الحياة..

أحبها ..

أحبها .. ولا أطيق لها فراقًا ..

وغير مستعد لخسارتها.. ليس اليوم.. ليس غدًا.. بل ليس في أي وقت كان. الآن أدركت كيف يضطر الإنسان أحيانًا أن يطأطيء رأسه، وينحني من أجل أن يعيش.. أنه ربما لم يُكتب لنا أن نحمل سلاحًا، ونذهب لنحرر الأراضى المحتلة من

بلادنا شرقًا وشمالاً وغربًا وجنوبًا .. وفي كل بقاع الأرض.. بل لربما يكفينا أن نتحرر نحن.. نحرر أنفسنا مما يعوقنا عن تنفيذ ما نصبو إليه. لم يكن أبي مخطئًا كليةَ، فهو يريد لابنه أن يكون طبيبًا، وللآخر أن يتخرج، وللأخرى أن تحصل على دروسها الخصوصية، ولهم جميعًا أن يكبروا، ويتزوجوا، وينجحوا.. وحقيقة لا يهمه عندها إن كان قد قاطع فى حياتة المنتجات الأمريكية أم لا.. سيفعل إذا استطاع.. وقدر استطاعته.. لا يهمه إن احتلت أمريكا العراق، أو أن احتلت إسرائيل فلسطين وأجزاء من سوريا ولبنان .. لا يهمه أن احتلت روسيا الشيشان، ومزق الصرب البوسنة والهرسك.. لا يهمه الأوضاع في بلادنا.. هو لا يحفل للديمقراطية، والعولمة، والنظام العالمي الجديد، وتكنولوچيا المعلومات، والخصخصة، والجات، وكل الألفاظ التي اقتحمت لغتنا، فلَوَثْها، وشوّهتها وجعلت ألسنتنا معقودة معوجّة.. لقد حدد هدفه.. وهو ينفذه بنجاح من نوع ما.. وفي أثناء ذلك هو لا يسرق، ولا يكذب، ولا يرتشي، ولا يؤجل عمله، ولا يهمل فيه، ويتمنى من الآخرين لو يحذون حذوه.. هو يعلم أنه بإمكانه أن يكون أفضل.. وإن لم يستطع تحقيق الأفضل لذاته، فهو يحاول تحقيقه من خلالنا.. أولاده.. نحن حلمه..

وهذا المخلوق النائم أمامي هو حلمي.. وسأعمل على أن أحققه.. سأواجه الزوابع والأعاصير.. سيظن العالم أني جننت.. وسيعتقدون أني أحاول أن أصلح خطأً ما، لا بد وأني ارتكبته.. هكذا سيظن الجميع.. وهكذا سيقولون ويتصرفون..

وهم بالفعل محقون..

لا بد أن أصلح خطئي..كل يوم في بُعدها خطأ.. ألاّ أتمكن من ضمها الآن إلى صدرى خطأ.. هذا المخلوق الفج، الذي يدعي مسؤليته عنها، ويستنكف منها خطأ.. ألاّ يمكنني أن أقفز الآن إلى السرير، فأجاورها وأمرّضها، بروحي، وجوارحي، وشغاف قلبي، وأنفاس صدري، ونور عيوني خطأ..

كل هذا خطأ.. وعليّ أن أصلحه ..

أيها الظانون دومًا فينا ..

لقد صدقتم !!!

***

(في اليوم الحادي والعشرين للحرب ضد العراق..

أحكمت القوات الأمريكية قبضتها على معظم أنحاء العاصمة العراقية بغداد.. نجح المواطنون العراقيون بعد جهود استمرت حوالي ساعتين في إسقاط أكبر تماثيل الرئيس صدام

حسين في بغداد، الذي كان في ساحة الفردوس بوسط العاصمة))

***

القصة بسيطة للغاية ..

(سيد) ذهب ليشتري شيئًا ما.. قابله شاب بلطجي مدمن معروف بالمنطقة منذ فترة طويلة اسمه (بكري). عندما مر (سيد) بجواره، ضربه (بكري) على قفاه. التفت (سيد) له غاضبًا، وسأله لماذا فعل ذلك، فأجابه (بكري) لأنه عبيط. دافع (سيد) عن نفسه بأنه ليس عبيطًا، بل إن (بكري) هو العبيط، وكل الناس يعلمون ذلك، فاستشاط (بكري) غضبًا، فافتعل مشاجرة مع (سيد)، الذي - رغم قصوره الذهني - كان ذا قدرات جسدية هائلة، فكان سهلاً جدًا أن يتغلب على (بكري) المدمن السكران، الذي لم يدع تلك الهزيمة النكراء تفوت دون عقاب رادع، فاستل مطواة من طيات ملابسه..

و ..

فقط هكذا ..

مات (سيد)، وأنا كدت أفقد (فيروز).. وسيظل شبح ما حدث يطاردها طالما حييت.. جثة (سيد)، التي جلبوها لها بالمترل مضرجًا في دمائه، مطعونًا ثلاثة وعشرين مرة..

هل تصدقون.. (بكري) أخذ يطعن (سيد) المعاق ذهنيًا، والذي يصاحبه الجميع، ويهدونه الحلوى والنقود والفاكهة .. ثلاث وعشرين طعنة..

واحدة.. فبدأ الدم يترف غزيرًا، وبدأت قواه تخور.. فاتبعها بالأخرى.. فالثالثة.. فالرابعة.. فالخامسة.. فالسادسة.. لا بد أن (سيد) قد مات الآن.. إلا إنه استمر سبع عشر مرة أخرى بعدها.. يطعن.. يطعن.. يطعن..

(بكري) الآن هارب..

كما كان هاربًا من سبع وثلاثين جريمة قبلها، ما بين جنح وجنايات.. وكان يمشي بين الناس غاديًا رائحًا، بجرائمه السبع وثلاثين، التي يعرفها الجميع.. كل الناس..

سيذهب الآن إلى مكان جديد ..

وسيعرفه الناس.. وبعد فترة قصيرة سيعرفون عدد جرائمه الجديد، ولكنهم سيجلسون معه على المقهى، ويسلّمون عليه إذا ما قابلوه في الطريق، وسيرضخون له، ولبلطجته، وابتزازه إذا ما اعترضهم يومًا.. ثم سيرتكب جريمة جديدة.. ثم يهرب..

هل تعلمون على وجه الدقة كم (بكري) لدينا؟!

وكم (سيدًا) قـُتل؟!!

لم يحضر أحد للعيادة اليوم ..

***

(أعلن المتحدث الرسمي العسكري ڤينسنت بروكس إن عصر الرئيس العراقي صدام حسين انتهى، وأن الحكومة العراقية لم تعد تسيطر على العاصمة بغداد)

***

طلبتني (مِنى) .. فلم أرد ..

وطلبت (فيروز) .. فلم ترد ..

وأنا راقد على سريري ليلاً ..

لم أستطع أن أنزع المنظر من مخيلتي.. تمثال صدام الضخم الرهيب.. أكبر تمثال رأيته لزعيم من قبل.. وهو يسقط مجذوبًا بالحبال القوية.. والعراقيون يتراقصون حوله، ويخلعون أحذيتهم يضربون بها التمثال..

أيهما الحقيقة ..

لقد كانوا يخافون منه، هذا صحيح، ولكنهم كانوا يحبونه أيضًا، بل ويقدسونه، ويضعونه في مصاف الآلهة.. لم تكن تلك تماثيله، بل كانت أصنامه.. وكانوا لها يتعبّدون..

أم هم خائفون الآن من الأمريكان، وينفذون تعليماتهم بحذافيرها؟.. الوجوه كلها ليست عراقية.. وهذا الوجه متى رأيته قبلاً؟.. أجل إنه يشبه ذلك الجندي الأمريكي.. أول جندي أمريكي يقتل.. والذي قالوا عنه إنه كان يتيمًا مهاجرًا.. أيُعقل أن يكون هو؟..

أيهما الحقيقة..

أكان الحب السابق كرها، أم الكره الحالي حبًا، أم هو الخوف في كل الأحوال؟.. والحب والكره وهم؟!.. الخوف هو الحقيقة إذًا؟.. هو أسمى معاني البشرية؟.. نحن المواطنون دومًا خائفون من شيء ما، وهو ما يحركنا.. نحن نعمل خوفًا من المدير، وندعي حب زوجاتنا، خوفًا من تنكيدهم علينا، وندعي حب ذوي السلطة، خوفًا من سلطاهم، وندعي الحياة، خوفًا من الموت. هذا إذًا ما يسيطر على بلادنا.. الخوف.. نحن لا نحب خوفًا من الحب، فلا نحب، ولا نسمح بالحب.. نحن نخاف من الغد، لأننا لا نعرف ماذا سيحدث فيه، ولأنه قد يحمل لنا اختلافا ما في أحد أوجه الحياة.. وهو شيء مخيف للغاية.

تذكرت موقفي مع القطة على سلم منزلنا، حين عدت متأخرًا بعد زيارة مدام (ناهد) والدة (منى) أول مرة ..

حتى أنا.. يكاد يقتلني خوفي كل مرة، فلا أكاد أحيا..

نحن نموت كل يوم، لأننا نخاف من الحياة، ومن كل شيء فيها. الخوف سيقتلنا.. إن لم يكن اليوم، فغدًا..

وغدًا لناظره قريب ..

سيأتي الخوف على أي شكل ..

أمريكي.. إسرائيلي.. بريطاني.. أسباني..

وحين يأتي.. سنخبره إننا كنا ننتظره، ونحن على أهبة الاستعداد لاستقباله.. سنفتح أذرعنا على مصراعيها، ونستسلم عند المواجهه الأولى.. نحن نخاف مما نأكل، لأنه مشع ومسمم.. نحن نخاف مما نشرب، لأنه ملوث ومؤذي.. مما نفعل، لأنه خطأ.. ومن تصرفاتنا، لأنها حمقاء.. من الشوارع، لأنها ليست آمنة.. من الآخرين، لأنهم يريدون بنا الشر.. من أنفسنا، لأنها تخدعنا.. من الحاكم، والغازي، والمحتل، والوالي.. من المدير، والرئيس، والزعيم، والكبير، والعظيم.. من الفقر، والمرض، والجوع، والرغبة، والضعف، والوهن.. من الماضي، والحاضر، والمستقبل.. أمس، واليوم، والغد..

سننتظر الموت أينما كنا.. وستنغرز أقدامنا في الأرض، فلن نتحرك، أو نتزحزح.. والموت آت قريب ..

وهو بنا عليم.. رحيم..

***

(قال دونالد رامسفيلد .. إنه مازال هناك العديد من المهام، التي لم يتم استكمالها .. مثل العثور على صدام، وأبنائه، وكبار القادة العراقيين، وتأمين عودة الأسرى الأمريكيين، والعثور على أسلحة الدمار الشامل..)

***

" بلادي وإن جارت على عزيزة ..

وأهلي وإن ضنوا عليّ .. كرام .. "

***

(إصابة ومقتل ٢٩ فلسطينيًا بـــجـــنين، في انفجار نفذته جماعة يهودية.. فيشر يبلغ عرفات تنفيذ خريطة الطريق خلال أيام ..)

***

تحسنت حالة أم (أمجد) تحسنًا طفيفًا ..

هو ليس بالخبر السعيد الذي نستحق الاحتفال من أجله .. كما إنه أيضًا ليس شيئًا سيئًا بالطبع.. بدأت تستعيد بعض من

ردود الأفعال.. لا زالت تحت تأثير الغيبوبة.. ولكننا قد نفكر في فطامها من على جهاز التنفس الصناعي، وهو لفظ طبي المقصود به ألا يعتمد المريض على جهاز التنفس الصناعي..

وبدأنا بالفعل في تنفيذ ذلك.. أرجو من الله أن ننجح، فسيكون ذلك أول علامة جيدة في حالتها السيئة..

-٧-

بعد صلاة الجمعة ..

طلبني (ماهر)، للمرة التي لا أعرفها كم.. طلب مقابلتي للتحدث في موضوع هام، فوافقته.. كان على أن أمر على (فيروز) أولاً، لأطمئن عليها، وبعدها فليحدث ما يحدث في هذه الدنيا ..

حين وصلت منزلها ..

وجدت أخاها (ممدوح) .. أخذ إذنًا من التجنيد، وجاء ليقف بجوار أختيه في محنتهم.. رحب بي في حرارة، واعتذر لي بأن (فيروز) لا زالت نائمة.. أخبرته إن ذلك أفضل لها.. عبّر لي عن قلقه، لأنها لم تأكل و لم تشرب منذ الأمس.. أخبرته إن هذا لا يهم، المهم الآن أن ترتاح، وتريح أعصابها. نظرت لي (أحلام) وابتسمت.. جميلة جدًا عندما تبتسم، لكن في الحقيقة (فيروز) أحلى كثيرًا . استأذنت (ممدوح) في أن أطل عليها، ولو للحظة، فرد ذراعيه مرحبًا.. وأخبرني أن أتفضل..

في حذر شديد فتحت الباب..

كانت الغرفة مظلمة، وكان (ممدوح) قد اشترى قفلاً معدنيًا، ووضعه على باب البلكونة، ليمنع فتحه.. في هدوء نقلت نظري نحو السرير الكائن بالغرفة، حيث الجسد المرمري الرائع راقد في هدوء، ينعم ببعض لحظات من الراحة، بعد أوقات عصيبة. تتنفس في ليونة ويسر.. شعرها متناثر حول وجهها الملائكي في غجرية مثيرة..

رائعة حقًا حتى وهي نائمة ..

تململت قليلاً وهي نائمة.. فانخلع قلبي خشية أن أكون قد أزعجتها.. تقلّبت للجهة الأخرى، وتمطت، فانزاحت الملاءة قليلاً عن ساقيها، وكشفت جزءً من فخذيها.. بياضها كان بمثابة النور في جو الغرفة المظلم.. أحسست جفافًا في حلقي من كَمّ الفتنة والإثارة التي أمامي..

ارتج جسدي كله، عندما فوجئت بـــ(أحلام) تضع يدها على كتفي.. نظرت لي في حنان وسألتني..

- كويسة .. مش كده؟!

كنت لا زلت شاردًا فأجبتها ..

- حلوة أوي ..

اغتصبت ضحكة ساخرة ..

- حلوة؟! هي إيه دي اللي حلوة؟

كالمنومين أجبتها ..

- باحبّها قوي .. قوي ..

ربتت على كتفي في حنان وطمأنتني ..

- وهي كمان بتحبك قوي .. وما بتتكلمش غير عنك ..

كان الانفعال قد استبد بي، وكلمات (أحلام) زادتني انفعالاً. تقلصت معدتي، وارتعش جسدي، وأحسست أني من البكاء قريب، فاختلست نظرة حنونة أخيرة ..

واستأذنت بالانصراف ...

عندما قابلت (ماهر)، لم أعرفه ..

لون بشرته تغيّر.. شعيرات بيضاء تخللت رأسه.. أضاف لملامحه ذقنًا وشاربًا، تشبه ذقون وشوارب الشيعة.. يضمخ نفسه بعطر مستفز الرائحة، ويرتدي ساعة ذهبية، وقميصًا حريريًا لامعًا.. اندفع فور رؤيتي، ليحتل الفراغ ما بين ذراعي. أخذ يربت على ظهري في قوة، وهو يخبرني كم افتقدني، وكم هو شاكر لرعايتي لأمه أثناء غيابه، وأنه دائمًا يستفيد من نصائحي له .. وأنني .. وأنني .. وأنني ..

ثم جاءت اللحظة الحاسمة ..

أنا و(ماهر) لا نتقابل دون سبب ..

يجب أن يطلب شيئًا.. يأخذ رأيي في شيء ما.. يوصيني بعض الأشياء.. (ماهر) يفكر في الهجرة، بل وبدأ في إجراءاتها فعلاً ..

- هجرة؟! .. هو يا بني البلاد العربية فيها هجرة؟!

- أنا مهاجر نيوزيلندا ..

- نيوزيلندا؟!! (كان الخبر مفاجئًا)

أردفت:

- تعرف إيه في نيوزيلندا؟!

رد ساخرًا:

- تعرف إيه إنت في مصر؟!

- أهلي .. ناسي .. المجتمع اللي اتربيت فيه ..

- إخواتي متجوزين والحمد لله .. وما ليش إلا أمي .. هاسبقها وأوضّب أموري وبعدين أبعت لها تيجي تعيش معايا .. وأستقر وأتجوز هناك ..

- واشمعنى نيوزيلندا يعني؟!

- هي اللي عايزة دلوقت .. ثم اشمعنى أي حتة تانية؟

تذكرت (شيماء)، زميلة (جميلة) أختي، والمهاجرة مع والدها إلى كندا.. والآن (ماهر) المهاجر إلى نيوزيلندا ..

سألته في فضول:

- والموضوع ده سهل؟

- مش سهل أوي .. بس ممكن .. هو في حاجة سهلة اليومين دول.. ربنا يسهل .. هو إيه رأيك؟!

- رأيي في إيه؟ .. ما إنت خلاص قررت وابتديت تنفذ؟

- يعني صح ولا غلط؟

- الحقيقة مش عارف ..

- أنا خلاص يا (رمزي) ما بقتش أعرف أعيش في البلد ..

كدت أن أخبره إننا جميعًا هكذا، ولكن هل يعني ذلك أن نقوم بهجرة جماعية؟.. فليترك الجميع بيوتهم، وأراضيهم، ونجعلها خواء خالية على عروشها؟!! ارتعد جسدي لمجرد الفكرة ..

- يا (رمزي) البلد هي اللي ما بقتش عايزانا.. إنت فكرك أنا سايب مصر علشان ما باحبهاش.. بالعكس أنا سايبها علشان باحبها.. علشان لو فضلت فيها هابطّل أحبها..

سكتّ و لم أرد.. ضحك (ماهر)، وأردف..

– عارف مصر دي عاملة زي إيه؟

– زى إيه؟!

– زي واحدة حلوة أوي أوي.. ملكة جمال.. بس نكدية.. طول ما إنت بعيد عنها.. طول ما إنت فاكر جمالها مشتاق لها.. لكن لو اتجوزتها يا صاحبي.. هاتنكد عليك .. وتبقى هاتموت علشان تطلقها.. أنا بأبعد يا (رمزي) لأجل ما دايمًا أفضل مقرّب.. فاهمني؟! بأبعد علشان أفضل مقرّب !!!

للمّرة الأولى يزورني في عيادتي مندوب من مصلحة الضرائب..

بالطبع حاول بأسلوب مستفز أن يخرجني عن شعوري.. تبدو محاولاته كلها ساذجة، من أجل أن يحصل على مبلغ ما على سبيل الرشوة.. سألني أسئلة تبدو كلّها من قبيل أن العيادة يزورها يوميًا عشرون مريضًا، وكل مريض يدفع كشفًا قدره كذا في ثلاثين يومًا بالشهر، فيصبح المبلغ مضحكًا للغاية.. إذ أنه يقارب بالفعل ما أجنيه من العيادة في ستة شهور، أو ربما سنة! .. ورغم إنها المرّة الأولى، التي أقابل فيها مندوب الضرائب، إلا إنني كنت أتوقع هذا النوع من الأسئلة، التي لا يفيد معها الرد بأنه لم يجد سوى مريض واحد عند مجيئه.. وكان قادمًا في استشارة !! كل هذا مقبول ومتوقع ..

إلا إن المنطقة التي طرقها في أسئلته بعد ذلك، جعلتني أتساءل كثيرًا عن سبب زيارته ..

هل أفتح العيادة صباحًا؟ هل أفتح العيادة بعد إغلاقها مساءً؟ هل أقوم بعمليات إجهاض، أو إعادة بناء غشاء البكارة، أو أشياء من هذا القبيل؟..

لا أعرف حقًا ما هو نوع الأذى الذي تسببت فيه للجيران، حتى يحاربوني بهذه الطريقة.. يبدو أن تكسير اللوحة المضيئة كان تهديدًا، لم أفطن إلى معناه..

هاهي معركة جديدة أنساق إليها دون رغبة منّي ..

هذه أيام لا عقل لها، ولا منطق فيها.. ويجب أن أصبر عليها. العيادة لا زالت جديدة، والناس لم يعرفوني حقًا بعد، وهذه منطقة شعبية، ومن السهل أن يتأثر الناس سلبًا وإيجابًا.. لا أنكر أن بعض الأيام كانت جيدة.. ولسوف تعود. ولكن يبدو أنّه عليّ أن أكف عن تحدي إرادة الجميع، ولو لوقت قليل.. فقط لو أدرك ما هي إرادة الجميع.. وهل لديهم إرادة حقًا، أم أن الأمر كله يفتقد للعقل والمنطق؟!

عند هذه اللحظة، وعند اتخاذي لهذا القرار، قررت أن أقدم للرجل أقل درجات الرشوة، وأكثرها انتشارًا ..

عينات أدوية لڤيتامينات، ومقويّات، وأشياء أخرى..

لم يعجبني ما فعلت.. ولكن يبدو أن ثمة تغيير يجب أن يحدث، إذا ما قررت الاستمرار هنا، وعدم التراجع..

لا أعرف لماذا ذكرتني كلمة "الاستمرار هنا" برغبة (ماهر) في الهجرة لـــ (نيوزيلندا) .. أظن أن مغادرتي لهذه العيادة هو نوع من أنواع الهجرة.. وأنا لم أتخذ هذا القرار بعد، وربما لا أريده.. سأحبّهم رغمًا عنهم.. وأبقى بينهم على كُره منهم.. إلى أن يعرفوني جيدًا.. وعندها سيحبونني.. ويدافعون عني.. ويدفعون عني الأذى إذا جاءني..

هم أهلي.. وجيراني ..

ولكنهم فقط .. لا يفهمون !!

طلبتني (منى) ثانية ..

وقبل أن أرد عليها، طرقت (سماح) الباب.. ضغطت الجرس الذي يسمح لها بالدخول.. أخبرتني إن هناك حالة جديدة.. فأومأت برأسي أنْ نعم، بعد التليفون.. وما أن بدأت الكلام، حتى فوجئت بأننا نعتذر كلٌّ منا للآخر. هي تعتذر عن اندفاعها وتهورها وإغراقها في الانفعال.. وأنا أعتذرت عن ذنب لم أستطع أن أضع له إطارًا أو مسمّى، فاكتفيت بسكب اعتذاراتي في إسهاب ..

أحسست برغبة شديدة في أن أتحدث معها فعلاً.. ليس لأن صوتها به غنج.. ليس لأسمع منها كلامها المعسول المغلّف بالإطراء، الذي يجعلني أتيه فخرًا بنفسي.. وليس لأني أغرق في خيالاتي عن جداول مياه جارية، ماؤها أخضر صافي.. أو شلالات من ضوء الشمس، لها لون الذهب، تنسكب على أكتاف جبل قمته شاهقة البياض!!! بل لأني أرغب في أن أتحدث مع عقليتها وشخصيتها..

سألتني ..

– شفت الأمريكان وهم عَمْ ينهبوا متحف بغداد ويخربوا الآثارات اللّي فيه .. ده فيها إشيا من أيام الآشوريين والبابليين وإشيا كتير نادرة ..

– لا أبدًا.. أصل أنا الدنيا عندي مشغولة شويتين.. وعندي شوية مشاكل..

– إنت دايمًا عندك مشاكل.. مشكلتك في نافوخك يا (رمزي).. بتسمحلي أقولّك (رمزي).. مو هيك؟!

– هيك يا أختي.. قولي براحتك.. إحنا صحاب ..

ثم أردفت:

– مشكلة إيه بقى اللي ف مخّي؟!

- عَمْ يشتغل زيادة .. وع الفاضي ..

- ع الفاضي؟!! إزاي يعني؟!

- مانّي عرفالك يا (رمزي) إيش تريد من حياتك.. عَمْ بتعسّس وتدوّر على أجوبة لكل الأسئلة.. عملت حالك قاضي ع الدنيا وما فيها وعَمْ بتفلسف كِل الإشيا وفاكر حالك لوحدك بها الدنيا كِلاّتها ..

لقد صعقتني هذه الفتاة !!!

تذكرت حماقة من ربط بين الغباء والشقراوات..

كيف استطاعت (منى) أن تعرفني بكل هذا العمق، ونحن لم نتقابل سوى عدد مرات تحصى على يد واحدة.. ومثلها مكالمات !!!

أنا عشت مع نفسي ثلاثين سنة وأكثر، ولم أفهمني بهذا الوضوح.. إذا جاز للصوت أن يشحب، فأظن صوتي أصابه الشحوب، وأنا أكاد أهمس ..

- (منى) ..

- أيوه يا صديق (منى) .. حِلوْ كِده؟!

ازدردت لعابي بصعوبة، كما أفعل دومًا كلما فاجأني غنجها..

- إنت إزاي بقيتي كده؟!

- مو فاهمانه عليك؟! إيش معنات السؤال؟!

أنا بدّي أعيش يا (رمزي) .. أوقات بحس إنّي وأهلي ووطني وإخواتي وكلاّتنا مكتوب لنا شهادات الوفاة قبل ما نتولد ..

ثم أردفت ..

- عارف إيش معنات إنك يبقى محكوم عليك إنك ميت ميت ..اليوم ولاّ غدا .. ما بتفرق .. بتعرف؟! .. كل مرة عَمْ يرن التليفون عندنا بالبيت .. بننطر فيه شي دقيقة ولاّ أكتر قبل ما حَدَا يرد عليه ..

- اسْمعني ..

- علشان بنحسب هايقولولنا أبوكوا مات .. قتلوه .. إيش يفرق أبي عن كل اللي عَمْ بيموتوا كل يوم وكل ساعة وكل دقيقة؟! ولا شيّ .. بس ما إجا الدور لسّه ..

لكأن طعنة خنجر مزقت منتصف صدري.. أنا الذي كنت أنعي حظي، لسابق قلقي على والدي، لأن لديه سكرًا وضغطًا؟! وجارتي هاهنا على الجانب الآخر من التليفون تتوقع.. بل تنتظر دومًا الأسوأ.. ليس من قبيل التشاؤم، بل هو العيش بواقعية؟!

أيكون هذا هو ما أفتقده.. العيش بواقعية؟!

وما هي الواقعية؟! أتوقعنا للأسوأ والأفظع هو الواقعية، وانتظارنا للجيد والأحسن هو العيش في الأحلام؟.. وعند بعض الآخرين .. العيش في الأوهام!..

ألا يعقل أن يكون هناك اختيارات للعيش بواقعية، فتكون هناك واقعية متفائلة، وأخرى متشائمة؟.. أم إن للأمر وجهًا واحدًا، نراه أو لا نراه؟.. هنا تكمن – فقط – قدرتنا على الاختيار ..

فكرت لوهلة فيما نحياه من أحداث، وأشخاص، وأفعال، وأفكار، وأخلاق، وقيم .. ففزعت بالنتيجة التي وصلت إليها..

– هيييه .. إيش فيك .. وين بتروح؟!

انتشلتني (منى) ثانيةً من تأمّلاتي، فتلعثمت وغمغمت بشيء ما لا أعرفه.. فاجأتني بضحكة صافية مجلجلة من الطرف الآخر.. نفضت رأسي لأتيقن مما تسمعه أذناي .. هو شيء لا تدركه إلا حين تجربة، أن تتعامل مع هذا الكائن المدعو (منى) .. ولا أنكر أنها تخيفني أحيانًا.. فأنت لا تعلم ما هو كُنه ما ستقوم به في اللحظة التالية.. وكل إنسان لا تعلم ما سيقوم به في اللحظة التالية.. يكون مخيفًا !!!

حاولت أن أعيد دفة الحوار ..

- إيه بقى يا ستي حكاية متحف بغداد ..

- ظنيت الصور وصلتك من أيّ حدا ع الإيميل تبعك ..

- ما بفتحوش ..

- ليش ؟!

- اتقرفت .. كل ما افتحه ألاقيه مليان بلاوي ومصايب وصور تقطّع القلب وتوجع البطن ..

- مو عامل حالك مصلح إجتماعي .. وداعية للحق والخير والسلام؟!

لم أرد ..

- يبقى لازم عليك تتحمل .. وتنشر هيك صور وأخبار قد ما بتقدر .. اللي بدّه يفهم .. بدّه يتحمّل .. بدّه ما ييأس .. بدّه يواصل ..

أحسست أن حماسها مبالغ فيه إلى حد ما..

(سماح) ثانية.. المريض غادر العيادة، وتسألني إن كنت لازلت أرغب في وجودها، فلم يعد هناك مرضى، والوقت تأخر، وموعد العيادة انتهى منذ فترة، فسمحت لها بالمغادرة، وأن تغلق الباب وراءها، وباب العيادة كذلك.

عاودت ما انقطع من حديث..

- حاضر يا ستي .. هافتح الإيميل لو كان ده اللي هايخليكي ترضي عنّي .. ويخليني باعمل دوري في الحياة من وجهة نظرك.. ماشي؟

ضحكت ضحكتها المجلجلة الصافية ثانية.. فأحسست قلبي يتراقص مع رنات ضحكتها..

- اعطيني الإيميل تبعك وأنا هابعتهم لك ع طول ..

- هيه ليه الصور دي مهمة أوي كده بالنسبة لك؟! ..

- لأنها مهمة يا (رمزي) .. إحنا عَمْ نتسرق يوم ورا يوم.. زمان سرقوا مننا العِلْم ونسبوه إِلْهُم.. وبعدين بدأوا يسرقوا مننا الأرض وبلادنا.. ودالحين عَمْ يسرقوا مننا الحضارة والتراث ..

- هيه دي الحكاية من زمان.. مش بس بيننا وبينهم.. ده حتى عندنا إحنا.. ده قانون غير مكتوب.. زمان كان الفرعون لما يموت.. بييجي الفرعون اللي بعده يمسح اسمه وسيرته من فوق المعابد والمسلات ويهدم كل اللي بناه من قصور أو أماكن عليها اسمه أو تدل على إنه أنجز أي إنجاز .. ونفس الناس اللي كانوا مع الفرعون القديم .. وكمان بيعبدوه.. بيتحولوا للفرعون الجديد ... يعبدوه .. ويشتموا له الفرعون اللي سبقه

ويشكوا الويل اللي كانوا شايفينه معاه .. والأيام السودا اللي كانوا عيشينها ..

- هونيك فرق كبير من هدم السيرة.. وسرقتها.. أو انك تنسبها لحالك ..

- برضه إحنا اتعودنا على كده.. كل يوم والتاني نسمع عن آثار مسروقة وبنطالب حكومات العالم أننا نستردها.. إمتى اتسرقت.. وإزاي؟! ما حدّش يعرف.. على الأقل الأمريكان بيسرقونا قدّام عينينا.. ناس محترمة صحيح !!

ضحكت هذه المرّة في مرارة .. وسألتني ..

- ليش حاسّاك يائس اليوم وما عندك أمل في شيّ ؟!

لم أظن أني كنت كذلك، ولكنني أجبتها ..

- أبدًا .. مش يأس ولا حاجة .. كل الحكاية إني مقتنع إن مش هي دي المشكلة ..

- إيش هي المشكلة؟!

- المشكلة فينا إحنا يا (منى).. المشكلة جوانا.. وأكبر بكتير من عِلْم أو أرض أو حضارة بتتسرق.. المشكلة مش في الحاجات اللي بتتسرق مننا.. المشكلة في الحاجات اللي بتضيع مننا من غير سرقة..

- إيش مَعْناته كلامك؟!

- إيه يعني الأثر ده؟! عبارة عن إيه؟! حتّة حجر ..

- حجر !!!!! إنت اللي عَمْ تقول هيك؟!!!! (كان صوتها ثائرًا مستنكرًا غاضبًا) .. هادا الحجر بتاعك ما له تمن!!!!

استأنفت بنفس الهدوء ..

- أيوه صحيح .. ما لوش تمن علشان قديم.. علشان معمول كويس.. علشان استحمل الزمن ده كله لحد ما وصل لنا.. والتمن في النهاية قيمة مادية.. ولما تقولي إن ما لوش تمن.. معناه أن تمنه غالي أوي وما حدش يقدر عليه.. بس الحقيقة مش هي دي القيمة الحقيقية ..

سكت لحظة منتظرًا لأي رد فعل.. ولما لم أجد، استأنفت..

- القيمة الحقيقية للأثر هوه الرمز بتاعه.. هو رمز لإيه؟ رمز لإيه من المعاني والأفكار والعلوم والمعرفة.. قيمته في الراجل اللي عمله.. والحدوتة اللي بتتحكي وراه.. الأثر رمز لقيمة.. مش هو اللي ليه قيمة.. الأثر رمز للحق.. للعدل.. للتفوق.. للمعرفة.. للجمال.. للخير.. للفكر.. للضمير.. لكل حاجة ليها قيمة فعلاً في حياتنا.. وهي دي الحاجات اللي ضاعت مننا

يا (مني) من غير ما حد يسرقها.. وعلشان كده شوية الرموز دي اللي بتنسرق مننا مش المفروض هي اللي نبكي عليها..

أخذت نفسًا عميقًا، قبل أن أختم كلامي..

– المفروض نبكي على اللي ضاع.. مش اللي بينسرق يا (مني).. على اللي ضاع ومش عارفين ضاع امتى.. وإزاى؟!

لم يكن هناك ما يمكن أن يقوله أي منا للأخر.. فقد انشغل كل منا فيما قاله وسمعه من الطرف الثاني.

مرّ وقت ما.. صامت، هادئ هدوء الليل، قبل أن تقرر (مني) أن تكسر هذا الحاجز المهيب، وتلقي قنبلة من قنابلها المعتادة، وبلهجة مصرية لا تشوبها شائبة ..

– أنا باحبك أوي يا (رمزي).. غصب عني.. بس باحبك.

أنا هاهناك غارق في التاريخ، والتراث، والحضارة، والفراعنة، والآشوريين.. وهنا تصرعني الشقراء المبهرة باعترافها الصريح، الذي سألتها عنه في مكالمتنا السابقة!!!

غريب هو وقع الكلمات، التي تعرفها مسبقًا، عندما تسمعها. لم يكن ينقصني من الذكاء ما يجعلني أدرك هذه الحقيقة.. ولكن المدهش هو تأثيرها عليّ لدي سماعها. شلل مؤقت شملني، وعجز لساني عن النطق.. تسارعت نبضات

قلبي، وفقدت أنفاسي نسق انتظامها، ناهيك عن التقلصات الرهيبة، التي شملت معدتي وأمعائي ..

- (مني) .. على فكرة ..

هذه هي اللحظة المناسبة.. وإلا لن تعود..

- (مني).. أنا باحب واحدة تانية.. وكل مرة باحس بيكي فيها وإنت عايزة تعبّري لي عن حبك باتقطّع.. إنت غالية عليا قوي.. وما بقتش أقدر أستغني عن وجودك في حياتي.. بس أنا باحب واحدة تانية..

كانت الآن تبكي.. تبكي وتنشج ..

يالي من شخص تعس !!!

تعس هو كل من لدية الجرأة على إبكاء الملائكة !!!

تعس هو كل من تسوقه أقداره في طريق سعادة الآخرين، فيحول بينهم وبينها ..

أقسى درجات الندم هي ما شعرت بها، حينما جاءني صوتها الباكي المخنوق المبحوح عديم الحيلة..

- باعرف.. والله باعرف.. بس هو الملعون قلبي.. ما بعرف شو أسوّي له ..

تستأنف.. بعد أن حاولت التقاط بعض من أنفاسها اللاهثة..

– أول مرة باحس فيها هيك الإحساس.. أول ما يوصلني صوتك ولاّ عيوني تنطرك.. باحس أن الدنيا كلاّتها ما بتساعني.. باشم ريحة الزهور.. وأحس خيوط الشمس عَمْ بتدغدغ لي چسمي.. كأني باسبح ف بحر كبير.. بس حنيّن عليّ.. بيحميني ويخاف عليّ.. مَانّه غدّار ولا موچه عالي..

لم أرد .. فتابعت:

– في الأول ما كنت عارفة إيش أسمّي ها الإحساس.. بس ما ضلّيت كتير.. الحياة قصيرة.. وإحنا طول الوقت.. عَمْ نضيّع ف الوقت..

تساءلت لو أني قابلت (منى) قبل أن أحب (فيروز) .. هل كانت حجة فارق السن عندها ستنجح؟! أم إنني كنت سأخترع حجة أخرى عندئذ ..

الآن أحس بالألم ..

ولكنه ألم مريح.. ألم من أنجز مهمة كانت ثقيلة عليه..

– صدقيني يا (منى).. أنا مش الشخص المناسب.. لكن ممكن أكون الصديق المناسب.. إنتِ جميلة قوي.. وحلوة

قوي.. مش بس شكلك من بره.. لا وكمان من جوه.. إنتِ انسانة جميلة يا (منى).. وأنا ندمان على كل الألم اللي أنا بأتسبب لك فيه.. بس صدقيني في كل الأحوال ما كانش هاينفع.. ماكانش هاينفع أبدًا.. وجايز كمان الألم كان يكون أكتر.. خلينا كده أحسن.. اصحاب لا يمكن حاجة تفرق بينهم ..

كانت الفتاة قد فقدت قدرتها على الكلام.. إلا أنني ميزت.. أو هكذا أحسست أنها غمغمت..

- كيف ما بدّك ..

ران علينا الصمت ثانية ..

كنت أنتظر أي مبادرة منها، أستطيع بها أن أنهي المكالمة..

الوقت صار ثقيلاً.. والانتظار خانق محبط..

ولمـّا لم تأتِ أي بادرة لرد فعل من الطرف الآخر، أخذت أنا المبادرة..

- إنتِ كويسة يا (منى)؟! تحبي أقفل السكة؟! اتكلمي !! قولي حاجة.. طمنيني عليكي.. أنا آسف.. والله العظيم آسف..

أخيرًا.. أخيرًا جدًا.. جاءني صوتها.. كان أفضل قليلاً..

- أنا اللي چيت متأخرة.. ربنا يخليك ليها وتسعدها..

أخيرًا.. أخيرًا جدًا.. استعدت قدرتي على التنفس. اغتصبت ضحكة مقتضبة..

- ويخليكي ليا أنت كمان.. أنا ما ليش غنى عنك..

- (كومبيليمو) جميل منك .. ربنا يخليك ...

لم أشأ أن أناوش أكثر.. هذه كانت أقل الخسائر.

قلنا جملة، أو اثنين قبل أن ننهي المكالمة.. تلك التي ظننتها لن تنتهي.. تنفست الصعداء.. ابتسمت في سعادة.. فقد بدوت — أمام نفسي على الأقل — أكثر احترامًا الآن. أنجزت جزءً من أصعب مهمة في حياتي..

أن أقرر ماذا أفعل بحياتي؟!

***

(الدول العربية تطالب كوفي أنان بقيام الأمم المتحدة بدور حيوي لتوفير الحماية للشعب العراقي، وممتلكاته، وتحقيق الاستقرار.. المنظمات الدولية تنتقد فشل القوات الأمريكية والبريطانية في منع عمليات السلب والنهب.. الفوضى تضرب كل المدن العراقية.. اللصوص ينهبون البنك المركزي في البصرة.. أول مظاهرة شعبية في بغداد تطالب بحكومة تحفظ الأمن.. والأهالي يحاولون التصدي للصوص)

***

تمت عملية فطام أم (أمجد) من أجهزة التنفس الصناعي بنجاح أدهشنا جميعًا.. هذا الآن يعتبر خبرًا سعيدًا.. خصوصًا أن هذا الفطام جاء مصحوبًا بتحسن ملحوظ في درجة الوعي.. وأصبحت الآن فيما يشبه نصف الغيبوبة. أوقات تفتح عيونها، وأحيانًا تصدر عنها أصوات، ولكنها لا زالت غير واعية، أو مدركة تمامًا لما يحدث حولها. إلا إنها تبدي ما بين الحين والحين علامات تدل على إنها تتألم، بل وتنتبه أحيانًا.

لم أصدق ما يحدث.

يبدو أن بعض المعجزات لا زالت تحدث حولنا، ولا نعيرها انتباهًا.. ربما أن الإنسان صار أكثر تأهبًا لحدوث كل ما هو سيء، ولا توجد لدينا الطرق المناسبة للتعامل مع ما هو حسن. كنت الآن ألمح السعادة على وجه أخت (أمجد) الكبرى، وهي جالسة بجوار أمها، تحدثها، وتطمئنها أنها ستقوم، وتصبح أفضل حالاً، رغم إنها تعلم أنها لا زالت لا تدرك ما تقوله لها..

قليلة هي اللحظات التي ندرك فيها السعادة، ولكن جميل أن ندركها.. وهذه كانت واحدة.. أدركتها.. لا أدري لماذا، ولكن جال الآن بخاطري، كأنها صور لشريط سينمائي، بعض لحظات سعادتي ..

حبيبتي الأولى.. واللحظات الجميلة التي كانت بينها وبيني..

ثم (فيروز).. و لمسالها الرقيقة وابتسامتها الخلابة..

وأخيرًا (مني) .. بصوهّا الساحر وضحكتها الرنانة..

ابتسمت.. ابتسمت في سعادة حقيقية.. رأت أخت (أمجد) هذه الابتسامة على وجهي، فابتسمت هي الأخرى، وابتسمت الممرضة التي تجاورها.. كذا طبيب الامتياز، الذي كان يقيس الضغط لأم (أمجد) ..

هل للابتسام قدرة على العدوى..

كما هي للبكاء؟!

من بين أنغام الكمان.. داخل سيارتي، وسط الزحام .. ذلك الموجود طوال ساعات اليوم الأربع والعشرين .. أتساءل عندها متى يذهب الناس إلى أعمالهم؟.. الطلاب إلى مدارسهم ومعاهدهم وجامعاهم؟.. كل هؤلاء الناس في الشوارع، والسيارات، والأتوبيسات، والميكروباصات، وكل وسائل المواصلات، بل وماشون، وواقفون.. مَنْ إذًا على مكتبه بالمصالح المختلفة؟.. مَنْ في المصانع، والشركات، والهيئات، والمحلات؟.. أشكال الوجوه تكاد تكون نفسها، سواء الثانية عشر ظهرًا، أو الرابعة صباحًا.. أيعقل أن الزمن متوقف، أو أن الناس جميعًا قد تم تثبيتهم في لحظة ما في أماكنهم، فلا

يتحركون منها .. أو يتحركون حركة محدودة جدًا، تنتهي عند بدايتها، وتبدأ عند نهايتها..؟!

جاءتني أخيرًا الرسالة التي كنت أنتظرها لأطمئن.. على تليفوني.. " نفسي أرتمي بين أحضانك.. أبوس شفتك ولسانك.. وأضمّك ضمّة عاشق..ما يطيق نسيانك.. "

أحسست بردًا وسلامًا، وسعادة بالغة. كنت متوقفًا — كالعادة — في إشارة مرور؛ فأرسلت لها ردًّا..

" لا تعلميني كيف أحبك.. لأني فعلاً أحبك ..ولكن علميني كيف أجدك.. لأني دومًا أحتاجك .. "

مرت دقيقتان قبل أن تصلني رسالة أخرى من (فيروز) ..

" ودي أجيك ملهوف.. عابر بحور الخوف.. لكن كل شيء ضدي.. حظي.. والدنيا.. والظروف ! "

أدرك تمامًا ما تعانيه، وأدرك تمامًا ما أعانيه أنا أيضًا.. كلاً منا يحتاج للآخر أكثر مما يتصور.. ولكن كلاً منا خائف.. هي خائفة من عدم قدرتي على مواجهة المجتمع والظروف.. ولديها كل الحق، فأنا أيضًا لا أعرف إن كان بإمكاني الصمود حتى النهاية.. وأنا خائف من عواقب خوفها هذا.. خائف أنا من يأسها، وعدم احتمالها، وخضوعها في أي لحظة من اللحظات

لضغوط دنياها، ومجتمعها، وظروفها. لم يكن باستطاعتي الاتصال بها لأطمئنها أثناء قيادتي للسيارة، فأرسلت لها رسالة أخرى.. " معك لآخر نبضة بقلبي.. لآخر خطوة بدربي..لآخر حرف.. لأصعب ظرف.. لآخر صوت ..لحد الموت! "

أنا لا أراها الآن.. ولكني أعلم أن ثمة دمعة حارة تتكاثف، وتجاهد للإفلات من سلطان جفوها.. أن قلبها الآن يخفق في شدة، لا أدركها إلا حينما يرتاح رأسي على صدرها.. أن أنفاسها الآن تتسارع، فأشتاق أكثر للفحها لجانب وجهي ورقبتي.

كان الوقت والمكان لا يحتملان الانفعال أكثر، فأردت أن ألطف الجو، الذي أعرف أنه الآن ثقيل، محمّل بالأشواق، والاحتياج، والسخط على المسافات والفوارق.. فأرسلت لها رسالة حب طريفة على سبيل التهدئة.. وأعرف أي رد فعل ستحدثه عندما تصلها..

" حبّك بطحني عالحشيش.. ومن غيرك ما قدرش أعيش.. إحنا جوز جزم.. وفردة ما تمشيش !! .. "

ابتسمت متخيلاً دهشتها وابتسامتها على الطرف الآخر.. جاءتني الرنة، التي أفهمتني ما تريد أن تقوله بالضبط..

سأكلمها عندما أصل للبيت ..

انفتحت الإشارة، وبدأ التيار الجارف من آلات التنبيه المتعجلة المستفزة.. إنه العيش على الحافة.. أعصابهم، وأعمارهم، وكل مقدرات حياتهم على الحافة.. وهم دومًا على وشك السقوط والانهيار.

رفعت صوت مشغل الأقراص المدمجة، حتى لا أعود أسمعهم .. ولكن يبدو أن أصوات الفوضى والإزعاج لديها القدرة على الاختراق، والنفاذ إليك، ولو احتميت داخل بروج مشيدة !!

كنت قد اقتربت كثيرًا من المنزل، عندما وجدت رقم تليفون المنزل يطلبني.. بالطبع لم أرد، فبيني وبين المنزل عدة دقائق. إلا إنه ما أن انتهت الرنة، حتى فوجئت بالرقم يطلبني ثانية.. أغلقت عليه، لأعرفهم أني عرفت، وأني على وشك أن أكون أمامهم.. إلا إن المحاولة الثالثة أجهضت محاولاتي للانتظار، فاضطررت أن أرد، لأفاجأ ببكاء أمي، المختلط بصراخها ..

– إنت فين؟! ما بتردش عليا ليه؟! هوه إحنا كل ما نعوزك كده ما نلاقيكش!!! إنت فين يا (رمزي).. خالتك تعبانه قوي يا (رمزي) .. خالتك بتموت يا (رمزي)، وإنت مش راضي ترد عليا ..

اعتذرت لها، وأخبرتها إني على وشك أن أصبح تحت المترل.. أخبرتني إنها ستكون بانتظاري، لنذهب سريعًا.. لم تكن الظروف تسمح لأسألها تذهب لها أين، كلها دقيقة وأعرف منها.

وبالفعل .. كانت أمي بالانتظار.. قفزت إلى داخل السيارة، لتستأنف لومي وتقريعي.. وبنفس الكلمات، وذكرتني بكل المرات التي تحاول أن تتصل بي ولا أرد.. وما هي قيمة المحمول الذي معي، إذا كنت لا أرد عليه .. أم إنه فقط للرد على الأصدقاء والصديقات، وليس للأهل، والأشياء الضرورية الهامة.

بالطبع هذا هو الوقت المناسب تمامًا، كيلا أرد عليها. كنت على وشك أن أتساءل (نذهب لها أين؟!) فتذكرت أنها تسكن في عابدين.. على ما أظن.. قلت لنفسي إذا كانت متعبة هكذا، لماذا لا تذهب لمستشفى؟.. ما فائدة أن نذهب لها، وليست لدينا القدرة على فعل شيء لها؟.. أتظن أمي أن مجرد كون ابنها طبيبًا، فإن هذا كفيل بإيجاد الحلول السحرية الفورية السريعة؟!.. لم أستطرد في تأملاتي، فقط دعوت الله في سري ألا يكون الأمر سيئًا للغاية.. فكرت أني لا أرى خالتي هذه سوى مرة أو مرتين على الأكثر كل سنة.. أنا لا أعرف أي

أمراض تعاني، أو أي أدوية تتناول، ولا لأي أطباء تذهب؟! أنا حتى لا أذكر بالتحديد أسماء أبنائها!!!

أحسست بتأنيب الضمير .. لم أعرف على وجه التحديد متى بدأت هذه المشكلة. واضح أننا ذُبْنا في المدينة وفي المدنية أكثر مما يجب.. أظن أننا لن ننتظر كثيرًا، قبل أن تتفشى في المجتمع ظاهرة ترك الأبناء لذويهم، والعيش بمفردهم عند سن معينة تمامًا مثل الغرب.. إلا إنني فكرت مرة أخرى أن قدرة الأبناء على إعالة أنفسهم، مع استمرارهم فى دراستهم، وبناء مستقبلهم شيء مستحيل في بلادنا.. إذا كنا لا نقدر على أن نتزوج دون مساعدة أهالينا المادية، أيمكن أن نعيش مستقلين عنهم قبل ذلك؟!!.. لا أظن .. ولكن هذا في حد ذاته مفزع. إذ أن هذا يجعل سبب الترابط العائلي سببًا ماديًّا بحتًا.. هو مجرد تواجد.. كلنا موجودون في نفس المترل، وبين نفس الحوائط، وخلف نفس الأبواب.. ولكننا حقيقة غير موجودين مع بعضنا البعض !!! المفزع أنه ينطبق على مترلنا أيضًا، حيث لا أعرف أي شيء عن أبي.. لم أعرف أنه مريض أصلاً.. أجهل مشاعر أخي وما يفعله.. حتى الصغيرة (جميلة).. لا أعرف مم تعاني، وبماذا تشعر.. هذا عن مترلنا.. ناهيك عن الجيران.. والأقارب.. لقد توغلت الغربة دواخلنا إلى حد السرطان.. بل إننا حتى نجهل أنفسنا، وما نريد، فصرنا غرباء حتى عن ذواتنا.. أنا تجاوزت نصف عمري، ولا أعرف ماذا أريد أن أفعل.. بل ومن أنا !!!

كنا قد وصلنا. نظرت لأمي التي كانت منهمكة في محاولة الاتصال بأختها من تليفوني المحمول بلا فائدة.. فلا أحد يرد.. أيكونون قد ذهبوا بها إلى المستشفى؟!

أصوات قرآن تستقبلنا..

على السلم، فوجئت بالجيران متجمعين.. جالسين أو واقفين.. والأبواب مفتوحة.. باب خالتي مفتوح .. استقبلني ابن خالتي.. (محمد) أو (محمود) على ما أذكر ..

– اتفضل يا دكتور.. والنبي شوف لنا إذا كان السر الإلهي نفذ ولا لسه..

صرخت أمي.. فتيات وسيدات جالسات على الأرائك، والكراسي.. شعورهم مشعثة، وعيونهم باكية.. أطفال رضع على صدورهم، وعلى حجورهم يصرخون، ويبكون، ويرضعون.. أحس صوت القرآن أعلى الآن، ونحن متجهون إلى غرفة خالتي.. الجو مُقبض إلى حد مفزع.. رطوبة خانقة.. وبرودة أحس بها.. إنها رائحة الموت.. أعرفها.

وكان الأمر كما حسبته.. إن خالتي ميتة، وربما منذ فترة.. كل الوجوه كانت ترقبني في تأهب، كأنني سأعلن خبرًا هامًا.. كل العيون مثبتة على فمي، الذي على وشك أن ينطق ما يعلمونه مسبقًا.. ولكن كما أخبرتكم قبلاً، فارق شاسع رهيب

أن تعرف شيئًا، وأن يُقال لك.. تمامًا مثلما كان الأمر مع (مني).. لذا فإنني ما أن نطقت، حتى بدا الأمر كما لو أن صورة جامدة مثبتة، قد انفجر منها كل الصخب والحركة.. كل الحزن، والبكاء، والصراخ، والنحيب .. كل النشيج، والانهيار.. كل الصراخ، واللطم، وشد الشعر، وضرب الصدور والأفخاذ ..

رثائية.. بكائية.. ملحمية.. قاتمة.

أمي.. (محمد) أو (محمود).. الفتيات والسيدات.. بل والجيران على السلم ..

أحسست بوهن شديد.. حزن وانقباض ولون أسود يغمرني من حيث لا أعلم..

ماذا فعل لها الدكتور؟! لقد أخبرهم فقط إنها ماتت !!!

لفت نظري أن ابن خالتي ناداني بالدكتور، وليس (رمزي)!!! كأنه ليس ابن خالتي! انهرت على السرير حيث جثة خالتي.. الآن يمكن أن أقول جثة خالتي، وليس خالتي. ولدهشتي وجدتني أبكي.. من أين جاء البكاء؟.. هذه هي الخالة التي لا أراها سوى مرة أو مرتين في السنة، وأجهل أسماء أبنائها.. لا أعلم إذا كان ابنها (محمد) أو (محمود) .. أعرف

وجوه الفتيات، والسيدات الجالسات، أو على الأقل بعضًا منهم، ولكني لا أذكر أسماءهم على وجه التحديد.. والآن أبكي !!!

احتضنتي أمي، وهي تبكي وتولول.. أحس جسدها يرتج، وينتفض، وهو يملأ الفراغ بين ذراعيّ.. أخذت أقبّلها، وأربّت على ظهرها، أواسيها.. بدأ يتوافد على المترل بعض الرجال.. لا أعرفهم.. هم أخوة زوج خالتي المتوفى.

تناولت أمي التليفون مني، لتتصل بخالي في هولندا.. فوجئت بفنجان قهوة يوضع في يدي، وأنا لا أشربها.. امتدت يدي لا شعوريًا إلى جيبي العلوي، لأشعل سيجارة، وعزمت على الرجال، الذين اتخذوا مجلسهم في الصالون، وبدءوا يتحدثون عن إجراءات الدفن، واستخراج التصاريح، وشهادة الوفاة، وما إلى ذلك.. اشتركت مع الجميع في الحوار، وبدا الأمر للمرة الأولى أنني أتحدث فعلاً عن خالتي.. سنذهب أنا و (محمود) — الآن عرفت أن اسمه (محمود) — لاستخراج الأوراق.. بينما أعمامه عليهم تجهيز المدفن، والشعائر الخاصة بالعزاء.

وضعت فنجان القهوة مكانه على الطاولة، بعد أن وجدت أني شربته.. نزلت مع (محمود)، وتركت أمي مع الآخرين يبكون ويولولون.. أخذت كل الأمور مجراها ..

وأكرمنا خالتي ودفناها ..

***

(طلائع الفرقة الرابعة الأمريكية تنتشر في العراق وتستعد لخوض معركة تكريت.. قادة الكوت يبدءون تسليم المدينة.. المسلحون الأكراد ينسحبون من كركوك)

***

يقولون إن الحضارة المصرية قامت على الاستعباد والسخرة..

بالفعل يمكنك أن تستعبد رجلاً، وتسخره ليقطع حجرًا، أو ينقله.. ليشق قناة، ويحفرها.. لكنك أبدًا لن تستعبده، وتسخره، ليخترع، ويبتكر، ويكتشف في كل مجالات الحياة.. من الطب، للكيمياء، للفلك، للنحت، والرسم، والأدب، والموسيقى، واللغة.. ولن تجعله يدرك، ويتحدث، ويدوّن.. عن العدل، والخير، والاستقامة، والصدق، والجمال، والضمير .. أليس كذلك؟

***

كان يجلس في هذه الزاوية ..

كان يكتب.. والمرأة العارية ..

تتجول بين الموائد تعرض فتنتها بالثمن..

عندما سألته عن الحرب ..

قال لها ..

لا تخافي على الثروة الغالية ..

فعدو الوطن ..

مثلنا .. يختتن ..

مثلنا .. يعشق السلع الأجنبية ..

يكره لحم الخنازير ..

يدفع للبندقية ..

والغانية !!

(سفر ألف دال)

– الإصحاح السادس –

(أمل دنقل)

-٨-

تمامًا مثلما تثور البراكين.. تضرب الأعاصير الشواطئ.. تدك البيوت الزلازل.. تجتاح الفيضانات الأراضي.. بعدها يخمد كل شيء.. ويخمل.

هكذا حدث لي..

فبعد كل الأحداث التي مررت بها، من ظروف أم (أمجد)، والغزو الأمريكي للعراق، لمقتل (سيد)، ووفاة خالتي.. لحزن أمي، وضعف أبي، وإحباط (منى)، وانهيار (فيروز).. كلها بدأت تستقر وتهدأ. مرت الأيام.. تتلوها الأيام..

صار الانفعال أهدأ، والحزن أقل، والإحباط أمرًا واقعًا..

وأنا ..

بدأ عدد مرضاي في التزايد، وخفتت حدة تعامل الجيران، ولم يزرني مندوب الضرائب ثانية. إلا إن الرضا.. لا زال صعبًا.. بعيد المنال. ولا زلت أنا.. لا أعرف من أنا.. وماذا أريد. لا زلت أبحث.. وأواصل البحث.. علّني أصل إلى هدفي..

وحكمتي من الحياة ..

***

انتهى (ماهر) من إعداد كل أوراقه المتعلقة بالهجرة، وحان موعد سفره. كعادته أوصاني بأمه، حتى يستقر، ويبعث في طلبها. اندهشت لهذه المرأة، التي يبدو أن الغربة قد كتبت عليها حياة وموتًا. أذاهبة هي لتقضي أواخر أيامها في نيوزيلندا، التي لا تعرف – هي – مكانها في العالم !!! لكنها حياة (ماهر)، وفلسفته الخاصة، التي يحيا بها، وأظن أني أحترمه عليها.. على الأقل هو يعرف ماذا يريد دومًا، بل ويفعله.. ماذا لو إنني فعلت مثله وقلدته؟! هل سأقبل العيش في بلد أخرى ما تبقى لي من عمر؟.. السؤال الأفضل.. أتقبلني هي؟!

بدأ أبي اتصالاته مرة أخرى بمكان عمله بالبلد الشقيق.. يبدو أنه أيضًا ما عاد يطيق العيش هنا، ولم تفلح محاولاته في التأقلم ثانية مع ما يحيطه من ظروف، بل وربما أشخاص..

على الرغم من انتهاء الحرب، وإحكام أمريكا لقبضة احتلالها، وإمساكها بمقاليد الأمور بالعراق، إلا إن الأمور لم تستقم بعد لوالدي، كما كان يأمل.. أظن أنها حجة، ككل شيء يحدث حولنا.. العالم كله ينتظر حدثًا ما، ليتخذ منه حجة، لفعل شيء ما يخطط له مسبقًا.. كذلك يفعلون في البلد الشقيق.. هم كانوا يريدون التخلص من والدي، ولكن كيف السبيل إلى ذلك، وهو المتأقلم تمامًا مع كل الأنظمة هناك..

مُطيع.. ومُجدّ.. ومُخلص.. تأتي حرب على العراق.. يختل الأمن، وتتغير الأوضاع.. تسنح الفرصة للتخلص من والدي، ومن مثله. ولكن ماذا يفعل أبي؟.. أيعاود العمل هنا؟.. وهل يستطيع؟!

بدأ سفر أبي على شكل إعارة.. ولأن الإعارة محدودة المدة، فلما انتهت، نصحه أصدقاؤه بالاستقالة، وتقديمها للمنطقة التعليمية، والاستمرار هناك.. فاستمراره هناك خمس، أو عشر سنوات أخرى، سيجتاز كل ما يقبضه مع المعاش، مع الحوافز مع البدلات، طول عمره، وعمرًا آخر لو أضاف.. خاصة وإنه تجاوز الخمسين من عمره، وما تبقى ليس كما ذهب.. استمع والدي لنصائحهم، ليصبح في هذا الوضع.. هو يعلم، وأنا أعلم أنه لن يعود.. إلا إنه لا زال متعلقًا بهذا الأمل، بالرغم من اتصاله ببعض أصدقائه من المواطنين هناك، ومعرفته أن الدراسة بدأت، والمناهج استمرت، و لم يتوقف العالم هناك، لأن (الأمير علي) هنا!!!

مرت به الأيام هكذا، حتى عدت ذات يوم، فوجدت فتاة محجبة جالسة بجواره على طاولة غرفة السفرة.. أمامهما كوبان من الشاي، بعض الأوراق والكتب المفتوحة، وكان يشرح لها درسًا في اللغة العربية.. ما أن وقعت عيناه عليّ، حتى بادر بتقديمي..

- ابني الدكتور (رمزي).. عارفاه طبعًا.. عقبال ما تبقي زيه كده إن شاء الله ..

ثم تنحنح واستأنف .. مشيرًا للفتاة ..

- (سميرة) .. بنت الأستاذ (علوي) اللي في الدور الثاني.. في الثانوية العامة بقى.. وطبعًا هي زي (جميلة) بالظبط.. بس محتاجة تقوّي نفسها شوية في العربي..

أومأت برأسي لهما، ولم أجد ما أعلق به، ولكنى أظن أن أي شيء يتعلق به أبي، ليفعله بوقته هو شيء جيد.. بعد عدة أيام، انضم لـ(سميرة) زميلة لها تدعى (داليا). ومع اقتراب موعد الامتحانات، كون والدي لنفسه مجموعة مراجعة صغيرة، مكونة من ستة فتيات!!!

بدأ الجميع ينشغل بالامتحانات.. ذلك الطاعون الذي ينقض على بيوتنا، فيظن الجميع أنها الفاصل ما بين الحياة والموت. تستنزف الموارد، والأعصاب، وتجعل الجميع يحس كما لو إنهم يقودونه إلى مقصلة من نوع ما..

(فيروز) أصبحت متوترة عصبية.. والسبب اقتراب الامتحانات.. (منى) صارت مشغولة، ومكالماتنا لا تتعدى خمس دقائق، والسبب الامتحانات.. (مجد) لا يعود إلى المنزل،

فيبيت ليلته خارجًا أحيانًا، ودون ممانعة من والدي، والسبب الامتحانات.. (جميلة) تنتابها الكوابيس أحيانًا، وتصحو من نومها تصرخ وتبكي، والسبب الامتحانات..

احتلال أخر بلا أسلحة ولا حرب..

اسمه الامتحانات..

***

كان اليوم عيد ميلاد (فيروز) ..

كعادتي..

قصدت محل (بونبونة) للهدايا، وحبيبتي نصف اليونانية المشاغبة (كاتارينا).. ركنت سيارتي أمام المحل.. نزلت.. وإذ تأهبت للدخول، فوجئت بتلك اللوحة الكبيرة، التي حلت مكان الخط الأنيق الرقيق الذي كانت (بونبونة) مكتوبة بها على شكل قطع حلوى مغلفة، كما يوحي الاسم طبعًا.. اللوحة مكتوب عليها (دودي فون)، لخدمات المحمول ورجال الأعمال.. خطوط، فك شفرة، لوجوهات، فاكس، اتصالات دولية، كروت شحن، بزنس، إدخال نغمات، خدمات كومبيوتر، إكسسوارات محمول.

كل هذا مكتوب على لوحة واحدة!!!

اسم المحل، وإعلان، وأشياء لا علاقة لها ببعض ..

أين (بونبونة)، و(كاتارينا).. أين الهدايا الجميلة، والأذواق الراقية، واللمسات الرقيقة.. أين ذهب الجمال؟!! لقد طغى القبيح على كل شيء، فصار كل شيء عاديًا، ماسخًا، لا طعم له.. ياله من جحيم.

فكرت أن أذهب لخان الخليلي، لكن الشوارع مزدحمة للغاية، وصار الجو حارًا خانقًا، وأعصابي صارت لا تحتمل توتر الزحام. إذًا المطلوب مني أن أشتري لها دبدوبًا جديدًا كعادة المحبين ..

ولكني لن أفعل ..

لن أكون عاديًا تقليديًا ..

فحبيبتي ليست عادية.. ولا تقليدية ..

اليوم الخميس ..

اتصلت بـ(فيروز)، أخبرها إني سأمر عليها حوالي السابعة.. كان تفكيري قد استقر على هديتي غير التقليدية.. وفي السابعة كنت قد وصلت.. وبدلاً من ان أرن لها على التليفون لتترل لي، صعدت أنا إليها، ودققت الجرس.. جاءني صوتها من الداخل يطلب مهلة ثواني لفتح الباب، وهي تجهل

أنه أنا، إذ لم يحدث من قبل أن اصطحبتها من شقتها. أصوات دربكة بالداخل، كأن أحدهم على وشك السقوط.. ثم أخيرًا فتح الباب. كانت تلهث وتجاهد، للبس فردة قرطها اليسرى، عندما أدهشتها مفاجأة وقوفي أمامها، ويدي الممتدة بكيس كبير، ووردة حمراء وحيدة..

- كل سنة وإنت طيبة يا حبيبتي ..

كانت مرتبكة، ومُحرَجة، ولا تعرف كيف تتصرف، لذا فإنها وبتلقائية، همّت بإغلاق الباب وراءها، وهي تقول:

- وأنت بالصحة والسلامة يا روح قلبي .. ما ستنتنيش في العربية على أول الشارع ليه ورنتلي على التليفون وأنا كنت جاهزة وجاية لك؟!

بجرأة شديدة أوقفت الباب، ومنعتها من إغلاقه، مما زادها ارتباكًا.. كنت قد اقتربت منها في شدة، وبدأت رائحة عطرها الذي أحبه تتوغل داخلي.. ازدردَت ريقها في صعوبة، وهي تقول فيما يشبه الاعتذار:

- مفيش حد هنا يا (رمزي).. وأنا مش عايزة مشاكل مع حد .. لا يكون حد شافك وإنت طالع ولاّ حاجة ..

- ما حدش واخد باله من حاجة وبعدين إنت لازم تستخدمي الهدية اللي أنا جبتها لك مني وإنت هنا .. ما ينفعش بعدين ..

بدأت تتراجع أمامي، وأنا أدفعها في رفق، والكيس أمامي أحثها على أخذه مني.. حتى أصبحنا بالداخل، والباب لا زال مفتوحًا.. سمعنا أصواتًا على السلم.. وبتلقائية، امتدت يد كل منا معًا للباب المفتوح تغلقه كرد فعل..

كانت الآن، وبمحاولتها لأغلاق الباب تفاديًا للاصطدام بالأصوات الهابطة على السلم، قد أصبحت داخل محيط ذراعي تمامًا، وجسدانا متلاصقان.. لذا فقد كان تلقائيًا، وطبيعيًا، أن فعلنا ما كنا نحتاج إليه منذ فترة طويلة.. احتضن كل منا الآخر في قوة آلمته.. كل منا بدأ يتأوه تأوهًا ساخنًا حارًا من دواخلنا.. ضممتها كأني أريدها أن تدخل في تكويني.. تتفتت ذراتنا، فتختلط، وتمتزج، وتتحد لتكون كيانًا واحدًا.. الآن صرت لا أتنفس إلا رائحتها.. وسرعان ما تطور الأمر بيننا، فبينما كانت أناملي تعبث حرة، سعيدة، منطلقة بكل أنحاء جسدها الطري البض، التقت شفاهنا في شوق جارف، وامتد الأمر بألسنتنا التي اخترق كل منها حدود شفاه الآخر، ليتلاقيا، ويتلامسا، ويرقصا معًا .. عزفت ألسنتنا في تناسق غير مسبوق،

وتناغم لا محدود سيمفونية الالتقاء.. ها هي السماء تأذن بهطول المطر، فتشرب الأرض المشققة العطشى، ويرتوي ظمأ طال احتماله.. عيونها تزوغ نظراتها، وأجفانها تثاقلت في شبه تغميضة، وقد بدأ إحساسها يحملها إلى عوالم أخرى، لا مكان لها على هذه الأرض البغيضة .. تواصل التأوه، وصارت أنفاسها لاهثة متسارعة.. دون وعى مني، تمتد أناملي تحت ملابسها، في محاولة لملامسة جلدها الناعم.. وما أن فعلت، حتى فتحت عيونها فجأة، وشفاهها لا زالت ملاصقة لشفاهي في القبلة، التي لم تنته بعد، ولسانها يراقص لساني رقصة الجنون.. فتحت عيوني أنا الآخر على أخرها، وألتقت عيوننا تشتكي كل منها لعيون الآخر من مرارة البعد، وصعوبة العيش، وظلم الظروف.. كنا نجاهد من أجل التنفس، إلا أننا لم ننهِ القبلة، ولم يتخل أحدنا عن ضمّ الآخر بكل ما أوتي من قوة، حتى بعد أن صارت يداي الآن ملامستان مباشرة لجسدها الرائع، وجلدها الناعم الطري.. أنثى أحلامي الآن في متناولي، ويبدو أنه لا نية لدي البتة لإفلاتها الآن.. بل حتى أموت إن استطعت.. ومن فرط انفعالي، ومع اضطراب نسق تنفسي، وقبل أن ينسحب مني الوعي تمامًا، بدأت أبكي.. أنهت (فيروز) القبلة.. نظرت لي في هلع متسائلة..

- مالك يا حبيبي؟! .. فيه إيه؟! بتعيّط ليه؟!!!

- أصلك وحشتيني قوي.. قوي.. وحشتيني يا (فيروز).. وحشتيني قوي.. أنا باحبك قوي.. قوي..

ازداد بكائي، وبدأت أنشج.. أخفضت رأسي في شبه انهيار، لألصقه بصدرها الطري الحنون، وأدفن وجهي هناك.. بين ثدييها .. حيث أنتمي.

- بس يا (رمزي).. بس يا حبيبي.. طب أعمل إيه يا (رمزي) علشان تهدا.. أعملك إيه؟!

أخذت أبكي، وأنشج، وأنا على هذا الوضع.. وغرست أناملي بلحم ظهرها، فتألمت، وتأوهت بصوت مسموع.. إلا أن هذا لم يمنعها من أن تحيط رأسي بيديها، وتبدأ تملّس على شعري في رقة مفرطة، كانت تبعث في جسدي كله هزات ترجني، كأنها الزلازل.. فكنت أغرس أناملي في قوة أكثر وأكثر، حتى حسبت أني سأدميها ..

- باحبك قوي يا (رمزي) ومقدرش أعيش من غيرك.. فاهمني يا (رمزي).. إنت كل دنيتي.. وأنا من غيرك ولا حاجة.. بس يا حبيبي.. كفاية كده أنا مش مستحملة.. أنا مش حاسّة بجسمي دلوقت.. ومش قادرة.. أرجوك ارحمني..

كيف تطلب الرحمة من شخص هو أحوج منها بالرحمة؟!

بدأت أرفع رأسي في بطء، على كره مني، تاركًا المكان الوحيد الذي يرتاح عليه، فقط لأبدأ تقبيلها في بطء ورقة، بدءً من فتحة صدرها، مرتفعًا لأصل لمنبت رقبتها.. فرقبتها.. فما أسفل ذقنها.. فجانب رقبتها.. فما خلف أذنها.. فشحمة أذنها.. والتقمتها بفمي لأتذوقها في رغبة محمومة.. تواصل هي التأوه مع كل قبلة بصوت مسموع، وأكاد أحس بجسدها ينهار، ويتخاذل ما بين يدي.. بصوت خفيض للغاية كأنه الهمس..

- كفاية.. كفاية يا (رمزي).. كفاية أرجوك..

ثم في بطء، بدأت تفلت من بين يدي، ورويدًا رويدًا تقترب من الأرض، حتى استوت على الأرض جالسة، وهي لا زالت تتمتم..

- كفاية.. كفاية.. أرجوك.. كفاية يا (رمزي)..

بدأت أربت على شعرها الأملس الناعم، وهي تتمسك الآن بساقي حتى لا تسقط على الأرض..

- كفاية يا (رمزي).. كفاية.. إنت مش عارف إنت بتعمل فيّا إيه ..

ارتفع وجهها، الذي كان مطرقًا، ليواجهني الآن. كانت عيونها مغرورقة بالدموع، وشفاهها ترتعد في اضطراب..

- إنت فاكر إنك بس اللي بتحس.. إنت عارف يا (رمزي)؟! عارف..

بدأت نظرها تحمل لومًا، وتحديًّا من نوع ما، وهي تهتف..

- أنا كمان باحتاج لك يا (رمزي).. وجايز أكتر منك.. بابقى عايزاك تلمسني.. وبابقى عايزة أحس إيديك على جسمي وشعري وصدري وكل حتة فيّا.. بابقى عايزة أبوسك وأحضنك وأشم ريحتك.. أنا كمان باحس يا (رمزي) وباحتاج لك.. أكتر منك كمان..

ثم أطرقت أرضًا ثانيةً، وبدأت تبكي في حرقة..

- باتمنى قربك النهاردة قبل بُكره.. اللحظة دي قبل اللحظة اللي جاية بس عارفة.. عارفة إن الظروف صعبة وإن إنت بالنسبة لي الحلم اللي أنا عايشة علشان أحاول أحققه.. مع أني عارفة أن تحقيقه شبه مستحيل.. بس إنت اللي علمتني أحلم.. خليت ليا فكر وشخصية واختيار.. عارف إنت عملت إيه فيا..

سكتت لحظة تلتقط أنفاسها.. وتستجمع شتات روحها المنهارة ..

– زمان كان ممكن أقبل بأي حاجة وكل حاجة.. علشان هي دي كانت حياتي.. كنت ماليش قيمة.. إنت اللي خليت ليا قيمة وهدف.. حتى لو كان مش ممكن أوصل له.. بس إنت علمتني أحاول..

أخذت نفسًا عميقًا أنا الآخر.. مددت يدي مساعدًا إياها على الوقوف قائلاً:

– ما شفتيش هدية عيد ميلادك ..

– النهاردة مش عيد ميلادي يا (رمزي) يوم ميلادي هو يوم ما شفتك وعرفتك .. هو ده اليوم اللي اتولدت فيه ..

بهدوء بدأت أخرج ما بداخل الكيس ..

كانت لم تتمالك نفسها كاملة.. عندما وقفت تحدّق مبهورة غير مصدقة، ويداي تخرج من الكيس، حاملة فستان سهرة أحمر، مفرط الجمال و الإثارة ..

– إيه ده؟!! ده ليا ده؟!!! ده تحفة!!!

– والله هو ما يجيش عليا يبقى لازم بتاعك .. يالاّ خشّي غيّري بسرعة وأنا هاستناكي في العربية في آخر الشارع .. بس بسرعة علشان مانتأخرش ع العشا ..

طرفت بعيونها، ونظرت في امتنان بالغ .. تلقفت الفستان مني، وجرت للداخل حتى ترتديه هاتفة:

- حاضر يا حبيب قلبي وروحي وعيني وكل ما فيا وليا .. حالاً هاكون عندك .. اسبقني إنت وأنا مسافة السكة هاتلاقيني معاك ..

كانتا ساقاي خيطان رفيعان واهيان، يحملان جسدًا لازال يئن بالرغبة، وألم الاشتياق.. أسرعت مغادرًا، حتى لا أضعف أمام إغراء وجودي معها وحدنا ثانية ..

أسوأ شيء في الأحلام.. أنها تنتهي.. في ثانية ..

ويفرض الواقع نفسه ثانية..

ظلت أطياف هذه الليلة تزورني بلا انقطاع.. يليها منظر (فيروز) وهي تلبس عباءة خليجية سوداء طويلة - هي في حد ذاتها إغراء - لتغطي بها الفستان الأحمر، وتضع حذائها ذا الكعب العالي في كيس من النايلون، حتى لا تتعثر به، أو تثير الشبهات بين الجيران في الشارع.. ثم كيف كانت تبدو كالأميرة في أوج تألقها، حتى إنها كانت محط أنظار كل من كان في المطعم الراقي، الذي ذهبنا للعشاء فيه.. كنت كأني لا أمسّ الأرض فعلاً، إذ أراقصها على أنغام موسيقى من فلوت

وبيانو .. كلاسيكيات قديمة، تم تحديثها وتهذيبها، باستخدام التكنولوجيا، فصارت الأنغام أكثر وضوحًا، وإصرارًا، بل ووصولاً إلى أرواحنا، التي – على ما يبدو – قد صارت ظمآنه، في خضم من أصوات مزعجة، ومنفرة، مثيرة للغثيان، وأكاد أجزم أنها تساهم فيما نحن عليه من توتر وسهولة استفزاز. كل شيء مثالي وجميل بطريقة مخيفة، لم أعتدها من قبل.. كنا نود لليلة لو إنها لا تنتهي وكنت أود أن أستنسخها، فأجعل منها نسخًا بعدد الأيام الباقية من عمري، فأظل أعيشها يومًا بعد يوم حتى أموت.. أبدأ يومي كل يوم بأن أذهب لأصطحبها من منزلها.. وينتهي بأن أعيدها لمنزلها، فأنام، وحينما أستيقظ، أذهب لأصطحبها.. ثم..

نفثت دخان السيجارة في استمتاع بالغ ..

نظرت إلى الفراغ في غرفتي.. فبدا لي كما لو أن (فيروز) تتجسد أمامي بفستانها الأحمر، وابتسامتها الساحرة.. تفرد ذراعيها، وتبدأ في التراقص في حركات دائرية، على أطراف أصابعها، كأنما هي تقلد فالسات الدانوب الأزرق المشهورة.. تقفز برشاقة كالغزلان.. ثم تعاود التراقص.. تتوقف لوهلة، وتنظر لي في عيني.. ثم تتناول شالاً أسودًا شفافًا، ألحظه للمرة الأولي كانت تغطي به كتفيها، ثم تبدأ تلفه حول وسطها.. تمد قدمًا أمامها، ثم تستأنف الرقص بالرقص البلدي.. تحرك

وسطها، وتهزه في ليونة ونعومة مثيرين.. ثم تبدأ تخلع حذائها، لتواصل الرقص حافية القدمين .. تزداد حركاتها سرعة وصعوبة .. تتلوى، وتتثنى بمنتهى المرونة والرشاقة.. تميل على بصدرها، فأكاد أمد يداي في الهواء الفارغ، لاحتضنها، وقد اختلط الوهم بالحقيقة..

كانت هذه هي اللحظة، عندما دخل (مجد) الغرفة سابًّا، لاعنًا، غاضبًا.. رمى حذاءه في أطراف الغرفة، وألقى قميصه - الذي كانت أزراره أصلاً مفكوكة - في عنف على السرير..

توقفت تأملاتي، وذهبت خيالات (فيروز) إلى المجهول، حيث جاءت .. وبدا دخان سيجارتي المتراقص هو ما يفصل بيني وبين أخي، الذي تتصاعد أدخنته هو الآخر، وأنا لا زلت أجهل السبب.. الموضوع متوقع تمامًا، فقد انتهت كل اهتمامات هذا الجيل، وانحصرت في هذا الموضوع.. أخي العزيز (مجد)، بعد أن تلقى صفعة من صديقته (شيماء)، التي صادقت صديقه (مصطفى).. قرر أن يرد لها صفعة هو الآخر، فصادق هو صديقتها (ريم)، وكان الأمر بينهما جيدًا، حتى اكتشف أن (شيماء) قد تركت (مصطفى)، لأنه لم يكن حساسًا مثل (مجد). وعندما حاولت العودة لمصادقة (مجد)، أخبرتها (ريم) إنهما قد تزوجا عرفيًا، فعليها أن تتركه لحاله، وتذهب لتبحث لها عن صديق آخر. لذا، عندما عرف (مجد)

هذه القصة من (ريهام)، صديقة (ريم)، غضب منها جدًا، وقطع علاقته بها، بعد مشاجرة عنيفة، انتهت بأن ضربها، ومزق ملابسها، فما كان من الفتاة إلا أن حرّرت له محضرًا، واتهمته بمحاولة اغتصابها..

تناول سيجارة من علبتي، وأشعلها، وبدأ ينفث دخانها في عنف..

انتقل لي كل توتره وقلقه.. وأدركت أن وقع هذه القصة لن يكون لطيفًا على أبي وأمي، خصوصًا موضوع المحضر، والزواج العرفي هذا. نفثت دخان سيجارتي أنا الآخر، فاختلطت أدخنة سجائرنا، وشكلت سحابة صغيرة في سقف غرفتنا.. ما هو الحل يا ترى؟! أأترك أخي يواجه مشاكله بنفسه، أم أشترك في حلها؟ أم أخبر أبي؟! أم ماذا أفعل؟!

نظرت له في لوم.. أعترف بأني لا أعرفه..

***

عادت أم (أمجد) للمنزل، لتواصل العلاج الطبيعي.. هي لا تستطيع الكلام، ونصفها الأيمن مشلول، لا تتحكم جيدًا في بولها، ولازال ريقها يسيل من جانب فمها المعوج..

(محمد) صديقنا ستتم خطبته على فتاة رقيقة الخميس القادم، واتصل يدعوني للحضور ..

أرسل لي (ماهر) رسالة إلكترونية من نيوزيلندا، يخبرني فيها أن الحياة هنا مختلفة تمامًا عن أي حياة عرفتها قبل الآن، رغم إن أموره لم تستقر بعد .. إلا إنني يجب أن أفكر جيدًا في أن أحذو حذوه، فالأطباء مطلوبون هناك، وسيكون مستقبلي هناك أفضل كثيرًا..

جاءتني رسالة إلكترونية أخرى، من صديقتي الأمريكية، تخبرني إن ابن خالتها قتل في العراق، بأيدي الإرهابيين، وأن حالتها النفسية سيئة للغاية، لدرجة أنها تفكر في دخول مصحة لبعض الوقت لتريح أعصابها من كل ما تعاني.. لم أمنع نفسي من الضحك، والإحساس بالمرارة في نفس الوقت.. الضحك لأن معنى ذلك أنها لو جاءت تعيش في بلادنا، لما خرجت من المصحة أبدًا.. والمرارة لأنها أطلقت على من قتل ابن خالتها لفظ الإرهابي.. كما لو كانت تنتظر من العراقيين الذين يُقتلون بالمئات والآلاف كل يوم أن يتفرجوا على الأمريكان والبريطانيين في سعادة وهم يموتون ..

جاء والد (منى)، وقرر أن يصطحبهم جميعًا في زيارة لفرنسا، لمدة عشرة أيام، وسألتني إن كنت أرغب في أي شيء من هناك، فأخبرتها إني فقط أريد عودتها سالمة، فلم تعلّق..

امتد نشاط والدي، ليشمل عمل مجموعات تقوية في الإجازة، وبدا طبيعيًا أن تجد طلبة وطالبات بالمنزل طوال اليوم،

وكفّ عن البحث عن وظيفته المعلّقة في البلد الشقيق، وبدأ يحاول، على مضض، العودة لوظيفته هنا، أو الحصول على وظيفة بأحد المدارس الخاصة، حتى تكون عنده المصداقية عند الطلبة، عند بدء العام الدراسي الجديد..

(فيروز) رسبت في مادتين، وهو أمر كنت أتوقعه بعد مقتل أخيها.. إلا إن هذا لم يمنعها من الإحساس بالتقصير، والتعاسة، وأنها لن تكون يومًا جديرة بي، وأنها تضيع فرصتها من يديها.. لا أنكر أن تأنيب الذات هذا من أفضل الأشياء، فأنا لا أخفي حزني على نتيجتها، بل وغضبي بعض الشيء، ولكن يكفيني إحساسها بالخطأ، فهذا حري بها، لتبذل الأفضل. لا أعرف ماذا دهاني، لأتناول الموضوع بهدوء شديد، رغم إنني أذكر ثورتي العارمة عليها، عندما رسبت أول مرة تمامًا، واتهمتها كل الاتهامات، التي تتهم نفسها بها الآن، قبل أن تنجح بعد ذلك. ربما أكون تغيرت، أو ربما هو شعوري بها الذي تغير، أو ربما لأنني ألتمس لها العذر فعلاً هذه المرة.. لا أدري..

كان حفل خطوبة (محمد) صاخبًا راقصًا.. لفت نظري عائلتي (محمد) وعروسه.. أناس بسطاء.. والحفل نفسه في نادي نيلي.. الكل فرحون، ويغنون، ويرقصون، والزغاريد المجلجلة هنا وهناك. أخذت أتخيل منظر هؤلاء الناس في قاعة فندق من

ذوات النجوم الخمس، بملابسهم البسيطة غير الرسمية، والمفتقدة للذوق أحيانًا.. الحلي والمجوهرات المقلدة.. ومساحيق التجميل الرخيصة، وتصفيفات الشعر الساذجة. ناهيك عن الذكور.. فمن كلّف نفسه ووضع ربطة عنق، لم يستطع أن يعقدها.. هو بالطبع لا يعرف أنه ثمة هنالك عدة طرق أصلاً لعقدها.. أظن أهم سبعة، رغم إنني سمعت مرة أهم أكثر من ذلك. ابتسمت – فأنا الفيلسوف – لا أعرف سوى طريقتين، وهناك طريقة، تكاد تكون الوحيدة، التي أعقدها بها حتى أضمن تناسق المثلث عند ياقة القميص.

لا أدري ما الذي جعلني أربط – في هذه اللحظة – بين منظر الناس في بيت خالتي حين ماتت، وبين الناس هنا في الفرح .. لكأنني أرى نفس الوجوه والأشكال.. بل ونفس الأطفال. في نفس اللحظة تذكرت بيوت وأفراح زملائي من الأطباء في الكلية والمستشفى، ومناظر أطفالهم وزوجاتهم.. وقبل أن أهمّ في الاستطراد، وعقد المقارنات أكثر.. جذبني (أمجد) و(مروان) – صديق لنا من المقهى – لأشاركهم حلقة الرقص المحيطة بـــ(محمد) وعروسه.. نظرت في عيني (محمد) والسعادة فيها.. حتى (أمجد) بدأ يستعيد قدرته على الفرح والمرح، بعد تحسن والدته، وعودتها للمنزل.. أما عروس (محمد) فقد بدا كل الحب في نظراتها لعريسها المنتظر.. نفس النظرات أراها دومًا في عيني (فيروز) عندما تدركها السعادة..

تساءلت.. أي الناس أنا؟.. هل الأمور حقًا مزدوجة، أم إن الازدواج داخلي أنا؟..

من أنا؟! .. من أنا؟!!

أخذ إيقاع الرقص يتزايد، وأنا بدأت أشعر بالغثيان، خصوصًا وأن الطعام كان سيئًا، والمشروبات الغازية كانت ساخنة، والجو خانق ورطب، والمكان مزدحم، والأصوات عالية ومزعجة وصاخبة إلى حد مريع ..

انسحبت لوهلة ..

وأخذت أبحث عن دورة المياه لأمارس هوايتي المفضلة.. تقلص أمعائي والقيء ..

حين قابلت (فيروز) اليوم — الخميس — كالعادة، حيث لا عيادة عندي.. كانت معكرة المزاج إلى أقصى حد.. ويمكن القول إنها كانت عصبية متوترة.. حين سألتها عن السبب، وهل له علاقة بالنتيجة أنكرت ذلك.. وحينما ألححت عليها لمعرفة السبب — بعد أن أخذت أخفف عنها رسوبها في مادتين، اعتقادًا مني بأن هذا هو السبب رغم إنكارها — أخبرتني بالسبب الحقيقي .. عمها جاء يزورهم اليوم ظهرًا، ولم يكن وحده.. كان معه صديق له، وابنه الشاب.. والقصة صارت

مفهومة الآن. ما ضايقها ليس إن عمها يريد تزويجها من شخص لا تعرفه، أو لأنه ابن صديقه، بل ما ضايقها هو تلك الاستباحة المطلقة لحياتها ولحرية رأيها. هو لم يخبرها قبل إحضاره، ولم يسألها إذا كان موعد المقابلة مناسبًا لها أم لا.. لم يتساءل إذا كانت الشقة مرتبة ومجهزة لاستقبال ضيوف غرباء يأتون للمرة الأولى.. وكلها من أبسط حقوقها.. هي غير متضايقة من إلحاحه على موضوع زواجها، ليتخلص من همها، ويتفرغ لأختها، فهما – على حد قوله – جالبتا العار.. ولكي يخرس ألسنة الناس والجيران. ليس هذا ما يضايقها، فهو – مهما مارس عليها من فرض للذات وقهر وسلطة – لن يتمكن أبدًا أن يزوجها رغمًا عنها.

وافقتها الرأي تمامًا .. رغم إن انتهاك حريتنا، وممارسة القهر والسلطة يبدو متوافقًا معنا تمامًا.. ومع أخلاقنا وعاداتنا وحياتنا.

بعثت لي (منى) رسالة على المحمول من فرنسا.. ولكنها كانت بالفرنسية، فلم أفقه منها شيئًا، سوى أنها تعرف الفرنسية طبعًا، وهو شيء كنت أجهله قبل الآن. وحينما أرسلت لها ردًا بجهلي، جاءتني الترجمة.. ((وحشتني جدًا جدًا .. فرنسا حلوة جدًا .. يا ريتك كنت معايا واتفرچنا على كل شيّ سوا)).. ابتسمت.. هذه الشيطانة يبدو أنها لا تيأس أبدًا..

جاءتني المقارنة التي كنت أود أن أعقدها أسرع مما تخيلت.. حفل خطوبة (لبنى).. ابتهجي يا أم (رمزي) يا من ترتدين الأسود حتى الآن حزنًا على أختك، فها هي عصفورة تطير من العش الذي تحلمين به من أجلي.. ولا زلت تجهلين أي الطيور اخترت أنا !!! كأنه عالم آخر..

لا يمكنك أن تصدق أن هؤلاء الناس، الذين كانوا في منزل خالتي، أو خطوبة (محمد) ينتمون لنفس العالم.. الفساتين، والمساحيق، والعطور، والمجوهرات، والكرافتات، والبذل الأنيقة، والساعات الذهبية، والشالات الحريرية، وتصفيفات الشعر، والإكسسوارات، والأحذية، والساتان، والفوال، والحرير، والقطيفة.. وجدت بعض زملائي من الكلية بالفرح.. فهم من معارف العريس.. جلسنا جميعًا على طاولة كبيرة مستديرة.. لم نتكلم كثيرًا، وحينما نتكلم كنا نذكر الكلية، والمرضى، والعيادات، ومشاكل الطب، والتأمين الصحين والدجل باسم الطب، والطب البديل، والأدوية، واتفاقية الجات، وأسعار البترول، والسيارات .. كادت تفلت مني ضحكة عالية، ولكني تذكرت مركزي، ومكانتي، ومستواي الاجتماعي، فتنحنحت، واصطنعت كحّة قصيرة ..

الأمر كله مثير للطرافة.. وكان لدي من الوقت ما يسمح بتخيل الناس في فرح (محمد)، وهم جالسون على هذه الطاولات الفخمة، بباقات الورد المتناسقة في وسط كل منها.. ثم تبدأ أغنية رومانسية أجنبية، فينادي مقدم الحفل على المدعوين، ليشاركوا العروسين رقصة (السلو). عندها ينظر العريس للــ(الدي . جي) شذرًا، فيستبدل الأغنية بأخرى شعبية، ويا حبذا لو كانت لــ(حكيم)، فيبدأ الناس في المشاركة الفعلية، وتسري بين الفتيات -كالنار في الهشيم- حمى ربط أوساطهم بالشالات الحريرية الشفافة، ليبدأوا الرقص الحقيقي.. الرقص البلدي.. الرقص المثير. اكتفيت بالابتسام، وهز الرأس يمنى ويسرى، وتوزيع بعض الإيماءات هنا وهناك، حتى يظن الناس أني أرحب بهم.

غادرت الحفل بعد البوفيه مباشرة، ولا أنكر أني استمتعت بالأكل فيه تمامًا، وخصوصًا السمك المدخن، الذي يبدو أن فرصتي الوحيدة لالتهام كميات منه، هو مثل هذا المستوى من الأفراح ..

يا رب أدمها نعمة.. واحفظها من الزوال..

آمين .. يا رب ..

تلقيت دعوة لحضور يوم علمي ترفيهي، تنظمه شركة أدوية كبرى بالعين السخنة عن مرض السكر، ومخاطره، وأشياء من هذا القبيل. فكرت في أصطحاب (فيروز) معي، ولكني

تراجعت في اللحظة الأخيرة، فلابد أنني سأجد آخرين أعرفهم، ويعرفونني ومعهم عائلاتهم، ولا يوجد ثمة شيء رسمي يربطني بـــ(فيروز)، فماذا سأقول لهم عنها.. حبيبتي.. صديقتي؟!

أحسست ضيقًا مفاجئًا، جعلني أفكر أن أعتذر، إلا إنني لم أفعل، لأن رفاهية مثل هذه الأماكن، يفتقدها الإنسان، ويكون من اللطيف دومًا الاستمتاع بها بين وقت وآخر.. لكنه صار نادرًا للغاية.. رغم إنني أذكر أنه منذ عدة سنوات، وأثناء قضائي لفترة نيابتي بالمستشفى، كانت مثل هذه التجمعات بدعوى ظاهرها العلم، وباطن من الترفيه، والاستمتاع تتم كثيرًا.. هل أصبحت الشركات العالمية أفقر، وظروفها أصعب أم إننا أصبحنا أقل أهمية، لأننا مجبورون على كتابة أدويتهم، لأن شركاتنا الوطنية، ذات المنتج الأرخص أقل فاعلية، وهو ما أخذناه أمرًا مسلمًا به، و لم نحاول علاجه.

دائمًا تحس أن كل شيء مربوط بآلاف الخيوط، التي لا توجد أطرافها معك، أو حتى عندك، فينتابك شعور عروس الماريونيت الساخطة، المجبرة على تقبيل الأراجوز، والرقص، واستقبال الضرب دون دفاع عن نفسها، وفي نهاية اليوم هي ملقاة في أحد الدواليب، أو معلقة على أحد الحوائط، لا حول لها ولا قوة. آخرون نصّبوا أنفسهم أربابًا على الأرض،

فيسمحون، ويمنعون، ويهبون، ويحجبون، ينظرون لنا من سماواتهم، التي صنعوها لأنفسهم، واستقروا فيها، ونحن تتفشى بيننا شرائع الغاب، نصارع أنفسنا، ونختصمنا، وننصب أنفسنا أعداءً لأنفسنا.

بعد عدة محاضرات، سمعتها قبلاً، ونوع سخيف من التملّق، كأن مشاكل الدنيا والعالم سيحلها دواء شركة الأدوية، التي تستضيفنا!! حان الوقت للاستمتاع قليلاً.

ولما كنت بطبعي لا أميل للجلوس مع قرنائي، من ذوي المهنة الواحدة، فالمواضيع نفس المواضيع، لا تتغير، وبالطبع سيضاف، بل ربما يحتلها جميعًا، أخبار العراق، والأسرى، والتعذيب، والمعتقلات الأمريكية.. وهي كلها حوارات تنتهي باستجلاب اللعنات عليهم من عند الله.. الله وحده.. لذا .. فإنني ارتديت لباس البحر، وتأهبت لأغسل عن جسدي بعض الهم والتوتر.

وإذ أنا متأهب للنزول، إذ اصطدمت كرة شاطئ صغيرة بقدمي، التقطتها، وهممت بإعادتها لصاحبها، فجاءني طفل أشقر صغير، عمره حوالي خمس سنوات يهرول نحوي.. خفق قلبي في قوة لدى مرآه.. إنه جميل للغاية، ولذيذ جدًا، وحركاته المتقافزة العشوائية مثيرة للغاية. أعطيته الكرة، ونكشت شعره

في ود، فوقف أمامي يتأود، ويلعب بأصابعه في فمه، وأنفه، وشعره وأذنيه، وقال في أكثر الطرق أدبًا ورقة وعذوبة..

– ميرسي يا أونكل ..

– اسمك إيه يا حبيبي ..

أطرق في الأرض وهو يرد عليّ بنفس الطريقة الرائعة ..

– (شريف) .. وإنت حضرتك اسمك إيه يا أونكل؟!

كان يلثغ، ويتلعثم، ويواصل التأوّد المثير.. انحنيت لأكون في مواجهته، وأنا أمارس التمليس على شعره الأشقر الناعم في استمرارية واستمتاع ..

– (رمزي) .. يا حبيبي .. اسمي أونكل (رمزي) .. تحب نلعب مع بعض ..

أومأ الملاك الصغير برأسه.. هنا جاءت أمه وراءه تلهث، فصعقني الصوت أول ما سمعت..

لا يعقل للأمور أن تكون قاسية إلى هذا الحد ..

فأم (شريف) الرائع، التي جاءت خلفه باحثة عنه، مرتديه لباس بحر من قطعة واحدة، تحته شورت استرتش أسود قصير، كانت أخر إنسانة في الوجود أتخيل أن ألتقي بها..

وقف كلٌ منا متسمرًا لوهلة..أحس كل أمعائي تصطرع داخلي، ولا أحصي عددًا لضربات قلبي. كل جسدي يتوتر.. كل عضلة.. كل عصب.. كل وتر.. كل كرة دم حمراء.. بل كل خلية أخذت ترتجف في ذهول. كأنه الأمس حين كان الوداع.. كأنها الساعة الماضية، حين تزوّجت، وسافرت، بل وأنجبت.. (شريف) الملائكي الواقف بيننا في ترقب هو الآخر.. رمقتني بنظرة كلها تحدّ، ورفعت رأسها بتكلّف، ناهرة (شريف) في عصبية كأنها تلومه ..

– يالاّ يا حبيبي .. يالاّ لحسن بابا بيدوّر علينا ..

وقبل أن يتفاقم الأمر ما بيننا أكثر، وأنا أكاد أترنح، والرمال تحت أقدامي صارت رمالاً متحركة، أو إن أقدامي هي التي صارت أوهى من خيوط العنكبوت، جاء زوجها. أبيض، أشقر، كأنه أجنبي.. ابتسامة عريضة على شفتيه، وجسد رياضي ممشوق.

– ميرسي أوي يا أستاذ ..(ثم أحاط الولد و(نسرين) بذراعيه) ..

كانت عيوني مغرورقة بالدموع الآن، وأنا أرمق حبيبتي التي كانت، وابنها الذي كان من الممكن أن يكون.. محاطَيْن بهَذيْن

الذراعين القويين، حتى يكاد يبتلعهما.. رسالة واضحة لأفكاري.. هذان ملك لي، ولا يسعك التفكير فيهما.

ابتعد الثلاثة في بطء.. (نسرين) نثرت شعرها الكستنائي المسترسل خلف ظهرها.. و(شريف) اختلس نظرة أو اثنين ناحيتي.. وهو لا يعرف ما سر هذا التعكير لمزاجه بعد أن وجد صديقًا كان سيلاعبه..

أما أنا ..

فقد افترشت الأرض.. الدوار يكتنفني.. الرؤيا أمامي مشوشة.. والعالم ضيق.. ضيق في وجهي، مهما رحب.. أسوأ طريقة لافتقاد الأشياء، هي أن تكون أمامك، وأنت تعلم أنك لا يمكنك الحصول عليها..

خمس أو ست سنوات من الآن.. هل أحلم بأن أرى لي ابنًا يلهو بكرة على شاطئ، و(فيروز) تركض خلفه تلاحقه.. ومن الخلفية تمامًا أبرز كأنني نجم سينمائي، أحتل الحيّز ما بينهما، وأحيطهما بذراعي ..

مرة أخرى، وجدت أن الدموع قد بللت وجهي..

ما الذي يحدث لي .. إنني أتغير .. (رمزي) آخر ينمو داخلي، ويحتلني يومًا بعد يوم . لكن هل سيمهلني القدر، وأحيا حتى أراه، وأتعرف عليه؟!

بيننا آلف شيء وانكسر ..
هل في قصتنا .. ما يختصر ..
لسنا فقط .. ما يحتضر ..
فالحب كمالكيه..
كفاعليه ..
كالمتحدثين عنه ..
أو الغارقين فيه ..
الحب أيضًا مثل البشر ..
يتبدل كالفصول ..
أطوار للنمو ..
وأطوار للذبول ..
تسقط أوراقه ..
كما الشجر ..

لم أدرِ كم يومًا مرّ عليّ وأنا في حالة يرثى لها ..

بالرغم من إني طوال كل هذه السنوات فكرت مرارًا في سيناريو اللقاء الثاني.. إمكانية حدوثه وظروفه؛ حتى على الرغم من معرفتي بوجودها في بلد آخر، متزوجة من رجل آخر.. إلا إنني فكرت.. ولكني أبدًا لم أنجح في أن أتوصل لمثل هذا السيناريو، كما إنني يومًا لم أتصور وقعه الرهيب على نفسي، وكل المحاولات الفردية لـــ(فيروز) و(منى) كل على حدة، فشلت في تغيير حالتي المزاجية، ولا زال جسدي كله يرتعد، كلما سمعت صوت (شريف) يتردد في أذني، ربما أكثر من رؤياي لـــ(نسرين).. ولكنه لا يفعل هذا التأثير، إلا عندما أتذكر أنه ابن (نسرين)!!!

حينها أدركت أنني يجب أن أتزوج (فيروز) ..

يجب أن يكون هدفي في الحياة أن أتزوج (فيروز) ..

أن يرزقني الله ابنًا من (فيروز) ..

وفي عالم يصطبح كل يوم بأخبار سجن (أبو غريب)، ومعتقل (جوانتانامو)، والبحث عن صدام، و(بن لادن)، والهجوم القادم ربما على سوريا أو إيران ..

اقتربت من أمي ..

كانت جالسه على الكنبة في الصالة.. والدي بالخارج يشتري بعض اللوازم الخاصة بمجموعاته الدراسية.. (جميلة) في النادي مع صديقاتها.. و(مجد).. لا أعرف أين هو، ولكن لا بد هو في مكان ما، يحاول أن يجتذب مشكلة جديدة.

في أكثر لهجات صوتي حميمية..

- ماما ..

- أيوه يا حبيبي .. عايز تتغدى ..

- لأ .. أنا عايز أكلمك في موضوع كده ..

لمحت أساريرها تتهلل لوهلة..

فقد كان نسق الحياة في منزلنا يجعل مساحة لموضوع واحد فقط يمكن أن نتحدث فيه أنا وأمي ..

- خير يا حبيب قلبي.. فرحني ..

كان الوقت مناسبًا جدًا لأتراجع، كما أفعل عادة.. إلا أنه هذه المرة لم يحدث.. وبدأت أحكي لها كل شيء .. ليس كل شيء طبعًا، ولكن كل شيء يمكن أن أحكيه لها. كنت أتحدث كالطلقة.. سريعًا.. متحمسًا.. محاولاً أن أظهر مدى حبي وارتباطي واقتناعي ورغبتي في (فيروز). كنت أحكي، وأمامي لحظتان من حياتي.. يوم عيد ميلادها بكل ما فيه، ويوم قابلت

(شريف) بكل ما أثاره فيّ من مشاعر، كنت أجهل مكانها بداخلي.. لم أدرِ كم مرّ من الوقت، وأنا أحكي وأحكي وأحكي.. وأدافع قبل أن أهاجم.. وأختلق الحجج، والأسباب قبل أن أناقش.. الأمر كله بدا كما لو إنني في مرافعة لكسب قضية هامة، وهي — حقًا — قضية هامة.. قضية حياتي، وما سأفعله بها ..

وحين انتهيت بعد دهر من الزمان، وانتبهت لما حولى..

وجدت أبي واقفًا عند مدخل الصالة، على وجهه أمارات الجد والأسى.. و(مجد) جالس على طاولة السفرة، وقد أسند رأسه على كفيه، وأمامه كانت (جميلة) جالسة، والدموع تنهمر من عينيها.. لم أدرِ متى دخل وجاء كل هؤلاء ..

وكان رد الفعل المتوقع .. من أمي ..

– يا ريتني كنت مُت بدل خالتك يا (رمزي).. بقى بعد كل الزمن ده وأنا مستنية إنك تفرحني كده بدكتورة ولا مهندسة.. عيلة وجمال ومركز.. تجيبلي حتة بت مفعوصة كانت عيانة عندك.. بتاعة خدمة اجتماعية ومش مكملة تعليم وأختها ممرضة وعيلتها زبالة وساكنة ومتربية في حارة أخوها اتقتل فيها.. وتقول لي عاوز أتجوز..

لم تترك أمي الفرصة لأي أحد آخر ليتكلم..

– هاتقول لزمايلك إيه يا دكتور .. إنت مش شايف أصحابك وزمايلك متجوزين بنات شكلهم إيه .. وعيالهم طالعين عاملين إزاي .. ورايحين مدارس شكلها عامل إيه؟!! .. ممكن تقول لي .. ست (فيروز) بتاعتك هاتربي عيالك فين؟! .. في الحارة؟!؟! .. مع ابن البواب وابن الكناس وابن الجزار وابن الصايع والميكانيكي والسباك .. إنت اتجننت يا (رمزي)؟!! .. وأنا اللي كنت فاكراك إبني الدكتور العاقل اللي بأتباهي بيه وسط العالم كله .. تيجي على آخر الزمن وعايز تحط الطين على راسك وراسنا .. دا إنت اللي كنت رافع راسنا .. دلوقت عايز توطيها ليه وتحطها لنا في الأرض؟!!!

كانت الدموع تنهمر مني غزيرة، وأنا أرى كل شيء أمامي يتحطم وينهدم. كنت أتوقع مقاومة ورفضًا .. ولكن ليس لهذه الدرجة من التجريح لي ولمن أحب. كانت (جميلة) تبكي هي الأخرى .. وهتفت بصوت مخنوق:

– كــفاية بقى يا ماما .. حرام عليكي .. أبيه (رمزي) ما يستاهلش كل ده..

هب (مجد) غاضبًا، لم أدرِ أهو مني، أم من رد فعل أمي.. ربّت والدي على كتفي، ووجه كلامه لأمي..

- خلاص بقى يا أم (رمزي).. الكلام أخد وعطا.. الدنيا ما تجيش قفش كده .. إهدي كده واستهدي بالله ..

- أهدا .. أهدا إيه يا (أمير) .. إنت ما سمعتش المصيبة اللي جايبها لنا وعايزنا نناسبها ولا إنت جيت متأخر ..

ثم أمسكت رأسها في قوة، وبدأت تطوح جسدها يمنة ويسرى وهي تتأوه .. وكنت أنا أبكي في حرقة وقهر شديدين..

لا أعرف ماذا أفعل ..

ممزّق أنا بين ما أحب ومن أحب.. وبين أمي، وأهلي، ومعارفي، وحياتي بكل صورها.. دون وعي مني بدأت أنسحب. استوقفني أبي، لكنى لم أستجب له.. وفي لحظات كنت في سيارتي، أقودها إلى حيث لا أدري.. رن التليفون.. إنه المترل.. لم أرد.. لم أعرف ماذا أفعل.. لا أعرف ماذا سأفعل بعد الآن؟! هل سأنسحب بعد محاولة واحدة، أم أتزوج (فيروز) وأضع الجميع أمام الأمر الواقع؟.. ما هو الصحيح، والسليم، والسوي؟! اتصلت بـــ(فيروز).. كان صوتي باكيًا، موحيًا بكل ما يعتمل داخلي من صراع وتمزّق..

- (فيروز).. أنا محتاج لك.. لازم أشوفك دلوقت.. هاسبقك على العيادة.. هاستناكي هناك... أرجوكي ما تتأخريش عليا.. علشان أنا حاسس إني بأموت ..

أحاول – سيدتي – أن أحبك ..
خارج كل الطقوس ..
وخارج كل النصوص ..
وخارج كل الشرائع والأنظمة ..
أحاول – سيدتي – أن أحبك ..
لأشعر – حين أضمك يومًا لصدري ...
- بأني أضم ..
تراب الوطن ..

متى يعلنون وفاة العرب

– نزار قباني –

دافنًا رأسي بين ساعدي، مرت حياتي كشريط سينمائي أمام عيني. يبدأ بـــ(نسرين)، التي بدأ حبي لها أثناء فترة الكلية.. كانت تصغرني بعام دراسي واحد.. كان لقاؤنا عبارة عن سوء تفاهم بالكافيتريا، تحوّل إلى حب، أخذ ينمو وينمو مع الأيام، حتى صار مثار حسد لكل من يراقبنا. كان لا يبدو أنه ثمة سبب يمكن أن يفرقنا، لكن عدم توافق عائلتينا، وجشع عائلتها المبالغ فيه في المطالب المادية، حال دون إتمام زواجنا، وهو ما أصابني بالصدمة لفترة. كنت صغيرًا وساذجًا وضعيفًا، فلم أقاوم التيار أكثر، فاستسلمت.. واستسلمت هي الأخرى بأسرع مما توقعت.

الفلوس ..

لا أعرف ما هي العلاقة بين الفلوس والسعادة ..

الفلوس يمكنها أن تشتري منزلاً، ولكنها لا تشتري سكنًا وسكونًا.. تشتري سريرًا، لا نومًا.. ساعة يد، لا زمنًا.. كتابًا، لا معرفة.. موقعًا متميزًا في الحياة، لا احترامًا.. دواءً، لا صحّة.. دَمًا، لا حياة .. تذكرت حالتي بعدها، ثم أخذتني الحياة رغم محاولاتي للدخول في علاقات أخرى، أذكر منها (نانسي)، و(رانيا)، وتساءلت لِمَ لَمْ يكتب النجاح لأي من العلاقتين.. الأولى كانت خريجة الجامعة الأمريكية، والأخرى

تجارة إنجليزي.. ولكنه يبدو أنني كنت لا زلت في فترة إعادة التأهيل.

ثم جاءت (فيروز).. وهأنذا ثانية أقف مكاني، ولا أعرف ماذا أفعل.. ثم (منى).. وأخيرًا مقابلتي لـــ (نسرين) ثانية.. لماذا تبدو كل الأمور معقدة متشابكة هكذا..

بل لماذا نشأت وولدت في هذا الزمن، وهذا الجانب من العالم؟

حين ولدت، كانت بلادنا مثخنة بالمعارك والحروب.. تغيّر العالم والمجتمع، وساءت أمورنا، وصارت من سيء إلى أسوأ.. وأنا شاب.. كان احتلال الكويت، ثم حرب الخليج، ثم احتلال العراق .. مرورًا بمأساة فلسطين، التي لا يبدو لها من حل أو نهاية، وبعض الأشياء الصغيرة، التي ننساها دومًا في خضم حياتنا.. البوسنة والهرسك.. الشيشان.. أفغانستان.. ليبيا.. لا أذكر على وجه التحديد متى جرت محاكمة عالمي، والحكم عليه بالموت والفناء.. أتذكر الآن شيئًا غريبًا للغاية.. قصة آلة الزمن لـــ(هـــ . ج . ويلز).. نحن أشبه بتلك الكائنات، التي كانت تحيا تحت الأرض في الظلام والرطوبة والعفن.. ماذا كان اسمهم؟.. لا أذكر.. لو إنه قدّر له كتابة هذه القصة اليوم، لاختار لهم بلا تردد اسم العرب.. أو أي شيء من هذا القبيل..

من منا تسري حياته وفق ما يريد ويتمنى ..

هنا أفقت من شرودي، وتأملاتي بلمسة حانية مست جبهتي.

رفعت وجهًا باكيًا، حزينًا، شاردًا، متسائلاً، مقهورًا.. لأواجه طاقة النور التي انفتحت أمامي المسماة (فيروز) ..

- ما لك .. يا مالك قلبي وروحي؟!

- أنا عاوز أتجوّزك ..

ضحكت ضحكة مقتضبة في عصبية، وهزت رأسها في هستيريا وهي تهتف:

- إيه؟! بتقول إيه؟!

كانت قد جلست على الكرسي الوثير أمام مكتبي، فقمت في بطء وهدوء من خلف مكتبي، لأجلس على الكرسي المواجه لها، ممسكًا بيديها في رقة، رافعًا إياهما لشفاهي. قبّلتهما بحنو بالغ، رافعًا نظري أراقبها، فارتعد جسدها لوهلة.

- أيوه يا (فيروز) .. عاوز أتجوزك ..

سحبت يديها في هدوء من بين يدي.. أطرقت في الأرض، وبدا على وجهها أمارات الجد والتفكير العميقين ..

- إزاي يا (رمزي) .. ما إنت عارف الظروف .. والفروق اللي بينا .. أكيد أهلك مش هايوفقوا ..

- بتحبيني ولا لأ؟!

- ده سؤال برضه؟! أنا مش هأرد عليك ..

- واثقة فيّا ولا لأ؟!

- برضه مش هأرد ..

- الزمن بيعدّي والعمر بيمر وأنا محروم منك ومش قادر أعيش من غيرك .. أنا ماعرفش هايحصل إيه بكره .. ويا مين يعيش لبكره .. أنا باتكلم عن النهاردة ..عن دلوقت .. عن حياتنا يا (فيروز) ..

- نتجوز إيه يا (رمزي) .. وإزاي؟! وفين؟! ممكن تقول لي..

- نتجوز في أي حتة .. بس نتجوز .. وأهلي هاحطهم قدام الأمر الواقع .. وزمايلي والمجتمع مالهمش حاجة عندي ..

- مافيش حد ممكن يلغي كل الناس من حياته يا (رمزي) .. اصبر يا حبيبي .. اصبر بكره الظروف تبقى أحسن .. وساعتها ممكن الناس تقبلني أكتر وأكون مناسبة ليك أكتر ..

هببت واقفًا في غضب ..

- مافيش بكره ولا بعدين .. إحنا لازم نتجوز في أقرب فرصة.. ندوّر على شقة إيجار جديد ونقعد فيها ..

وقفت (فيروز) تواجهني، وأحاطتني بذراعيها..

- اهدا بس يا (رمزي) واحكي لي إيه الحكاية؟! مالك متعصب ومتنرفز كده.. إنت عارف إن اللي بتقوله ده حلم حياتي.. بس مش بالشكل ده.. أنا برضه نفسي يبقى ما فيش بيني وبينك حواجز.. والنهارده قبل بكره.. بس أنا عايزة أبقى عروسه.. وأعمل فرح.. وأفرح.. عاوزه أمك تحبني.. عايزة أجيب منك طفل ما يعرفش الخوف زي ما أمه عاشت طول عمرها خايفة ..

- (فيروز) .. إحنا لازم نبتدي مع بعض دلوقت .. وكل اللي بتقوليه ده هاييجي مع الزمن.. مش هانستناه لغاية ما يحصل ..

- إنت عايز إيه يا (رمزي) وأنا هاعمله.. بس إهدا وفكر.. إنت عارف إنك دنيتي وحياتي.. اللي هاتقوله أنا هأنفذه.. بس بشرط إنك تكون فكرت فيه كويس..

- يعني إنت موافقة؟!

أومأت برأسها، وأطرقت في الأرض خجلاً، فاندفعت نحوها في قوة، أحتضنها، وأقبّلها، وأداعبها في مرح وسعادة..

بينما كان ذهني مشغولاً ..

كيف سأفعل ما قلت أني سأفعله؟!

كنت في قرارة نفسي أعلم أنه ثمة أوقات صعبة ستمر علينا، وأننا في نقطة ما.. في لحظة ما.. سنرغب في أن ننهي هذا الشيء الذي بيننا، ونخرج منه. ولكني أيضًا كنت أعلم إنه إذا لم أطلب منها ذلك، والآن، فسأظل نادمًا وحزينًا ما تبقى لي من العمر، لأني في داخلي، وفي قلبي أعلم أنها أكثر انسانة تناسبني، وتناسب احتياجاتي ورغباتي.. تفهمني وتتفهمني.. تساندني ولا تتصيد لي الأخطاء.. تجعل حياتي الصعبة، الصاخبة، المزعجة، القميئة.. أهدأ، وأفضل، وأكثر نعومة وتحملاً ..

وإذ فجأة.. برزت الفكرة في رأسي:

- (فيروز) .. إحنا هانهاجر ..

- **إيه؟! ها نعمل إيه؟!!**

أجلستها أمامي ثانية، وبدأت أشرح لها في هدوء قصة (ماهر)، وخطته في الحياة، وكل شيء عنه ..

- إحنا كده ممكن نبتدي حياة جديدة .. بناس جديدة .. بمجتمع جديد ..

ولأول مرة تبتسم، وتستسيغ الفكرة..بل لأول مرة أستسيغها أنا الآخر ..وتبدو لنا حلاً مثاليًا لكل شيء ..

أحاول – منذ الطفولة – رسم بلاد ..
تسمى – مجازا – بلاد العرب ..
تسامحني إن كسرت زجاج القمر ..
وتشكرني إن كتبت قصيدة حب ..
وتسمح لي أن أمارس فعل الهوى ..
ككل العصافير فوق الشجر ..

متى يعلنون وفاة العرب

– نزار قباني –

***

حين غادرنا العيادة، استوقفني أحدهم.. رجل كبير في سن والدي، وهمس لي بأنه لا يجوز أن أحوّل مكانًا، يقصده المرضى للشفاء، عشًّا للغرام .. وأنه يعلم أنه تتكرر مقابلاتي لبنات داخل العيادة في غير أوقات العمل، وأنه يجب ألا ألتفت لأعمال الشيطان، وأنتبه لنفسي، ولمستقبلي، وأستقر، وأتزوج. اكتفيت بالابتسام، وربّت على كتفه . فقد كانت نظرتي للأمور الآن مختلفة تمامًا.. قالها (ماهر) قبلاً، وأقولها أنا الآن..

(.. أنا بأبعد يا (رمزي) لأجل ما دايمًا أفضل مقرّب ..)

جاري العزيز مسيء الظن.. سأبتعد عنك تمامًا، ويمكنك من الآن أن تكف عن القلق عليّ، وتبدأ في ممارسة حياتك الخاصة بعيدًا عني.. لو إن كلاً منا تفرغ لحل مشاكله هو، والبحث عن طرق لعلاجها، ربما لصارت الدنيا أفضل، والحال أفضل، والحياة أفضل.

نزلت الشارع، ليستقبلني سيل هائل من السباب بألفاظ غاية في البذاءة والانحطاط. صارت هي طبيعة شوارعنا، وما عدنا حتى نتأثر بها، أو نعترض على سماعنا لها.. حتى إننا كففنا عن ملاحظتها.

نظرت للناس من حولي.. ناس بلادنا ..

وتساءلت، وأنا أستعد لركوب سيارتي، لأوصّل (فيروز) لمترلها.. كم ضاع من قيمنا الجميلة ..

شابان يتشاجران.. يسقط أحدهما على غطاء السيارة الأمامي.. ولكني لا أحرك ساكنًا، بل أدرت الموتور في هدوء، و(فيروز) تراقبني في اندهاش، فقد انتظرت مني أي ردة فعل؛ ولكنه لم يحدث.

حبيبتي ما جدوى الساعة لأناس قد فقدوا الوقت.. أناس يجاهرون بالخطأ، ويفاخرون به.. يلفقون القضايا، ويختلقونها، ويعيشون فيها.. يمارسون البلطجة علنًا.. ينتهكون حرمات الناس.. يسطون على المال العام.. يتربّحون من مناصبهم، مسئولين، ومرؤوسين.. يغتالون شرف الآخرين.. يخونون للصعود على جثث الشرفاء.. يبسطون نفوذهم وسيطرتهم دون حق.. أسماك مسعورة في نهر ملوث.. ربما كيميائيًا أو إشعاعيًا.. سأترك كل هذا، وأحلّق بعيدًا.. حيث يمكنني أن أتنفس الهواء النظيف، وأستطيع التعامل مع الآخرين دون ضغوط أو حساسيات.. حيث يمكنني أن أحب.. سحابتنا السوداء لا تغطي سماءنا، بل هي تغلف قلوبنا وأرواحنا.. ونحن نختنق ولا ندري.. ويقهرنا العجز والمرض والأسى على أنفسنا..

تبادلت مع (فيروز) النظرات ..

وكل وجهي مشرق الآن ..

بل ومبتسم أيضًا !!!

***

أحاول أن أتبرأ من مفرداتي ..
ومن لعنة المبتدأ .. والخبر ..
وأنفض عني غباري ..
وأغسل وجهي بماء المطر ..
أحاول من سلطة الرمل أن أستقيل ..
وداعًا قريش ..
وداعًا كُلَيب ..
وداعًا مُضَر ..

متى يعلنون وفاة العرب
– نزار قباني –

تحمّس لنا القنصل في سفارة نيوزيلندا كثيرًا، خاصة بعدما أخبرناه برغبتنا في الزواج هناك، لنبدأ حياتنا الجديدة، وتعهد بمساندتنا، والوقوف إلى جانب طلبنا بصفة شخصية.. وبدأ كل منا ينهمك في إنهاء أوراقه المطلوبة، وجمعها في أسرع وقت..

قدمنا طلبًا مماثلاً للسفارة الكندية، ولكنه لم يلق القبول والحماس المماثل لسابقه.. ولكننا لم نيأس ..

لم أعد لمناقشة الموضوع مع أبي وأمي..

حتى عندما حاولت (جميلة) الاستطراد، لم أسمح لها.. (مجد) لم يذكر شيئًا عن موضوعي أو موضوعه.. يبدو عليه القلق الشديد، وعندما سألته، أخبرني إن محضر الفتاة قد تم إحالته للنيابة، وهو خائف للغاية من نتيجة هذا عليه.. أخبرته إنه الآن قد حان الوقت لإخبار والدي، فالأمر لا يحتمل الانتظار أكثر من ذلك، ولا يسعه أن يدفن رأسه في الرمال، وينتظر الحل يأتي من السماء.. سألته عن مدى قدرتنا على التحدث مع الفتاة وحملها على التنازل عن البلاغ، فأخبرني إنها طلبت منه عشرة آلاف جنيه، على سبيل التعويض، وهي مستعدة للتنازل، فعنفته لأنه لم يخبر أبي بذلك من قبل، وهو كان سيتصرف.. أو كان

يوافق، ويبلغ البوليس بخضوعه لعملية ابتزاز .. أو أي شيء من هذا القبيل ..

بعثت لـــ(ماهر) رسالة إلكترونية، أخبره فيها بفكرتي، فأبدى تحمسًا شديدًا، خصوصًا إن الأمور بدأت تستقر له هناك، وأنه بدأ يفكر جديًا في استجلاب أمه الآن، فرددت عليه بأنها أقل ما تستحقه، هذه الصابرة عليه، وعلى أفكاره المجنونة.

لم أخبر (أمجد) أو (منى) .. أو (لبنى)، أو أي أحد آخر من أصدقائي ومعارفي.. سأبقي الأمر سرًا حتى تستقيم الأمور لي ولـــ(فيروز) – تمامًا كـــ(ماهر) – بعدها لن يهم أي شيء ..

أخبرتني (منى) إنها أحبت فرنسا تمامًا، وتفكر في استكمال دراستها هناك، بل إنه على الرغم من عودة أهلها، إلا إنها استمرت هناك، ومدّت مكوثها شهرًا.. كل شيء هناك جديد ومثير وجميل، لكني أوحشتها جدًا.. أخبرتها إنها أيضًا أوحشتني، ولم أزد .. أخذت أيامي تمر ببطء، وملل، وأنا في انتظار النتيجة، كأنني في امتحان ما.. حاولت (فيروز) أن تتراجع أكثر من مرة، إلا إنني كنت أشجعها، وأعدد لها مزايا الهجرة، والحياة الجديدة.

أخبرتني كم هي خائفة من ردود أفعال الآخرين.. أختها.. أخوها.. عمها. سخرت منها، وسألتها وما الذي يهمها حقًا في ردود أفعالهم، خصوصًا أنها ذكرت عمها، فضحكت. أخبرت (سماح) عن احتمال إغلاقي للعيادة قريبًا، فبان على وجهها الجزع، وتساءلت عما ستفعله بعد ذلك، وكيف أن دخلها من العيادة صار جزءً هامًا من مصادر الدخل لعائلتها، وأنهم صاروا يعتمدون عليها كثيرًا.. وبكت .. هدأت من روعها، ووعدتها أني سأترك لها مبلغًا من المال، تدبّر به أمورها، حتى تجد لها عملاً آخر..

عندما عدت للمنزل، كان والدي لا زال منهمكًا في أحد دروسه.. وقفت أتأمله لوهلة، وأنقل نظري بين الوجوه الشابة الجالسة أمامه.. أحاول أن أنفذ داخل كل منهم، لأرى ماذا يفكر، وماذا يريد.. تلاقت عيني والدي بعيني، فابتسم كل منا للآخر في حنو.

وعندما قابلت (جميلة).. احتضنتها في شوق شديد، وفي قوة جعلتها تتملص وتتململ، فهي لا زالت غاضبة مني لأني لم أناقش معها موضوع حبيبتي، وزواجي منها، وكل هذه الأشياء.. هي كتلة ضئيلة من الأحاسيس، والمشاعر المرهفة، في عالم ترتع فيه القسوة، وتهيمن الغلظة والعنف. كم سأفتقدك يا ملاكي الصغير.

كانت أمي واقفة في شباك غرفتها، تتطلع إلى السماء، وتناجي الله، كما تفعل كل ليلة.. هي صلاة خاصة، بلا سجود أو ركعات، ولا تقام على سجادة.. ولكني أظنها صادقة للغاية. اقتربت منها في هدوء، واحتضنتها من الخلف، فأرجعت يدها للوراء، وربتت على شعري. همست لها..

- أنا آسف يا ماما ..

- حصل خير يا حبيبي .. (ثم مالت بجذعها تقبّلني) ..

بدأت دمعة تفر من عيني ..

هي تظن أني آسف على موضوع (فيروز)، بينما أنا آسف على أني سأتركهم، وأهاجر فقد طفح الكيل ..

دخلت غرفتي .. اتصلت بـــ(فيروز) ..

- إنتِ خايفة؟!

- قوي يا (رمزي) ..

- خير إن شاء الله .. ماتخافيش .. ربنا معانا ..

وأنهيت المكالمة ..

كنت لا زلت أتساءل، إن كنت اتخذت القرار السليم أم لا.. ولكني كل يوم، وكل ساعة، وكل دقيقة.. عندما يحدث

شيء.. عندما أسمع أي شيء.. عندما أفتح التليفزيون، أو أقرأ الجريدة، أو أمشي في الشارع، أو أرى أو أتحدث مع الناس.. أظن أكثر وأكثر.. أني اتخذت القرار الصحيح ..

لم أصدق نفسي حين جاءتنا الموافقة المشتركة من السفارة النيوزيلندية.. وعندما قابلت (فيروز) كانت ترتعد، ونظرة لا تفسير لها على وجهها ..

- عارف يا (رمزي) أنا حاسة بإيه؟!

- إيه ..

- حاسة كأن روحي هاتخرج من جسمي.. كأني بانسلخ من جلدي وأحط بداله جلد صناعي.. كأني لا اتولدت ولا عشت.. أنا حاسّة إن أنا مش موجودة.

- حبيبتي إحنا مهاجرين علشان كده.. علشان نتولد من جديد ونغيّر جلدنا..

أمسكت يديها.. كانتا باردتين كالثلج.. وعيونها زائغة.. فركت يديها بيدي، لأبعث فيهما بعض الدفء، فنظرت لي وابتسمت.. ثم زفرت في حرارة ..

- با حبك يا (رمزي) .. با حبك قوي ..

ثم ران علينا الصمت.. الأيام القادمة ستكون حاسمة للغاية في حياة كل منا، بل لحياتنا معًا .

نظرت لي في عيني مباشرة ..

– خلاص يا (رمزي).. على بركة الله.. ما دام ده هو الطريق الوحيد اللي إنت شايفه لينا ..

احتضنت يديها في حنان، ممنيًّا نفسي بقرب الوصال.. والخروج من معاناة حياتي بكل صورها.. أن تبدأ من جديد، خير من أن تتوقف، أو تتخذ الطريق الخطأ، فتجد نفسك وقد ضللت الطريق، ويمر بك الوقت، فتجد أن العمر فات، والجسد قد ثقل، فلا يسعك سوى أن تنتظر النهاية في بطء وملل ..

حجزت تذكرتي السفر، وتحدد موعد السفر بعد أسبوعين..

أسبوعان .. وتنتهي المسرحية السخيفة، التي أحياها هنا، وأبدأ حياتي الحقيقية.. كان الوقت رمضان، وأحسست أن رمضان هذا مختلف عن كل سنة.. هذا العام يجلب لي الأماني ويحقق الأحلام.. شاهدت أحد البرامج التلفزيونية التي تزدحم بها القنوات، أرضية كانت أم فضائية .. المذيعة كانت تسأل: من هي كونداليزا رايس؟! .. أجاب رجل في منتصف العمر بأنه فندق في شرم الشيخ، وهو كبير ومعروف .. شاب في

مقتبل العمر أجاب بأنها لوحة لرسام أجنبي مشهور، ولكنه لا يذكر أسمه الآن.. صبي ذكي للغاية أجاب بأنه يعرفها تمامًا، فهي وزيرة خارجية إسرائيل !!! .. كدت أسقط من فرط الضحك، المختلط بالبكاء، والإحساس بالمرارة.. شر البلية ما يضحك.. وجدتني أهتف في قرارة نفسي ..

– خلاص .. والله العظيم ماشي .. أنا ماشي خلاص .. ولا تزعلوا نفسكم ..

قمت من أمام البرنامج، واستأنفت التفكير في الخطوة القادمة.. أخبرت (ماهر) بموعد السفر، فوعدني أنه سينتظرني في المطار، ليستقبلني أنا وخطيبتي – (فيروز) – ويمكننا أن نقيم معه في شقته بعض الوقت، حتى نتدبر أمورنا، ونبدأ حياتنا.. وللمرة الأولى في حياتي، أكون أول من يقطف أوراق النتيجة.. كأني بالأيام أتعجلها، وأرقب انقضاءها.. أخبرتهم هنا أني سأسافر عدة أيام في قافلة طبية، فبدا الأمر مناسبًا تمامًا، خصوصًا ونحن في رمضان.. أما (فيروز) فقد أخبرتهم أنها ستقضي عدة أيام مع إحدى صديقاتها في الإسكندرية ..

وأخيرًا جاء اليوم الموعود ..

يوم السفر ..

كنا سنتقابل في ميدان التحرير التاسعة مساءً، لنستقل الأتوبيس المكيّف الذاهب للمطار.. لم تكن الشوارع مزدحمة فالناس في بيوتها بعد الإفطار، أسيرة المسلسلات المتتابعة، المتوالية.. فوجدتني أجلس على كنبة وحدي بمحطة الأتوبيس..

هذه هي أخر أخبار أفكر فيها هنا ..

هل ودعت أبي وأمي وأختي كما يجب.. أنا أفتقدهم من الآن.. أفتقد منزلي، وغرفتي، وسريري.. أفتقد مكتبي، الذي ذاكرت عليه مرارًا، وكتبي، وأوراقي.. سأفتقد عيادتي، ومرضاي.. بل إنني سأفتقد (سماح) الطيبة البسيطة.. سأفتقد سيارتي.. وشارعي.. و(أمجد).. و(محمد).. وكل أصدقائي على المقهى.. سأفتقد عدد أخبار اليوم يوم السبت، وأهرام الجمعة، الذي أشتريه دومًا من كشك أمام المسجد حيث أصلي.. سأفتقد الكلية، والقسم، وأساتذتي، وزملائي بالمستشفى.. سأفتقد الممرضات، والعمال، وفنيي المعمل والأشعة .. و(عم عبد الحكيم) عامل المصعد بسجائره الكليوباترا ..

نظرت لساعتي ..

كانت (فيروز) قد تأخرت قليلاً، فرننت لها على التليفون، لأتعجلها.. تذكرت عم (مرعي).. وأم (أمجد).. وخالتي..

وثانية أفزعتني صورة الطفل العراقي المشوه من جراء القصف الأمريكي..

أشعلت سيجارة، وأخذت أراقب دخانها، وهو يتصاعد، ويعلو، ثم يعلو.. متلاشيًا وذائبًا في الهواء.. هل سأفتقد هذا الهواء؟.. هل سأفتقد هذه الأرض؟.. هل سأفتقد هذا النيل؟.. لو إن هذا النيل خـيِّر، لاختار الهجرة هو الآخر، بعد أن لوثناه، وسممناه، وأخفيناه بمبانينا المشوهة، وألقينا فيه بمخلفاتنا، وأرواثنا.

سأبتعد من أجل أن أقترب ..

نظرية (ماهر)، التي أزداد بها إيمانًا كل يوم.. كانت (فيروز) قد تأخرت فعلاً، فقررت أن أتصل بها.. ولكنها لم ترد.. ربما تركت تليفونها بالمنزل.. جاء أتوبيس، ولكني لم أركبه، فرفيقتي لم تأتِ بعد.. انطلق الأتوبيس، نظرت لساعتي ثانية، وبدأ القلق يتسرب داخلي، فاتصلت ثانية .. أين أنت يا (فيروز) ..

هداني تفكيري أن اتصل على تليفون منزلها.. صعقت عندما سمعت صوتها يرد، والدموع تكاد تخترق سماعة التليفون، لتصلني: – أنا آسفة يا (رمزي).. أنا آسفة قوي.. سامحني.. أنا مش هأقدر أسافر معاك.. بلاش يا (رمزي).. بلاش.. أنا مش هأقدر.. مش هأقدر..

نظرت لساعتي.. كان الوقت يكاد يأزف..

– (فيروز) ... حبيبتي .. اسمعيني .. إحنا مش اتكلمنا في الموضوع ده أكتر من مرة، ومشينا الطريق مع بعض واحدة واحدة لحد ما وصلنا للخطوة الأخيرة.. حرام عليكي تهدّي كل اللي بنيناه في لحظة.. أنا باحبك.. وعايزك.. ومحتاج لك.. أرجوكي تعالي بقى.. مش مهم تجيبي شنطة.. مش مهم تجيبي هدوم.. تعالي.. بس تعالي.. اركبي تاكسي بسرعة وتعالي.. أرجوكي يا (فيروز).. حرام عليكي..

بدأت دموعي تنهمر هي الأخرى،وأنا أرجوها، وأستعطفها..

– والله العظيم أنا آسفة.. أنا أصلاً مانفعكش يا (رمزي).. إزاي أخليك تسيب أهلك وعيانينك وشغلك وعيادتك وصحابك وكل حاجة علشان نبقى مع بعض..

– ده اختياري ..

– لأ.. غلط.. غلط.. يا (رمزي) غلط.. لأول مرة تختار وتفكر غلط.. دي حياتنا ودي بلدنا ودي ظروفنا يا (رمزي) وما ينفعش ننكرهم ونقول إنهم مش موجودين.. أنا مش عايزة أهرب يا (رمزي).. إحنا بنهرب يا (رمزي).. فاهم يعني إيه بنهرب.. بنهرب..

- إحنا بنهرب من حاجة وحشة.. علشان حاجة حلوة.. بنهرب من حياة كلها ألم وعذاب وقسوة وعنف وغضب وحزن وحرب وموت ومرض.. علشان حياة جديدة كلها أمل وحنان ونور وعطف وفرح وهدوء.. لو أسد بيجري وراكي عايز ياكلك... مش هاتهربي؟!!

- بس أنا مش هاقدر أعمل كده ف إخواتي وعمي حتى لو مش باحبه بس عمي.. وشوف إنت كمان اللي هاتعمله ف أمك وأبوك واخواتك.. إنت يا (رمزي) اللي علمتني الشجاعة والإرادة والقوة.. يبقى لازم نحاول هنا يا (رمزي).. لازم نحاول هنا ..

- مهما حاولنا هنا مش هانقدر على كل الحاجات اللي حوالينا.. مش هانقدر نفهّم أهلي والناس والمجتمع.. ماحدش هيفهم.. وماحدش عايز يفهم.. ولا عنده استعداد إنّه يسمع أصلاً علشان يفهم..

- ولو يا (رمزي).. ولو.. أنا آسفة يا حبيبي.. أنا عارفة إني قلت لك إني تحت أمرك.. وهأنفذ كل اللي تقوله.. وإنت عارف قد إيه أنا عايزاك وبأحبك وبأتمنى أعيش عمري كله معاك ..

- ما الناس بتهاجر كل يوم.. بسبب ومن غير سبب.. وإحنا عندنا بدل السبب.. ألف سبب.

- سامحني ..

- ده آخر كلام عندك ..

- أيوه يا (رمزي).. أنا آسفة..

كنت غاضبًا للغاية.. مقهور على كل المستويات.. أحس بالخيانة، ولكني لا أستطيع أن أصف نوعها..

- متشكر قوي يا (فيروز).. على العموم أنا مسافر.. ولوحدي.. ولو عايزة تبقي تيجي براحتك.. الباسبور معاكي.. الڤيزا معاكي.. والتذكرة ممكن تبدليها.. أنا بقى مسافر دلوقت.

كانت (فيروز) منهارة على الطرف الآخر من الخط..

- خلاص يا (رمزي).. خلاص يا حبيبي.. براحتك..

سكتت وهلة، قبل أن تستأنف:

- لا إله إلا الله ..

كنت أتوقع منها مقاومة، أو استسلامًا، أو أي شيء، ولكنها لم تفعل.. جاء الأتوبيس التالي.. دون أن أرد عليها، قفزت فيه، وأنا أمسح دموعي، وأنفي في عصبية بالغة.. جاءتني رسالة على المحمول.. (حبيبي .. سامحني ..). أغلقت التليفون تمامًا في غضب، وأخذت أنظر من الشباك، والصور تتغير بالخارج في سرعة بالغة.. لم أكن في حالة طبيعية الآن، ولم

أكن أدري إذا كنت ما أقوم به الآن صح أم خطأ.. إحباط شديد أحس به يملؤني، فأكاد أتحشأه، وغثيان رهيب.. وصداع.. أحس اختناقًا شديدًا.. أخرجت رأسي من الشباك، علّ بعض الهواء يدخل إلى صدري، ولكنه لم يحدث.. فتحت علبة سجائري، لألتقط سيجارة، فوجدت العلبة فارغة، فطوحت بها في قوة من النافذة، كأني ألقي بكل القهر والإحباط داخلي.. ما هو كُنْه ذلك الشيء الملعون، الذي يجعلنا نتشبث هكذا بهذه الأرض، المحكوم عليها بالفناء، وهؤلاء الناس المحكوم عليهم بالإعدام؟.. أدركت الآن إحساس الطائر، الذي اعتاد الأسر، فلما فتحوا له القفص لينال حريته، لم يغادر القفص.. الخوف الذي تغلغل داخلنا، يجعلنا نخاف أكثر من التغيير أو الاختلاف.. نخاف المجهول والجديد والآخر..

بعض من هدوء بدأ يتسلل داخلي ..

كنت قد اقتربت أكثر من المطار ..

ما هو الحق فيما قالته (فيروز) ..

فكّرت في كل ما سأتركه خلفي ..

محبوب أنا من أب وأم يشملاني بعطف وحنان.. وأحبهما.. أحب أخي رغم مشاكله، وأختي رغم ميلودراميتها.. أحب عيادتي، وسيارتي، ومرضاي.. والأدهى من ذلك.. أني أحب (فيروز) ..

وهي لازالت هنا ..

إذا كنت سأترك كل شيء لأكون معها، فهو شيء يهون..

أما أن أترك كل شيء، ولا تكون معي فهو الجنون ..

هنا.. يبدو لم شملنا مستحيلاً.. ولكننا على الأقل يمكننا الاستمتاع بشرف المحاولة.. لقد حسمت (فيروز) كل شيء.. وأنا الذى كنت أظنها تعيش في ظلي.. الآن أظن أنه أنا الذي أعيش في ظلها، بل وأستمتع بهذا الظل.. ألا قاتل الله التردد.. ألا يمكن للمرء أن يتخذ قرارًا ما في حياته في يوم من الأيام، وينفذه؟!.. فتحت التليفون ثانية، و لم أغادر الأتوبيس..

اتصلت بها.. جاءني صوتها متلهفًا باكيًا..

– أرجوك يا (رمزي) ماتسيبنيش.. أنا مش هأقدر أعيش وإنت بعيد عني..

اغتصبت ضحكة عصبية وأنا أهتف بها ..

– منّك لله.. مش كان زمنا دلوقت على الطيارة رايحين نيوزيلندا.. أنا برضه مش هأقدر أسافر وأسيبك هنا.. أسيبك هنا لمين.. وأنا بأعمل كل ده علشانك.. منك لله يا (فيروز)..

ضحكت هي الأخرى.. ضحكة جعلت قلبي يرقص.. والنفس يعاود التردد في صدري..

– إنت مش قلتي لهم إنك مسافرة يومين تلاتة اسكندرية عند واحدة صاحبتك ..

سكتّ لحظة ثم أردفت ..

– إيه رأيك نسافر هنا يومين تلاتة .. أي حتة .. بكرة العيد وكل الناس هاتسافر ..

جاوبني صمتها للحظات قبل أن تقول ..

– نسافر مع بعض هنا معلهش.. حتى لو كانت فكرة غلط ومجنونة .. أنا موافقة ..

– نتقابل في الترجمان.. وهناك نقرر ..

كان الأتوبيس يتأهب للعودة للتحرير ..

بدأت أنظر من الشباك ثانية، محاولاً أن أستكشف السر في هذا الهواء، وهذه الأرض، وهذه المباني، وهؤلاء الناس..

ما هو سرهم..

ما هي لعنتهم..

ما هو قدرهم ومستقبلهم..

وأنا .. منهم ..

محمد نجيب عبدالله

دوسلدورف –المانيا

٢٠٠٥

سيرة ذاتية أدبية

د. محمد نجيب عبدالله

- طبيب بشري
- استشاري الأمراض الباطنة بكلية الطب — جامعة القاهرة
- عضو اتحاد كتاب مصر
- عضو نادي القصة بنادي الصيد
- ترجمت قصص مجموعته القصصية ما قبل وفاة ملك للإيطالية والفرنسية
- قدمت أوراق علمية نقدية عن أعماله في العديد من المؤتمرات الأدبية الإقليمية والعربية
- له ٣ مجموعات قصصية:
  - ما قبل وفاة ملك (٢٠٠٥)
  - عندما تموت القطط (ط١: ٢٠٠٧ — ط٢: ٢٠١١)
  - العزف على أوتار بشرية (٢٠٠٨)
- له رواية: أسفكسيا .. أن تذوب عشقاً (٢٠١١)
- له رواية تحت الطبع حالياً: أشياء في الحب تقتلنا
- له عدة مجموعات قصصية تحت الطبع: نوبة حنين — وقائع بعض ما جرى — شجرة مصيلحي — كريستال

- له صالون أدبي باسمه يقام شهرياً بعيادته بالجيزة – الرابط:

http://www.facebook.com/groups/mnwifi/

للتواصل مع المؤلف:

بريد إليكتروني:

mnwifi@gmail.com
mnwifi@yahoo.com

على الفيسبوك:

– Mohamed Naguib

الرابط:

http://www.facebook.com/Dr.M.Naguib